المجلس الأعلى للثقافة

الطب فى زمن الفراعنة

المشروع القومى للترجمة

تأليف : برونو أليوا

ترجمة : كمال السيد



572

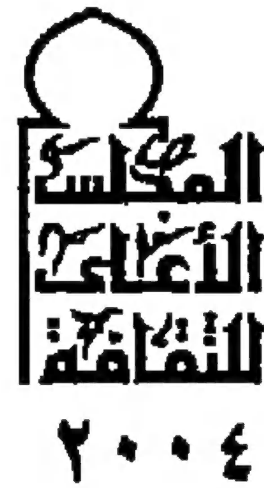
المشروع القومى للترجمة

الطب فى زمن الفراعنة

تـأليـف : برونو أليـوا

تصدير : دانييل سوليى

ترجمـة : كمال السيد



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٧٢
- الطب فى زمن الفراعنة
- برونو أليوا
- دانييل سوليى
- كمال السيد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

La médecine au temps des pharaons

Bruno Holioua

avec la collaboration de Bernard Ziskind

Liana Levi,

2002

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

قائمة المحتويات

لم يكن هـذا العمل ممكنـا دون الحصول على ترجمـات البرديـات الطبيـة. وكل الاستشهادات التى تشير إلى البرديات، مأخوذة من عمل تيرى باردينيه، "البرديات الطبية لمصر الفرعونية"، فايار، ١٩٩٥ . وقد احترمت نفس القواعد، فأدرجت الكلمات المصرية بحروف مائلة، أى ترجمت حسب المدلولات الفرعونية. وفى ترجمة النصوص المصرية وضعت الكلمات التى لم تمكن قراءتها بين قوسين معقوفين [...]. وأضيفت الكلمات الضرورية لفهم الترجمة بين قوسين (...) . والمدلولات المناظرة بين قوسين (=) تدل على تحديد دقيق أضافه المترجم. ولم نر ضرورة لوضع مسرد للمصطلحات الطبية والمصرية، فهى متوافرة فى أماكن أخرى (قاموس المصطلحات الفنية للطب، مالوان محرر ، ١٩٧٨ . وجاى راشيه، قاموس الحضارة المصرية، لاروس، ١٩٩٨). ويتيح فهرس بأسماء الأعلام كشف العلاقات التى ربطت الفراعنة والملكات والآلهة بالطب.

تصدير

فى عام ١٨٢٢، أعلن جان فرانسوا شامبليون مولد علم المصريات، وهو علم مصر القديمة، فى رسالته إلى السيد داسييه، الخاصة بالحروف الهجائية للهيروغليفية لفظا وكتابة. وتم أخيراً كشف الستار عن الثقافة القديمة للفراعنة عن طريق كتاباتها نفسها، دون الاضطرار للاقتصار على النصوص اليونانية والرومانية وحدها التى ينبغى القول : إن دلالاتها تكون مغلوطة أحيانا، وغير محددة غالبًا.

وخلال مائة وثمانيْن سنة، تطورت المعارف المتوفرة لدينا عن الحضارة الفرعونية بصورة كبيرة. فهل يوجد فى وقتنا الحاضر علماء للمصريات مماثلون لمن كانوا موجودين فى البدء والمنشأ ؟ لا ريب أن النفى هو الرد. فحتى ثلاثين سنة خلت بالكاد، كان الادعاء لا يزال ممكنا باستيعاب الكتب والمقالات التى توالت على مر السنين لتثرى ببليوجرافيا كبيرة بالفعل، لكن فى وقتنا الراهن ... فإن مئات المؤلفات التى تم تحريرها جعلت من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – إعداد دراسة شاملة ومتعمقة عن العالم الفرعوني. إن عالم المصريات فى القرن الحادى والعشرين يوشك أن يصبح "إخصائيًا بالغ التخصص". وكون المرء مؤرخًا للفنون، عالمًا بالآثار القديمة، متخصصاً فى النقوش الأثرية، يجعله يقصر بحوثه على الإمبراطورية القديمة أو على عصر نهاية الإمبراطوريات والانحطاط، على هذا الموقع أو ذاك. ولسوء الحظ، فإن شمولية هذا العلم مقضى عليها بالاختفاء السريع، الناجم ببساطة عن تضاعف محاور البحث. فهل يعنى ذلك أن علم المصريات فى طريقه للانتقال لسن الرشد ؟

فى هذا العلم الذى يغدو علمًا معقداً أكثر فأكثر، لا يزال ينتابنا التردد فى أحيان كثيرة فى الاستعانة بالعلماء غير المتخصصين فى علم المصريات. والمؤكد أن علماء الآثار القديمة ضربوا المثل، وكل بعثة تعمل حاليًا فى وادى النيل تضم معماريين وجيولوجيين، وعلماء أنثروبولوجيا ، ومتخصصين فى دراسة الخزف ، يساعدون بفضل تقنياتهم المتخصصة فى إجراء الدراسات عن الاكتشافات الخاصة بآثار الحضارة

والنشر عنها. لكن لا يزال يسود الحذر في الغالب الأعم "ممن لا يستطيعون استيعاب النصوص بصورة مباشرة"، من لا يستطيعون قراءة الهيروغليفية، "غير المطلعين على الأسرار"؛ وهو موقف يمثل مفارقة من حيث إنه قائم، ذلك أن هذه النصوص يسهل توصل الجميع إليها، بفضل الترجمات الرائعة التى اقترحها علماء النقوش الأثرية ذوو المواهب المعترف بها عن حق. فمن يستطيع أفضل من الجيولوجى أن ينهمك فى دراسة الصخور والمعادن التى استخدمها جهابذة البناء والتشييد لدى الفراعنة ؟ ومن يستطيع خير من عالم النبات أن يصل إلى النباتات التى كانت تزين الحدائق على ضفاف النيل ؟ ومن أفضل من الطبيب يستطيع توضيح وفهم أسرار الأطباء والجراحين القدماء ؟

ذلك هو تحديداً ما يؤكده مؤلف هذا العمل. ومن المؤكد أنه ليس عالمًا فى المصريات، لكنه استطاع – مستخدمًا ترجمة النصوص الطبية العظيمة التى حررها زملاء أمنحتب – أن يقدم نظرة جديدة تمامًا عن الطب المصرى. وذلك أمر نادراً جداً ما حاوله علماء المصريات رغم أن المطبوعات الناجمة عن أعمالهم تشكل قاعدة لبحث مرتفع النوعية لكن إنجازه لا يزال أمراً مرتقباً.

وأن ينهض فنى متخصص مثل الدكتور أليوا بالمهمة فرصة طيبة للوسط العلمى، لأنه متخصص فى المصريات وكذلك طبيب. ذلك أن عين المتخصص تمكنه من إثارة اهتمام الوافدين الجدد مثلما تثير اهتمام العلماء المتمرسين. "فالمهندس الطبى المعاصر" الذى يتمثل فيه يستطيع – خيراً من أى أحد آخر – أن يستوعب هذه الحصيلة المهجورة أحيانا على نحو يدعو للدهشة، والتى تسم براعة القائمين على الرعاية الصحية من المصريين. ومما يدعو للدهشة أن نجد عالمًا معاصراً، متمرسًا فى علم الوراثة واستخدام الميكروسكوب الإلكترونى، يعلق على كمادات ذيل التمساح التى كانت النساء المصريات يستخدمنها لمنع الحمل ! ولا ريب أن رحلته فى فن الطب المصرى ستدهش البعض بسبب الجانب الرائع المتعلق بالوصفات الطبية وسلامة التشخيص، وهو الأمر الذى لا ريب فى أنه سيثير اهتمام كل قارئ بسبب بساطة بيانه واتساع نطاق تبحره.

دانييل سوليى

عالم مصريات

شكر المؤلف

أشكر بصفة خاصة برنارد زيسكند الذى نقل إلىَّ شغفه بعلم المصريات. وهذا العمل الذى تعود فكرته إليه هو نهاية لعمل مشترك طويل ، ومدقق لم يكن يمكن تحقيقه دون المساعدة التى لا تقدر ، والتفهم الكامل من قبل فانى وكورين. وأشكر بالمثل المساندة التى تلقيتها من سالومى ويتسابى وناعومى الذين تمنى أبوهم وجدهم بدورهما نقل حماسهما لمصر القديمة إليهم.

ويسعدنى أن أعرب عن الامتنان بصفة خاصة لدانييل سوليى الذى قبل أن يعيد قراءة هذا العمل باهتمام وأن أستفيد من ثقافته ونصائحه المستنيرة.

وأشكر الدكتور تيرى بارديتيه الذى نقل إلىَّ بكل رقة وتلقائية ثمرة عمله الرائع فى ترجمة الوثائق الطبية.

وتستحق امتنانى وعرفانى سيلفى جيليه، وسيلفى موشيه وفابيان ديمونتيه الذين أتاحوا بصبر وكفاءة تحويل هذا المخطوط إلى كتاب. وبدون تشجيع ليانا ليفى التى ساندتنى دوما فى مشروعاتى، لم أكن لأجد الشجاعة للقيام بهذا العمل.

وقد تلقت الدكتورة باتريس جوسيه بكل رقتها المعهودة فكرة هذا العمل بحرارة.

شكرًا جزيلاً لباتريك كونان من مركز وثائق تاريخ الطب فى جامعة باريس السادسة الذى ساعدنى بحرارة فى بحوثى.

وأود أن أعرب عن عرفانى للبروفيسور جان – نويل فابيانى أستاذ كرسى تاريخ الطب فى جامعة باريس السادسة الذى أرشدنى فى مشروعات للبحث.

كذلك أشكر كفاءة ويقظة برناديت موليتور من مكتبة كلية الطب فى باريس وكذلك مارتين بوى وصوفى ريشييه من محفوظات إدارة المساعدة العامة فى باريس.

شكراً كثيراً للدكتـورين أوليفييـه سـارازان ، وكريستيان رينييه على مساعدتهما فى أعمال البحث.

وأشكر فيليب مـارتينيز ، الذى أجريت مـعه حـوارات مثمرة فى بداية تحرير هذا العمـل.

شكراً كثيراً لكل أصدقائى فى معهد ألفريد فورنييه.

مقدمة

مع اقتراب هذا القرن من نهايته(*) نشهد ولعًا حقيقيًّا بالتاريخ يترجم الحاجة إلى تكريس وقت للتفكير والتدبر. وهذا الاهتمام مهم بصفة خاصة فى ميادين معينة مثل الطب، الذى نشهد حدوث انقلابات كبيرة فيه. وكثيرون هم الممارسون والمرضى الذين يريدون التمكن من عناصر المقارنة والتفسير. وتاريخ الطب، الذى طال إهمال الممارسين أنفسهم له، وسيلة رائعة لفهم المشاكل التى يواجهها الأطباء فى ممارستهم اليومية، مثلما أوضح ليشتنشتايلر بدقة: "إن المعارف المهنية وحدها تجعل منك مجرد فنى وموظف فى مجال الصحة، وبفضل الوعى التاريخى وحده تنضج لتصبح شخصية طبية معتبرة عن حق[1]".

لكن لماذا نهتم تحديدًا بالطب المصرى؟

هناك أولا الجاذبية التى تمارسها مصر القديمة التى تعتبر أم التقاليد الروحية الغربية. وقد وصف ألبرت تشامبادور جيداً هذه الخاصية فى المقدمة التى وضعها لكتاب الموتى: "يكفى النزول بمصر للتعرف فورا على وجود حضارة مدهشة، ولاعتبارها هبة لأجيال بادت. إنها مصر التى تبلغ من العمر ستة آلاف عام ، التى تستقبلك وتفتنك على الفور ...[2]" وهذه الجاذبية ليست بجديدة: ففى العصور القديمة الغابرة، تأثر عدد كبير من الفلاسفة بإقامتهم فى بلد النهر الخالد. وهكذا فقد تشرب بهذه الحضارة فكر هوميروس وأفلاطون وفيثاغورث وبلوتارك وطاليس وهيرودوت وسولون بصورة قوية[3]. وعن طريق كتاباتهم نشأت علاقة من الاستمرار بين الحضارة المصرية وحضارة الغرب ،

(*) بقصد نهاية القرن العشرين المنصرم . (المراجعة اللغوية)

وهى تواصل قصة حريق مكتبة الإسكندرية وإغلاق الإمبراطور ثيودوس الأول فى ٣٩١ للمعابد الوثنية فى الإمبراطورية بصورة منتظمة(٤). وضاع كل أثر لمصر القديمة مع القضاء على هذه الأحرام المقدسة، فى الوقت الذى اختفت فيه الكتابة الهيروغليفية. وخلال القرون الأربعة عشر التى تلت ذلك، سقطت الحضارة المصرية فى بحر النسيان كلية، فى حين تعرضت كنوزها المعمارية وإبداعاتها الأدبية والفنية والعلمية لفظائع عمليات الاحتلال المتعاقبة.

وكان ينبغى انتظار أن تكشف الكتابة المصرية عن أسرارها لجان فرانسوا شامبليون فى ١٨٢٢، ليعاد اكتشاف هذه الثقافة المدهشة وليولد علم المصريات، وفى الوقت نفسه الهوس بمصر. ومن خلال تواصل أبحاثهم، اكتشف علماء المصريات الطابع الطليعى لهذه الحضارة بمفاهيمها المبدعة فى مجال الفلك، والزراعة، والهندسة والطب. ومن ثم، فحتى هذه الفترة، كان التفكير الطبى المصرى مجهولا بصورة تامة تقريبًا. وقد بلغ الافتقار إلى الوثائق والجهل بإنجازات المصريين فى هذا المجال حداً جعلهم يعزون أصل الطب الغربى بالإجماع إلى شخصية أبقراط الأسطورى.

بيد أنه قبل أن يرسى "أبو الطب" قواعد تفكير طبى محدد بثلاثين قرنًا، كان يوجد بالفعل طب مصرى جرى تنظيره وتنظيمه على نطاق واسع، وأثّر – بطريقة لا جدال فيها – على التفكير الطبى للعبرانيين واليونانيين والرومان.

ولم يبدأ إلا فى نهاية القرن التاسع عشر، اهتمام العلماء بالطب المصرى على نحو حقيقى باكتشاف ثم ترجمة البرديات ذات المحتوى الطبى، أو المتعلق بالطب والسحر. ومع ذلك، فقد كانت النسخ الأولى تعانى من عيب يتمثل فى أنها تقريبية، ومن ثم تناقصت أهمية هذه المباحث وجرى تشويه قيمتها. بل لقد كانت منشأ سوء فهم دام طويلاً يمكن بمقتضاه اختزال الطب المصرى إلى كتلة مختلطة من الطب والسحر ليس لها قيمة علمية موضوعية.

وقد أثار هذا المفهوم نقاشًا حاميًا داخل مجتمع المهتمين بالطب المصرى، كان طرف نقيضه، المتحمسين من أمثال ن. رياض(٥) الذين رأوا فيه تعبيراً عن علم حقيقى لا نظير له فى العصر، والأكثر اعتدالاً مثل هـ. ى. سيجريست(٦) و ف. جونكهير(٧)، و أ. ب. ليكا(٨)، الذين رأوا فى فن العلاج هذا شيئًا يتعلق بالسحر والدين، والتجريب والرشد فى الوقت نفسه. وأتاحت الترجمة الدقيقة للبرديات الطبية – التى قام بها

و. ويرزنسكى[٩]، ثم ج. هـ. برستيد[١٠] ، و ب. إيبل[١١]، و ى. إيفرسن[١٢]، ج. و. ب. بارنز[١٣]، وبالذات ت. باردينيه[١٤] - فهمًا أفضل للأمراض والطريقة التى كان المصريون يعالجونها بها. وخلال العقود الثلاثة الأخيرة، شهدنا بوجه خاص قفزة مدهشة للأمام لعلم أمراض الشعوب القديمة وتقدما مرموقا فى مجال علم المصريات، مع فهم أفضل للغة الهيروغليفية واكتشاف نصوص عديدة، قادرة على إثارة الجدل حول المفاهيم القائمة وإثراء معارفنا فى مجال بحث الأوبئة، وعلم الأمراض وعلم المداواة.

ومن جانبى، فقد بدأت الاهتمام بطب الفراعنة بطريقة عارضة تماما، عند الاحتفال بعيد الفصح (بيساح)، والذى يتعين بموجبه أن نقدم للأطفال - بموجب التقاليد العبرية - شرحا "للضربات العشر التى أصابت مصر". إن عدم وجود إجابة محددة للسؤال عن أسباب وفاة الصبيان البكر المصريين هو الذى جعلنى أنجذب إلى هذا الجانب الذى - كثيراً - ما تم تجاهله من تاريخ الطب. وفى حين إنه توجد كتابات كثيرة عن مصر القديمة وعن الجوانب المتعددة لهذه الحضارة، فإننا لا نجد شيئًا تقريبًا عن الطب فيها. ومن الواضح أن تكوينى المهنى هو الذى أتاح لى تقدير القيمة الطبية لهؤلاء الأطباء الذين لم يكونوا مجرد مجبِّرين متمرسين فى علم النفس، كما يعتقد خطأ الذين لا تتوافر لهم أى معرفة بالطب. ويتطلع هذا العمل إلى أن يسد هذه الفجرة، ويكتشف الطب المصرى وينشره على الجميع على نحو يحظى بالتقدير، وهو الطب الذى يدين له الممارسون الحاليون فى ممارساتهم اليومية لفن إسكيولاب(*)، أو الأجدر عند أمنحتب. وعن طريق إجراء ترجمة للبرديات الطبية، قدرنا مدى أهمية معارف المصريين. ومن جانب آخر، فإن الطب الذى كان يمارس فى مصر القديمة، ظل - بقدر لحد كبير - هو نفسه خلال ٣٠٠٠ سنة من حكم فراعنة مختلفين.

ولنضف أن دراسة المشكلات المتعلقة بصحة المصريين فى إطار حياتهم اليومية، تتيح تناول الحضارة الفرعونية من زاوية أصيلة بوجه خاص، لأنه كما يعتقد عالم الأنثروبولوجيا ى. هـ. أكركنشت "فإن علم أمراض مجتمع ما يعكس ظروفه العامة وتطوره ، ويوفر مؤشرات قيمة لفهم هذا المجتمع[١٥]".

(*) إله الطب عند الرومان . (المترجم) .

الهوامش

(1) C. Lichtenthaeler, Histoire de la medecine, Paris, Fayard, 1978.

(2) A. Champdor, Le livre des arts : papyrus d'Any, de Hunefer, d'Anhai du British Museum, 1 vol., Paris, Albin Michel, 1963.

(3) D. Spaeth, Pneumologie et cancerologie dans la medecine de l'Egypte ancienne a travers les écrits medicaux, l'art et les donnees de la paleopathologie, These de docteur en medecine, Nancy, 1990.

(4) .J. Vercoutter, A la recherche de l'Egypte oubliée, 1 vol., Paris, Gallimard 1986.

(5) N. Riad, La medecine au temps des Pharaons, Paris, Maloine, 1955.

(6) H. E. Sigerist, A History of Medicine : Primitive and Archaic Medicine, New York, Oxford University Press, 1951.

(7) F.Jonckheere, Les medecins de L'Egypte pharaonique, Bruxelles, Fondation egyptologique reine Elisabeth, 1958.

(8) A. P. Leca, La medecine egyptienne au temps des pharaons, Les Edition;Roger Dacosta, 1983.

(9) W. Wreszinski, Der Londoner medizinische Papyrus und der Papyrus Hearsi in Transkription Ubersetzung und Kommentar, Leipzig, J.C. Hinrichs, .١٩١٢

(10) H Breasted, The Edwin Smith surgical papyrus (in fac simile and hieroglyphic transliteration with translation and commentary), Chicago Chicago University Press, 1930.

(11) Ebbel, The papyrus Ebers, Londres, Levin et Munksgaard ed, 1937.

(12) E. Iversen, Papyrus Carlsberg n°V7//, Copenhagen, Munksgaard, 1939.

(13) J. W. B. Barns, Five Ramasseum papyri, Oxford, Oxford University Press 1956.

(14) T. Bardinet, Les papyrus medicaux de P'Egypte pharaonique, Paris, Fayard 1995.

(15) E. H. Ackerknecht, «Anthropology today» cité par Dominique Spaeth op.at.

١ - المهنة : طبيب

الهيئة الطبية

يقارب مفهوم الممارسة الطبية فى مصر القديمة ما كان موجوداً فى فرنسا فى القرن التاسع عشر؛ إذ كان يتم التمييز حينذاك بين الطبيب وموظف الصحة والمجبر (أو المداوى)، وهى شخصيات تجد مكافآت تقريبية لها فى الممثلين الثلاثة للهيئة الطبية فى مصر الفرعونية: "كل طبيب، كل كاهن (أواب) لسخمت، وكل سا (سركت) يضع يديه، أو أصابعه على الرأس، وعلى الرقبة، وعلى الأيدى، أو على موطن البطن (إب)...".[1] وكان لفظ سونو يشير حسب البعض إلى "طبيب علمانى على أرفع مستوى"، على النقيض من كاهن سخمت الذى يعد كاهناً مداوياً، ومن ساحر التعازيم سلكت أو سلكيس. الذى يعد ساحراً كاملاً[2].

حماية العالم من الفوضى

كيف نفسر هذا التقسيم للاختصاصات، بغير نفس المفهوم الذى كان سائدا فى الطب فى مصر القديمة؟ كان المصريون يعتقدون أن الذى كان يشكو من مرض ما ، أو من ألم ما، هو فريسة لقوة سلبية، لعداء الآلهة، وحتى الشيطان. ومن ثم، كان هدف الطبيب هو محاربة القوة غير المرئية ، والمخالفة للعقل التى تثير الاضطراب فى أعضاء الجسم. وكان يصارع الأسباب الأكثر عمقاً للمرض بأن يردد إما صيغاً سحرية، أو رقيات دينية.

ولم يفرض الجانب العلمى والرشيد من الطب نفسه إلا بصورة تدريجية، بقدر ما أثبتت علاجات معينة فاعليتها[3]. ومع ذلك، فقد شكل الدين الأرضية التى تطور عليها العلم. والواقع أنه فى ارتباط لا ينفصم بأسلوب الحياة خلال نحو ٣٥٠٠ سنة، أثر على الحياة اليومية للجميع، من فرعون حتى أفقر رعاياه، وحافظ على "حماية العالم من الفوضى"[4]. وبذا ندرك السبب فى أنه كان يوجد لدى المصريين وهم "أكثر الناس تديناً"، حسبما يصفهم هيرودوت المؤرخ اليونانى "أول أناس فى العالم عرفوا الآلهة،

وشادوا المعابد وبنوا المذابح وحشدوا الجموع في الاحتفالات الدينية"[٤] كما يرى لوسيان ساموزات، عدداً من الآلهة يقومون بدور محدد تماماً في مجال الطب[٦].

أما فيما يتعلق بالسحر أو الحيكة[٧]، وهو مجموعة الشعائر التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقائد الدينية التي كانت تنقل الأساطير والمعتقدات، فقد كان يعتبر حقًا علماً من العلوم، نظرياً وتجريبيًا في نفس الوقت. وأصبح في "أرض اصطفاء السحر[٨]" هذه، المتمثلة في مصر، يتدخل مثله مثل الدين، بطريقة متواترة في مظاهر الحياة اليومية[٩]. ونتذكر أن فرعون لم يوافق على خروج اليهود من مصر إلا بعد أن نجح موسى في التغلب على السحرة المصريين. وكان هذا "العلم" البعيد عن أن يكون علما خفيًا، يجمع "مجموع القوى الضرورية لحماية الحياة ونمائها. وبهذه الصفة أيضًا تضمن الطب نفسه في مسيرته الرشيدة لتحقيق الشفاء"[١٠]. وإذا استهدف الإبقاء على جسم الإنسان متناغما مع الكون، حتى يستطيع أن يعمل كمجمع للقوى الحيوية التي تمثل منشأ العالم، كان مكرسا بصفة أخص لعلاج الأمراض المسماة بالباطنية مثل الكسور والقروح والجروح[١١]، والتي تعتبر نتائج "لقوى غير مادية"، نوعًا من الروح الشريرة ، أو الغضب الإلهي المرتبط بالشر[١٢]. وكان الاعتقاد السائد أن الطبيب الساحر تتوافر له قدرة ما. فالطبيب الساحر المنوط "بالممسوسين" لديه القدرة على التصرف مع القوى الخارقة للطبيعة والأرواح والشياطين الشريرة[١٣]. ويعالج السبب بأكثر مما يعالج النتيجة، ويعالج الشر بأكثر مما يعالج العلة.

فهل يتعين من ثم – كما يعتقد بعض المؤلفين – اعتبار الدين والسحر كوابح عرقلت تطور الطب[١٤]، و"عقبة ميتافيزيقية ووضعًا بديلاً"[١٥]؟ وهل يمكن القول بأنه "في ظل أسلوب التعايش الاجتماعي حيث يسود الفكر المستند للسحر في عالم غير رشيد، خارق للطبيعة أو أسطوري، اختفت فكرة المرض الطبيعي للجسد ، أو لم تستطع الظهور"[١٦]؟ الواقع، أن الطب المصري ينتمي إلى تلك المرحلة التي سماها المؤرخ ليشتنتايلر[١٧] المرحلة القديمة أو الشرقية: والتي تتميز بتبدل الطب مع تغير التنظيم الاجتماعي، ومولد الكتابة الذي أتاح الحفاظ على الخبرة الإكلينيكية والعلاجية وظهور مهنة الطب في الأزمنة القديمة[١٨]. وحسبما يرى سبايث فقد كان الطب في مصر القديمة يتسم منذ بدايته بمكونين، "السحر الذي كان من مخلفات الفكر البدائي

والقبلى، والتجريبية الرشيدة التى كانت ثمرة وإسهاما للتطور الاجتماعى والثقافى"[١٩].

وإجمالاً، لنورد ملاحظة ج. لينبر "إن الطب هو نتيجة للسحر الذى لم يكن هو نفسه سوى وجه للدين، وقد ظل الثلاثة جميعا مختلطين بصورة وثيقة مع بعضهم البعض فى نظر المصريين"[٢٠].

الأطباء والكهنة والمداوون

إن السونو هم الذين يمارسون حقًا وظيفة "الأطباء". وكلمة "سونو" الهيروغليفية التى تشير إليهم تجمع بين ثلاث إشارات: إشارتين صوتيتين، السهم (سون) والوعاء (نو)، مرتبطة بإشارة رجل جالس بدلا من أداة التعريف[٢١]. وإضافة إلى الرسوم على جدران سراديب القبور المنحوتة فى المنحدرات الصخرية الصحراوية خلال الإمبراطوريتين الوسيطة والحديثة، والنقوش على جدران المعابد، وعلى النصب الجنائزية للأطباء أنفسهم ، أو على نصب كبار المسئولين الذين كانوا ملحقين بهم، وعلى "الأبواب الزائفة"، أتاحت التوابيت الحجرية وتماثيل المسئولين الجنائزية، التوصل لأسماء البعض منهم وتتبع مسيرتهم[٢٢]. وقد تم اكتشاف أقدم مومياء طبية تم العثور عليها حتى الآن مؤخرا، فى خريف ٢٠٠١، وبقيت سليمة فى حجرتها الجنائزية فى سقارة، والتى بنيت على عمق ١٢ مترا: وهى تخص قعر، وهو كاهن ، و "طبيب كبير لسر القصر"، عاش فى ظل الأسرة الخامسة (٢٤٥٠ – ٢٣٢١ ق.م.)[٢٣].

والى جانب السونو هؤلاء، نجد كهنة (أواب) سخمت الذين نذروا أنفسهم لخدمة آلهة الشفاء المهابة هذه، "والمداوين التابعين لسلكت"، و"سحرة آخرين تخصصوا فى وظائف أكثر تخصصا من كهنة سخمت"[٢٤]، والذين لم يقنعوا بأن يكونوا أطباءه واستطاعوا أحيانا تقديم الرعاية البيطرية[٢٥] ، ويحدد نص مسجل لسيرة جتنوب فى الإمبراطورية الوسطى : "أنا كاهن (أواب) لسخمت، خبير فى وظائفى، يضع يده على الرجل (المريض) ويعرف (مرضه)، وخبير فى فنون التشخيص باستخدام اليد: يعرف فى الثيران..."[٢٦] ومن جانب آخر يمكن أن نجد تصويرا لكاهن سخمت فى مشهد ذبح الثيران[٢٧].

وكانت وظائف الكهنة ، و"المداوين" تحدد عادة كمقابل لوظائف السونو، فأحدهما تميزه "طبيعته الكهنوتية"(٢٨)، والآخر يعتبر شخصية مدنية. ومع مراعاة كل الأبعاد، فإن هذا التمييز يذكرنا بما كان موجوداً فى فرنسا فى عصر النهضة: "كان يوجد أطباء علمانيون، دنيويون، وأطباء من رجال الدين، لهم شخصية كهنوتية، والمثال الجيد لهذا الأستاذ فرانسوا رابيليه، والذى كان طبيباً ثم كاهنا لميدون فى ١٥٥١"(٢٩).

وقد ميّز باحثون آخرون مثل جاستون ماسبيرو، هذين النوعين من الممارسين حسب أسلوب عملهم: "فالسونو طبيب يعمل وفق الكتب والأواب سخمت هو كاهن، أيا كان، كيميائى، يستخدم إلهامه من سيده وإلهه، من مصادر خارقة للطبيعة"(٣٠)، مما يخلق تماثلاً مع ما كان موجوداً فى اليونان القديمة ويقرنه بما كان يشكل فيها الإيروس، "المداوى" ، وزميله الإياتروس "الممارس المتعلم". ولإدراج كاهن سخمت "أواب" فى الهيئة الطبية(٣١)، ينبغى الركون إلى استنتاجات ريمى بيكارد، الذى يبدو أنه استخلص الاستنتاجات الأكثر إثارة للاهتمام عن هذه المنزلة المحيرة : "إن كاهن (أواب) سخمت ينشر الأدواء ويعالجها. وعندئذ يصبح هو السيد فى هذا، مسترخيا ومحيدا مولاته الخطيرة. إن المرض يعتبر تجليا لسخمت، وكذلك الكاهن "أواب" الذى يشفى المرض بفضل طهارته. ومن ثم يتيح تدخل كاهن سخمت فى عمل من أعمال الطبيعة الطبية اعتباره طبيباً(٣٢).

ومما زاد الأمور تعقيدا، أن عدداً معيناً من الشخصيات كان يحمل فى الوقت نفسه لقب السونو وكاهن (أواب) سخمت. فقد كان هذا هو حال نيفر فى ظل تحوتمس الأول، والذى يتضمن النصب المقام له ما يلى: يقول نيفر كاهن (أواب) [سخمت] : "إننى طبيب حقيقى، أصابعه ماهرة... أتسمع أمراض الجسم"(٣٣). أو نصب أمنحتب، التى تحدد النقوش الجنائزية عليه أنه كان يمارس وظائف "رئيس كهنة سخمت" وذلك على التمثال الذى كرسه له ابنه إيونى، الذى كان هو نفسه رئيسا لكهنة سخمت. كما منح بتاح – حوتب الثانى هو أيضا، والذى عاش فى الأسرة الخامسة هذا اللقب المزدوج: "رئيس كهنة (أواب) سخمت فى القصر، وطبيب (سونو) أريناختى"(٣٤).

وكل "هؤلاء الكهنة تمثل دورهم فى حماية مصر وشعبها من الشياطين والأرواح"[٣٥]، ونعرف أنهم أصبحوا مستشارين ملكيين فى ظل رمسيس الثانى بدءا من الإمبراطورية الحديثة ، ونالوا لقب حيرى-تيب[٣٦].

وهناك الفئة الأخيرة : وهم مداوو سلكت والذين كانوا أنفسهم يضمون نوعين من الشخصيات : حيريب سركت ، أو "رئيس سلكت"[٣٧]، والذين عرفنا منهم حوالى الأربعين، وسا سيركت والذين لا يزالون غامضين لحد كبير، وكانت الحالات التى وردت عنهم فى الأدبيات التى وصلت إلينا جد قليلة (دستة بالكاد)[٣٨]. وكانوا جميعا مرتبطين بالآلهة سلكت – حيتت "التى تجعل الصدر يتنفس"، وفق ترجمة ف. فون كانيل[٣٩]، والتى كانت تشفى متاعب التنفس الناتجة عن السم.

واستطاع مداوو سلكت فى الواقع التوصل لعلاج عضات ولدغات الحيوانات السامة بفضل أدوية أو وصفات سحرية : "إنهم هم الذين يهيئون الطريق لإحياء الموتى، لإدخال الهواء من الأنف المسدود، لإحياء من يعانى من الاختناق بحركة ذراعيه وكذلك بكل طريقة حيريب سيركت (...) وكل طرائق حيريب سيركت لإحياء كل الناس، وكل الحيوانات عن طريقتهم وحمايتهم من سم كل الثعابين إناثًا وذكورًا، وكل الزواحف"[٤٠].

وهنا أيضًا، يبدو أن شخصيات عديدة جمعت بين ألقاب طبية مختلفة، مما أثار الفوضى فى هذه الفئات : فقد حملت شخصيتان فى الأسرة السادسة، خوى وأريناختى الثانية لقب السونو ولقب حيريب سيركت القصر فى نفس الوقت[٤١]. وكان بسماتيك – سينيب، هو أيضًا رئيسًا للطبيبين، حيريب سيركت وسا سيركت فى ظل الأسرة السادسة عشرة.

الإخصائيون : أطباء الأسنان، والجراحون و رعاة الشرج

يمكن أن نحاول إيجاد مكافآت لتخصصاتنا المتفردة فى ممارسات الأطباء المصريين. وقد اعتقد ف. جونكير[٤٢] أنه تعرف على نظير الجراح لدينا فى "الساحيمن" التى ترجمها "برجل الكى" المذكور عدة مرات فى جزء من بردية إيبرز عن الأورام:

"والتى تعالج بنفس الطريقة التى يعالج بها رجل الكى مريضه". ولكن التطابق ليس بمثل هذه البساطة على الدوام.

وتشير شهادة هيرودوت، الزائر الشهير لمصر فى عصر الفرس فى ٦٣٠ ق.م إلى تقسيم آخر للهيئة الطبية، المكونة على وجه الحصر تقريباً من أطباء متخصصين: "كان الطب عندهم مقسما إلى تخصصات، وكل طبيب يعالج مرضاً، ومرضاً واحداً... كذلك كانت البلاد مليئة بالأطباء، وإخصائيى العيون، والرأس، والأسنان، والبطن، وكذلك الأمراض غير المؤكد منشؤها"(٤٣).

والمؤكد أن هيرودوت استطاع أن يعمم على مجموع الهيئة الطبية القاعدة المطبقة داخل القصر الملكى. ولكن هذا الاتجاه إلى التخصص استمر باقياً إلى ما بعد العصر الفرعونى، حتى إن بلين(*) القديم، وهو يشير إلى ظهور مرض جلدى له طابع معد فى إيطاليا فى ظل تيبير ثم فى ظل نيرون بعد ذلك، حدد أنه "جاء عندئذ من مصر، وهى موطن أمراض مماثلة، أطباء ليس لديهم سوى هذا التخصص"(٤٤). ونجد بين المتخصصين الآخرين، أطباء العيون، سونو-إيرتى أو سونو-إيرت ، أو على نحو أشد ندرة سونو - سينيب - إيرتى وهى تعنى على التوالى طبيب "العينين"، طبيب "البصر"، أو الطبيب "الذى يشفى العينين". وقد بلغت شهرة هؤلاء الإخصائيين حداً جعل قورش ملك فارس، يستدعى واحدا منهم إلى بلاطه ليعالجه من مرض فى العينين(٤٥). كما وجد نظير لطبيب الأسنان لدينا، الأبحى (من كلمة أبح وتعنى "سنة")، وهو "الذى يعنى بالأسنان، أو الإيرى أبح "الذى يعالج الأسنان"(٤٦) ، وليس من الواضح تماماً بعد الفرق بين الاثنين. ومن بين مختلف الإيرى أبح، تم تحديد اثنين منقرع عنخ الذى عاش فى ظل الأسرة الخامسة، ونيفريت الذى مارس مهنته فى ظل الإمبراطورية القديمة(٤٧). ونجد من بين رؤسائهم فى التسلسل الهرمى ، أو أورابحى أى (كبير أطباء الأسنان)، آثاراً لواحد معيّن منهم هو حيسى رى فى ظل الأسرة الثالثة عشرة، فضلاً عن الأورسونو (كبير الأطباء) ، وهو موظف سامٍ فى بلاط الملك جسر، والذى كان حسب

(*) عالم طبيعيات ، وكاتب لاتينى مؤلف التاريخ الطبيعى . (المترجم)

رأى جيل بولو[٤٨]، دون شــك هـو "أقــدم من حـمل لقــب سـوتــو" ، و "أول طبـيب أسنان فى التاريخ"[٤٩].

وقد جمع كبير أطباء أسنان آخر، هو خوى، بين هذا التخصص ولقب "راعى الشرج" أو نيرو بيحوت[٥٠]: ويشير هذا اللقب إلى كل طبيب كفء لوصف وإعطاء العلاج عن طريق الشرج، وهو طريق حسب أقوال هيرودوت: "يستخدمونه لضمان الصحة عن طريق المقيئات والحقن الشرجية"[٥١]، وأقوال ديودور الذى أكد "أنه للوقاية من الأمراض، كان المصريون يعالجون الجسم بالحقن الشرجية ..."[٥٢]. والواقع أن الحقن الشرجية لا تزال من طرق العلاج الأكثر استخداما، بما فى ذلك استخدامها بهدف الوقاية بضعة أيام كل شهر. وهذا التخصص الذى نجم عن اهتمام الأطباء المصريين بأمراض الشرج والمستقيم، تشهد عليه بالمثل برديات تشستر-بيتى السادس، المكرسة كليا لعلم الأمراض هذا[٥٣].

وأخيراً، كان "أطباء الباطنة"، أو سونو خيت بدورهم متخصصين فى البطن وأيضًا فى الرحم، وكان لكلمة خيت هذا المعنى المزدوج فى اللغة الشعبية[٥٤].

وإضافة لذلك، كان هذا "الراعى" المدهش، وهو من أكثر الأطباء إثارة للاهتمام، هو على وجه التأكيد الذى كان يشار إليه بعبارة "ذلك الذى يعرف أعضاء الجسم الإنسانى التى تخفى على العينين"، إخصائى الأعضاء الباطنة، وقد أسماه هيرودوت أيضًا "طبيب الأمراض غير المؤكدة"[٥٥]. ومثلما يعتقد ف. جونكير، فإنه يعنى بدرجة أكبر "مستشارا على أرفع مستوى، نلجأ إلى أنواره فى الأمراض صعبة التشخيص والعلاج، والتى يبقى الممارس العادى متحيرا إزاءها"[٥٦]. وقد وصل إلينا اسمى طبيبين مارسا هذا التخصص، الذى هو تخصص الإيرى "الذى يعرف السوائل الذائبة فى أخلاط البدن"[٥٧].

وهناك تخصص أخير، أكثر إثارة للدهشة، وهو الذى كان يمارسه ايريناختى معين، خليفة خورى فى بلاط بيبى الأول، والذى حمل لقب "مفسر السوائل فى النت-نتت، ويشير هذا المصطلح إلى غشاء أو عضو فى شكل حقيبة، ربما كان المثانة. وربما نجد فى هذا "تفسيرا للبول الذى يوجد فى المثانة"[٥٨].

أى صلة بالموضوع نجدها بصورة حاسمة فى هذا المفهوم "للتخصص" ؟ من الصعب الخروج باستنتاجات من هذه المعلومات المليئة بالثغرات، والواقع أننا تتبعنا على وجه خاص أسماء الأطباء حتى العصور القديمة، فى حين وجدنا أن أسماء أطباء الإمبراطورية الحديثة وفترة نهاية الإمبراطورية وانقسام مصر لشمال وجنوب لا تزال غير معروفة لحد كبير، ربما كان نتيجة لتطور السحر، وندرة الآثار الباقية من هذه العصور.

وها هى المعطيات المتوافرة لنا: تم إحصاء ١٥٠ سونو بالنسبة لمجموع عصور مصر الفرعونية(٥٩)، بل وعدد أقل قليلا حسب جونكير(٦٠) (الذى أورد ٤٢ طبيبًا للإمبراطورية القديمة، و ١٦ للإمبراطورية الوسيطة، و ٢٩ للإمبراطورية الحديثة و ١١ لعصر نهاية الإمبراطورية). ولم يجد جيل بولو نفسه سوى ٢١ حاملاً للقب الإخصائى(٦١) : نجد من بين أكثرهم تواترا أطباء العيون والأسنان، بسبب تفشى هذه الأمراض المعنية.

هل يعنى ذلك القول إن غالبية الأطباء المصريين لم يمارسوا مهنتهم كإخصائيين؟ أو هل ينبغى الاتفاق مع ب. غليونجى(٦٢) على أن الأطباء لم يكن يتعين عليهم بالضرورة ذكر تخصصهم فى النقوش الجنائزية الخاصة بهم؟ وفى رأيه أن التخصص وجد فى مصر منذ وقت مبكر جدا، متبعا فى هذا اتجاه الأطباء البدائيين لاعتبار كل عضو كيانا مستقلا. وفى أزمنة تالية، تطورت وحدة جسد الإنسان كمفهوم محدد، مصحوبة بنظريات عن الأخلاط المرضية المتداولة حينذاك. لكن هذه الفرضية لا تفسر عودة ظهور الإخصائيين فى فترة نهاية الإمبراطورية وهو ما أكده هيرودوت. ومثلما اعترض أ. ب. ليكا، فإن هذا التطور "يتناقض مع الطبيعة الجامدة للطب المصرى عبر القرون، والذى بدلا من أن يتقدم، تدهور على النقيض من ذلك كما يبدو"(٦٣).

وهناك فرضية أخرى طرحها ج. جوردون(٦٤)، تستحق التأمل، ففى رأيه أن الطبيب المصرى المبتدئ والذى يتأهل فى تخصص واحد فى بداية حياته العملية كان يكتسب معارف جديدة على مرّ الزمن ليصبح سونو كاملاً. وهكذا فإن التفسير يفترض على العكس من نظامنا الحديث : "إن الإخصائى كان طبيبًا من منزلة اجتماعية أدنى من السونو الطبيب العام !"(٦٥)

وبعد إمعان النظر، فإن الممارسة المتزامنة لعدة تخصصات متباعدة جدا ابتداء، كما هو الحال مع خورى وأريناختى، يثير التساؤل حول سبب هذا التصنيف. وكان للألقاب الطبية ميزة أنها تستخدم لإعلام المريض بكفاءات الأطباء ، وكذلك بتخصصاتهم بمعناها الدقيق، على غرار ما يعلنه بعض الأطباء العاملين المعاصرين على لافتاتهم.

حقوق المهنة وواجباتها

النظام قبل كل شىء

كان هذا العالم الصغير كله يعتمد على الملك، الذى كان يكفل تلاحم إدارته المدنية والعسكرية، تعاونه فى ذلك حكومته. ولم تكن الهيئة الطبية فى مصر القديمة تخرج عن التسلسل الهرمى الأريب الذى يضم تروس السلطة، مع ما تشهد عليه التشكيلة الوفيرة من الألقاب والمؤهلات المنسوبة للأطباء على النصب الجنائزية ونقوش المقابر.

ومثلما أوضحه تفصيلاً تييرى باردينيه(٦٦)، فقد ظل السونو ، وهو لفظ دال على النوع للإشارة إلى الطبيب، فى أدنى السلم ولم يكن موضع أى ترقية: ومن ثم فقد ظل تحت سلطة "الأساتذة الأطباء" الذين يخضعون هم أنفسهم لإدارة "كبار الأطباء"، الذين خولوا سلطة إدارية ربما كانت تمتد فوق منطقة جغرافية مهمة. وإذا كان الملك هو الذى يعين هذه الشخصية المهمة، فقد كفل له ذلك تولى الوظيفة الطبية للعاهل.

ومن جانب آخر، كان القصر الملكى الذى ضم فى ظل الإمبراطورية القديمة عدداً كبيرا من الإدارات، يعتبر "المركز الرئيسى للأنشطة الطبية"(٦٧). وكانت هيئات طبية، ملحقة خصيصاً بالبلاط، مسئولة فيه ليس فقط عن العناية بالملك وأسرته، وإنما أيضاً الحاشية وأرهاط خدمهم. وكان أطباء البلاط، والذين كانوا يعدون أفضل الممارسين فى المملكة(٦٨)، ويتم تجنيدهم من بين أكثر الناس ألمعية من الناحية العلمية من خارج القصر(٦٩)، يخضعون هم أنفسهم لنظام هرمى صارم. وكان "أطباء القصر"،

فى المرتبة الأدنى، يطيعون "أطباء القصر الأساتذة"، و"مدير الأطباء"، رئيسهم؛ وفى أعلى السلم كان يوجد كبير الأطباء الشهير، وهو الطبيب الشخصى للملك، والذى يعتبر بحكم الأمر الواقع "كبير أطباء الشمال والجنوب"(٧٠) الذى تشمل سلطته مجموع الممارسين، بما فى ذلك من يعيشون خارج القصر. ولهذا السبب، فإن ألقاب الأطباء خارج القصر لم يكن لها بالضرورة نظير فى البلاط(٧١). ولم يتم إلحاق اثنين من كبار الأطباء فى المجال المدنى بالضرورة فى البلاط الإمبراطورى بنفس الرتبة ، ولكن توافرت لكليهما إمكانية أن يرتقى فى السلم، كما تبين لنا الألقاب التى تظهر على النصب الجنائزية. فنعرف مثلاً أن إيرى، ونيسمناو، ونيانجرى، وخنوم عنخو شغلوا على التوالى داخل القصر الملكى المناصب التى تحمل ألقاب طبيب القصر، وأطباء القصر الأساتذة وكبير أطباء القصر.

وكان البلاط يضم بالمثل إخصائيين موهوبين، حسبما يقول تييرى باردينيه(٧٢)، "تتوافر لهم معارف متفردة فى مجال السببية الباثولوجية". وقد جمع ممارسون معينون بين التخصصات، مثل إيرى، طبيب العيون فى القصر وطبيب الباطنة الملكى، وخورى الذى تميّز بلقب خاص هو "كبير أطباء الأسنان".

وقد تم تعديل هذه الهيئة ذات التسلسل الهرمى بصورة كبيرة فى الإمبراطورية الوسطى: فلم يعد هناك "طبيب أستاذ"، وإنما مجرد أطباء سونو يديرهم "مديرو الأطباء" ، وكبار الأطباء(٧٣).

وفى الإمبراطورية الحديثة، شكل "أطباء الملك" القاعدة وشغل القمة "كبير أطباء سيد الأرضيين". ونعرف اسم واحد منهم هو إيوتى ، الذى كان كبير أطباء سيد الأرضيين وكبير الأطباء. وفى عصر نهاية الإمبراطورية فقط عادت إلى التكاثر الألقاب الإمبراطورية(٧٤).

مرتبة الأطباء والسر الطبى

كيف ارتقى الأطباء مختلف مدارج التسلسل الهرمى؟ ربما أمكن أن تقوم هذه الهيئة الطبية على أساس دواعى جهاز القيادة. وهكذا يشير جيل بولو(٧٥) إلى برديتين

ربما جاءتا من معبد آمون فى الكرنك وتذكر وجود "مكتب ، (أو إدارة) لأطباء القصر"(٧٦).

وتذكر كتابات أخرى هذا المثال للقيادة، وتعزو إليه وظيفة "الرقابة" الصحية الصارمة، خاصة الرعاية المقدمة للملك. وهكذا، فإن نصا أول، تم تحريره فى العام الثانى من حكم رمسيس التاسع بواسطة الملك نفسه، يتضمن تعليمات موجهة إلى كبير كهنة آمون، رمسيس نخت، حول الرصاص من نوعية عالية، "الجيد مرتين"، الذى يتعين إرساله من أجل صنع قطرة العيون الخاصة بالفرعون. ومثلما يوضح النص، فإن المنتج بغير ذلك لن يكون فعّالاً: فعندما يعطى (الرصاص) لأطباء المكتب (الإدارة) لأطباء فرعون لمعالجته، يلاحظ أن هذا الرصاص غير فعال، وليس فيه ما هو جدير بأن يدخل فى القطرة التى يستخدمها "الفراعنة". ويتعين عندئذ إعادة المنتج إلى مرسله مع أمر بأن يقدم منتجًا آخر أعلى من حيث النوعية (جيد أربع مرات) على شرف فرعون(٧٧).

وتنسخ بردية أخرى، غير مؤرخة، نص خطاب موجه من مسئول عالى المنصب، ربما كان الوزير نيفرنبت، إلى رئيس الأطباء ثيل: "يتحدث إلى الكاتب ورئيس الأطباء ثيل فى معبد آمون والتابع أبحى (؟؟) بالعبارات التالية :

لقد أرسلت إليكم لإعداد الرصاص الجيد مرتين فى ناب للفيل، (لأن) فرعون، سيدى، قال: "احرص على أن يعيده من جديد"، وعندما يصلك هذا الخطاب، ابذل همتك للتعجيل بإعداد هذا الرصاص لفرعون وإرساله بأسرع ما يمكن. ولتعلم، أننى أرسلت خطابًا إلى مدير أملاك آمون العامة وعراف معبد خنوم (؟؟) حيرى حول هذا الموضوع. وسيساعدك أونين-نيفر الأب المقدس لمعبد آمون فى القيام بذلك. وأنبه عليك بالتزام الحرص، وتوخى الحيطة والإسراع فى العمل"(٧٨).

ونحن من جانب آخر لا نعرف ما إذا كان مصرحًا للطبيب بالكشف عن أمراض مرضاه لشخص آخر. وفى المقابل، كان يتعين الإبقاء على الأدوية التى يقدمها سرًّا، لأن بعض المعارف الطبية كانت على ما يبدو "سرًّا للطبيب يحرص على كتمانه".

وقد أثيرت فكرة السرية هذه عدة مرات فى "كتاب القلب" فى برديات إيبرز، المعنون "أسرار الطبيب"، الذى يكرر عرضًا موضوع السرية هذا : "إن علاجًا

مستمداً من الكتاب اعتاد طبيب ما أن يعده من النباتات يعد سراً"(٧٩)، حتى لو كانت فكرة السر هذه تعد فى نظر البعض نسبية تماماً ويمكن ترجمتها فى أفضل الأحوال على النحو التالى "ما يصعب فهمه"(٨٠).

وكانت هناك مهمة سرية أخرى خلال الفترة اليونانية – الرومانية خاصة بتقارير الخبرة الطبية التى كان الأطباء يقدمونها فى قضايا القتل والعدوان(٨١). لكن وثائق العصر المتأخر هذه لا تشكل دليلاً كافيًا لتأكيد أن هذا النوع من الإجراءات كان مطبقا فى مصر الفرعونية بالمعنى الدقيق(٨٢).

بكم أدين لك ؟

هل كان ما يدفع للأطباء يتوقف على كفاءتهم، ولقبهم أو النتائج التى يحققونها؟ يصعب القول، إضافة إلى أن النقود لم تظهر فى مصر القديمة إلا ابتداء من الأسرة السادسة والعشرين(٨٣). ومن ثم، كانت المقايضة هى التى تشكل أساس دفع الأتعاب، وكانت تسدد فى معظم الأوقات من قبل الدولة. فالأطباء كانوا ابتداء موظفين. وكما وصفهم ديودور الصقلى(*) فقد كانوا يتم إطعامهم وإسكانهم خلال الحملات الحربية من قبل الإدارة: "... فى الحملات العسكرية والرحلات، كان يتم الاعتناء بكل الناس مجانا لأن إعالة الأطباء كانت تتم على حساب المجتمع"(٨٤). وتتضمن وثائق دير المدينة بعض التوضيحات عن مقدار مقابل الأتعاب هذه: كانت جراية شهرية من الحبوب (القمح والشعير) مخصصة لتلبية الاحتياجات الغذائية الأساسية، والخبز والبيرة، تشكل الحد الأدنى لأجر العاملين. وللوهلة الأولى، فإن قطعة خزف عليها كتابة من الأسرة العاشرة(٨٥)، تبين مستويات الأجور المدفوعة للعاملين فى دير المدينة، تقدم الأطباء على ما يبدو باعتبارهم أعضاء الطاقم الأقل أجراً، حيث إنهم لم يكونوا يحصلون إلا على ربع خارات (مكيال) من نوع من الحبوب (القمح) ، وخار واحد من نوع آخر (الشعير) فى حين كان العامل البسيط يحصل على ٣ ، و ٤ خارات على التوالى(٨٦)

(*) مؤرخ يونانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد، وصاحب موسوعة لتاريخ العالم . (المترجم)

ولكن ج. ج. جانسن[٨٧] يرى أن الأرقام المذكورة كانت تشير فى الواقع إلى تكملة تضاف لأجر العامل ، وأن مجموع ما كانوا يتقاضونه يقرب مما كان يتقاضاه رئيس الطاقم. ومع ذلك، فإن بردية تورينو التى يرجع تاريخها إلى الإمبراطورية الحديثة، تشير هى أيضا إلى أن أجر الطبيب كان أقل من أجر الكاتب ، أو حارس المعبد: "٢ خارات من الحبوب لاثنين من الكتبة، ٣ خارات لحارس، خار واحد لطبيب". وإضافة لهذا الأجر الشهرى الذى كان يتقاضاه الكاتب، يمكن تصور حصوله على مقابل أتعاب أخرى فى شكل نحاس ونطرون (كربونات صوديوم)[٨٨]، مثل الذى يمكن أن تحصل عليه أرملة اسمها يوسيجى مقابل الرعاية التى بذلتها لزوجها منتتوفرى[٨٩].

وكانت هذه الأتعاب تتناسب عادة مع مكانة وصيت المرضى، وهكذا حصل نيبامون من أمير سورى وزوجته على عبيد وماشية ونحاس ونطرون. وكان الفرعون نفسه يقدم ذهبًا للبعض من أطبائه ، أو يقلدهم قلائد ثمينة خلال الاحتفالات الرسمية[٩٠]. وهكذا كان أطباء القصر يحظون بمكارم ملكية علاوة على أجرهم، وموضع جنائزى، وأثاث للآخرة أو نصب إضافة لهدايا لها قيمة رمزية أكثر منها مادية، وقد ورد الفخار بهذا اللقب فى المشهد المصور فى الغرفة الجنائزية لبنتو، رئيس الأطباء الملكيين إبان حكم إخناتون، والذى يصور تكريمه ثلاث مرات "بقلائد كبيرة للاعتراف بالفضل" مصنوعة من الذهب[٩١].

وكل الشواهد تبين على ما يبدو أن غالبية الأطباء، الذين كانوا يملكون أحيانا ممتلكات عقارية وأراضى مختلفة[٩٢]، لابد وأنهم كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، طبقة الكهنة والكتبة، والحرفيين والعمال المتخصصين[٩٣]. ولا ريب أن الأطباء الملحقين بالقصر الملكى كانوا يرتفعون إلى منزلة الطبقة الراقية، مع كبار الموظفين.

إعداد الطبيب

لتخيل الإطار الذى كان يتم فيه إعداد الأطباء، ينبغى معرفة أن الغالبية العظمى من المصريين لم تكن تحظى بتعليم منتظم ، أو له بنية محددة. ويقدر أنه فى الإمبراطورية الوسطى، كان من ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ من الراشدين فقط يعرفون القراءة والكتابة،

وذلك من بين ١,٥ مليــون من السكان، أى بنسبة تــتراوح بين ٣٣,٠٪ و ٦٦,٠ ٪ من الســكــان. وفى الإمــبراطـورية الحــديثة، بلــغ هــذا المعــدل من ٥ إلى ٧ ٪ فى دير المدينة[٩٤].

الآباء والمدرسة

استفاد الذين كرسوا أنفسهم لممارسة الطب من إعداد مزدوج: التعليم الفردى من قبل المنشأ الأسرى والتعليم الجماعى الذى تقدمه المدارس[٩٥]. وكان التعليم، وهو تطبيقى عادة، يقوم على نقل المهارات من جيل لآخر. وكمردود لهذا الميراث، كان من يحوزه يصبح هو السند الوحيد للأسرة كلها[٩٦]. وحسبما يرى ليفبر[٩٧]، فإن الطبيب كان هو نفسه الذى ينقل معارفه لابنه ، الذى كان بعد موته يعين وريثًا لامتيازاته. وقد أوضح ديودور الصقلى، فى عصر أكثر تأخراً، حقيقة أن "أطفال الأهالى كانوا يحصلون على التعليم من أبيهم ، أو من أبويهم اللذين كانا يعلمانهم المهنة التى يتعين على كل منهم ممارستها أثناء حياته"[٩٨]، وأضاف أن "الأهالى وحدهم هم الذين كانوا يمنعون الناس من ممارسة مهنة تختلف عن تلك التى أورثها لهم آباؤهم"[٩٩]. وهكذا نجد آثار أسر طبية حقيقية، وبصفة خاصة أسرة إيونى، فى ظل الإمبراطورية الحديثة[١٠٠].

ولكن كان على المتدربين ليصبحوا أطباء، مثلهم مثل من سيصبحون كهنة وكتبة فى المستقبل، أن يمضوا فترة من التعليم العام، الذى تقدمه مدرسة القصر أو فى مختلف "بيوت الحياة" فى البلاد[١٠١]. وكان هذا التعليم الذى تبلغ مدته أربع سنوات ينتهى فى سن العاشرة، كما يقول ج. بولو[١٠٢] : وفى هذه الفترة من الزمن يفترض أن يتعلم التلاميذ الكتابة بطريقة صحيحة عن طريق الإملاء عليهم ونسخ النصوص، وبمشاهدة "المسودات المدرسية" الموجودة فى تلك الفترة. وكان التعليم يتم بأسلوب "العصا" القاسى[١٠٣]. "إن أذن الصبى فى ظهره، وسيسمع عندما يتم ضربه"[١٠٤]. وبمجرد أن تنتهى هذه المرحلة من إعداد طبيب المستقبل، كان يندمج فى "التدريب" عند أبيه أو قريب له، حيث إن الأبوين لم يكونا هما وحدهما اللذين يقع عليهما عبء تعليمه،

إذا ما وافقنا على ما كان يعتقده ج. بوسنر[١٠٥] : "كانت تقاليد التعليم الأبوى تقوم على الممارسات التى تقدمها الأطروحات التعليمية التى يعرضها مؤلفوها ، باعتبارها نصائح من الأب للابن. ومع ذلك، كان الملوك يعهدون بالأمراء والأميرات من صلبهم إلى مربين. وكان الحرفيون والبيروقراطيون يلحقون ذريتهم بالتدريب.ويتم تخطى الخطوة التالية عندما يتم جمع عدة تلاميذ تحت إدارة أستاذ. وتجرى ممارسة التعليم الجماعى فى البلاط حيث يبعث كبار النبلاء الشباب ليتم تعليمهم مع الأطفال الملكيين. وتملك الإدارات مراكز للتأهيل ونفس الشيء ينطبق على المعابد".

بيوت الحياة

يبقى أن نذكر مكانا أصيلا كان يكتمل فيه إعداد الأطباء، حسبما يقول السير أ. هـ. جاردنر[١٠٦] : "بيوت الحياة"، والتى كانت تستطيع -إضافة إلى نشاط فقهى صرف- أن تؤوى إدارة للطب والسحر. وفى هذه المراكز المتميزة عن المعابد، كان "كتبة بيوت الحياة"، أو كتبة المعابد، وهم أنواع من المتعلمين والعلماء[١٠٧]، يكتبون وينسخون بلا كلل النصوص القديمة، الدينية والطبية. وكانوا يشكلون "كلية من العلماء منوطة بحماية حياة الملك والآلهة"، على حد تعبير أ. فولتن[١٠٨]. وقد قدّر ليفبر[١٠٩] أنه فى هذه الأماكن كان يتم إملاء كتب قديمة جدًا تعيد استنساخ البرديات الطبية، وهى فى الواقع أدلة عمل للأطباء، مزودة بتعليقات من الكتبة الأكثر تمرسًا وتجربة.

كما قورنت منازل الحياة هذه "بالمراكز الثقافية" التى كان يتجمع فيها إضافة لهؤلاء الكتبة المتخصصين، أساتذة وأطباء، وعلماء فلك وقياس وقت[١١٠]، والذين كانوا أيضا حسبما يقول ليفبر[١١١] يخضعون لإشراف الكتاب الأقدمين القادرين على تزويدهم بالنصائح المستوحاة من التجربة، خاصة فى مجال الفقه والطب. وربما كان هؤلاء هم الشخصيات الأولى المسماة "أساتذة أسرار بيوت الحياة" و"مديرو المحررات فى بيوت الحياة"[١١٢].

وفيما يتعلق بوجود إدارة طبية فى هذه الأماكن، يزعم جيل بولو[١١٣] أن ذلك يمكن إثباته بطريقة قاطعة عن طريق نقوش السيرة الذاتية التى تغطى تمثال شخص معين اسم أوبجا حورسينى، رئيس الأطباء ومستشار الفرعونين أمازيس وبسماتيك الثالث[١١٤].

وبعد غزو قمبيز الثاني (ملك فارس بدءًا من عام ٥٢٩ ق. م.)، جرى تعيين هذا العميل الذى عاون الغزاة رئيسًا للأطباء، مع احتفاظه بلقب مستشار. ودعى إلى مدينة سوس، حيث ظل مستشارا مسموع الكلمة لداريوس الأول خليفة قمبيز الثانى، و "لتهدئة النفوس"، كلفه هذا الأخير بإحياء "مدارس الفكر المصرى"[١١٥] : "إن صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى داريوس، الخالد للأبد، أمرنى بأن أعود إلى مصر – فى حين أقام جلالته فى عيلام، وهو كبير ملوك جميع البلدان الأجنبية ، وعاهل مصر العظيم – لأقيم فى الدولة بيتا للحياة (مكرسا) للطب، بعد (أن كان قد سقط) وأصبح أنقاضًا. وقد حملنى البربر من بلد إلى بلد وأوصلونى إلى مصر، كما أمر سيّد البلدين. وقد فعلت ما أمرنى به جلالته. وقد زودته بجميع الطلاب الذين كانوا أبناء لشخصيات راقية، دون أن يكون من بينهم أبناء أصاغر الناس".

واستنادًا لهذا النقش، نجد أن القبول فى بيوت الحياة كان يتم على أساس معايير تجعلنا نفترض أنها تقوم فى العصر الفارسى على الأقل على "التفرقة الاجتماعية"[١١٦]. وكلف الفرعون أبريس (الأسرة ٢٦) رئيس أطباء آخر هو باى – أف – تاو – حير – أووى – نيث، بإعادة بيت الحياة فى معبد أوزوريس فى أبيدوس[١١٧].

وكان يتعين على كهنة سخمت أن يقدموا فيه لزملائهم الأصغر سنا الذين يجرى إعدادهم تعليما نظريا فى شكل إملاء يتم التعليق عليه: وذلك ما تجعلنا نعتقده البرديات الطبية المتوافرة لدينا. وفى المقابل، لا يتوافر لدينا دليل واضح يدل على وجود تعليم إكلينيكي على المرضى فى بيوت الحياة. والدليل الوحيد الذى نملكه، والذى كشف عنه جيل بولو[١١٨]، تقدمه شهادة الطبيب أودجا حورسينى الذى كان يقدم للطلبة، كما يؤكد "كل اللوازم التى تبينها المحررات ...".

ويمكن الاستفادة من معلومات مثيرة حول هذا النوع من المؤسسات بفضل لقب الطبيب إيونى "الذى يعرف أسرار خزينة بوبسطا"[١١٩]. فذلك يجعلنا نفترض أنه كان واضعًا لليد على خزينة بوبسطا ، التى تحتوى على أدوات الطب والجراحة. واستكمالاً لذلك، تذكر بردية القاهرة ٥٨٠٢٧ لقب "حارس المرّ فى بيت الحياة"، والذى يثبت فى رأى ف. جونكير[١٢٠]، وجود "إدارة صيدلانية ملحقة بالإدارة الطبية والتى كانت الأدوية تعد فيها"[١٢١].

الممارسة الطبية

هل يدغدغك هذا ، أو يرهقك ؟

كما هو الحال اليوم، كان الطبيب المصرى يجرى فحصا إكلينيكيا على المرضى، وهو العمل الذى يجعل كل ممارس يحدد تشخيصا ويتوصل إلى استنباط بغرض تطبيق العلاج المناسب(١٢٢).

وكان هذا الرأى المعلل من الطبيب بشأن صحة المريض، والذى يتم التوصل إليه ببطء واهتمام يتضمن ثلاث مراحل كما يقول ج. ليفبر(١٢٣). كان يبدأ باستجواب حازم يكشف فيه المريض عن شكاواه، مما يوجه التشخيص نحو منطقة تشريحية : "إذا سألته عن المكان المصاب فيه..."(١٢٤) وكان هذا التحديد للأماكن يتيح بالمثل تقييم درجة وعى الجريح، مثلما تحدد بردية إيبرز رقم ٥٥٨: "كان شعوره الباطنى (إب) كثير النسيان مثل شخص يفكر فى شىء آخر"(١٢٥).

ويلى ذلك فحص الوجه، والبول، والغائط، والبلغم. وكان الممارس يفحص بدقة قروح وتشوهات الجلد بحثا عن الاستسقاء الموضعى ، أو الورم الدموى ويكشف عن الارتعاشات المحتملة أو أعراض الشلل... ولم يكن الفحص يهمل أى شىء خارجًا عن المألوف، مثل تيبس العمود الفقرى العنقى، فى حالة إصابات العمود الفقرى: "إن فقرة عنقه متصلبة، ولا يستطيع أن ينظر لجسده"(١٢٦).

وللقيام بذلك، كان كل شىء مباحًا : فلم يكن الممارس يتردد فى أن يستخدم حاسة الشم لديه، مثلما توضح المقارنات المتعلقة بالشم فى البرديات. وهكذا تعزو بردية كاهون رائحة "اللحم المشوى" لمرض نسائى. كذلك كان يلمسه: فالجسّ كان يتيح اكتشاف وجود حمى غير طبيعية، وكان يقوم أيضًا بفحص البطن والأورام والجروح. وكان الممارس مثلاً قادراً على أن يحس بوجود قرقرة تحت أصابعه، وعلامات على وجود كسور، عندما يتقصى كل أوجاع الأجزاء الرخوة بحثا عن إصابة باطنية فى العظم(١٢٧). ولكن هذا الجسّ كان له أهمية رمزية قبل كل شىء، إذ يقيم صلة وثيقة بين الطبيب والمريض عن طريق الأصابع. وهذا الشكل من وضع الأيدى كان يحصر دائرة الألم بل ويقضى عليه، إضافة إلى جانب الطمأنينة الذى يضفيه.

وفى المقابل، هل كان الأطباء المصريون يمارسون جسّ نبض القلب، وهل كانوا يعرفون أهمية ذلك ودلالته أم لا ؟ حول هذه النقطة، يتيح تأويل بردية إدوين سميث ("عندما تفحص إنسانا، تكون مثل من يعد أشياء باستخدام صاع (مكيال للقمح) أو عدّ شىء ما بالأصابع)[128] مجالا لتفسيرات عدة. وهكذا أكد ج. ج. جسبن[129] ، و ب. إيبل[130] ، وج. هـ. برستيد[131] وجود هذه الممارسة : وفى هذه الحالة، يكون الأطباء المصريون هم الذين أوحوا بذلك إلى هيروفيل من مدرسة الإسكندرية (٣٤٠ – ٣٠٠ ق. م.)، الذى يعد تقليدياً، أول من أكد أهمية هذا العمل، مستخدماً فى ذلك ساعة مائية. والحال أن الأطباء المصريين أنفسهم كانوا يملكون هذه الساعات المائية، التى ظهرت منذ الأسرة الثامنة عشرة فى ظل تحوتمس الثالث[132]. ومن جانب آخر، فقد تم العثور على واحدة منها باسم منفتاح فى حفائر غزة، ولكن الأمر القاطع هو أن القول الفصل لا يزال معلقًا وحسبما يقول دومينيك سبايث : "إن الجدل لم يحسم"؛ وفى كل الأحوال، فإنه إن لم يكونوا يعدون النبض، فيمكن افتراض أن ذلك كان موضع دراسة نوعية (القوة، الإيقاع) وشبه نوعيه (بطىء أو متسارع) رغم أن النصوص التى تم العثور عليها لم تذكر ذلك[133]. وفى المقابل، يبدو أن كل شىء فى البرديات الطبية يشير إلى أن الأطباء المصريين كانوا يعرفون أهمية الفحص المتكرر لنفس المريض وصولاً لمتابعة طبية حقيقية[134].

وفى نهاية هذا الفحص الدقيق والرشيد، الذى كان يتم وفق بروتوكول حقيقى، كان الطبيب ينتقل إلى تفسير عدة أعراض ودلائل وظيفية: "إذا فحصت إنسانا لديه..." ثم يضع التشخيص: "فإنك تقول بشأنه: مريض يعانى من..." قبل أن تقترح تشخيصاً، يتفق وخطورة الحالة: وهو تنوع يجعلنا نعتقد أن الأطباء كانوا يعرفون حدودهم، حتى إن قدموا الرعاية الطبية لمن لا شفاء له حتى لا يتخلوا عنه.

وترشيد الممارسة الطبية، وفق فحص إكلينيكى دقيق، يجب ألا يجعلنا ننسى الطبيعة البراجماتية أساسًا للطب المصرى : فقد اهتم المصريون قبل كل شىء بالأعراض، مثل الكحة والحمى وهذا لا يمكن أن يحدد أعراضًا متلازمة حقيقية إلا اتفاقًا وصدفة. ومع ذلك، فإن عملية تكوين المفاهيم الإجمالية بالكاد هذه هى التى صاحبت وضع تصنيف الأمراض الذى تستحقه ، وأدت إلى اعتبار الأمراض كيانات قائمة بذاتها، قمينة بأن تحارب.

وعندما كان الفحص الإكلينيكى يتم، كان الأطباء يعالجون مرضاهم ويستخدمون على السواء السحر والدواء، بصورة منفصلة أو معا، بغرض بلوغ هدف مزدوج: "ضمان أقصى فاعلية للعلاج الذى يصفونه ، والتأثير على نفسية مرضاهم، وضمان استمرار الحفاظ على المزايا المرتبطة بممارسة مهنة مجزية بصفة خاصة حكرا على الصفوة"[١٣٥].

وإجمالاً، فقد أدرك الأطباء المصريون قبل فرويد بأربعة آلاف سنة، أهمية الجوانب النفسية فى المتاعب الطبية[١٣٦]. ويفسر هذا أيضًا السبب فى إنهم كانوا يلجأون للسحر عندما يثبت عدم كفاية العلاج الطبى.

وإضافة لذلك، ينبغى ألا نعتقد أن الأطباء كانوا أحرارا فى علاج المريض على هواهم. على العكس من ذلك، كان يتعين عليهم الالتزام بدقة بالنصوص الطبية ذات الوحى الإلهى، والتى تعتبر مقدسة ، ومن ثم غير قابلة للتبديل. وقد شرح ديودور الصقلى أن الأطباء المصريين كانوا "يحددون العلاج حسب تعاليم مكتوبة، حررها ونقلها عدد كبير من الأطباء القدماء المشهورين، وإذا لم يتوصلوا لإنقاذ المريض باتباع التعاليم الواردة فى الكتب المقدسة، تعلن براءتهم ويعفون من أى توبيخ. وفى المقابل، فإنهم، إذا تصرفوا على العكس من التعاليم المكتوبة، فإنه يمكن اتهامهم والحكم عليهم بالموت، فقد كان المشرع يرى أن قلة من الناس ستجد وسيلة للعلاج أفضل من تلك التى روعيت منذ أمد بعيد والتى حددها أفضل رجال هذا الفن"[١٣٧]. ويبين أرسطو الذى عاش فى عصر آخر للفراعنة من أهل البلاد، هو أيضًا "إنه مسموح للأطباء فى مصر أن يتصرفوا بعد اليوم الرابع، وإنهم إن قاموا بهذا قبل ذلك، فإن ذلك يعرضهم للمخاطر والمهالك".

ومن ثم فقد تبنى المصريون قبلنا بأربعة آلاف سنة "مبدأ الالتزام بالوسائل وليس النتائج"، وهو مفهوم للعلاج محدد بصفة خاصة فى ميدان التفكير الطبى، ومع ذلك يمكن أن نتساءل عما إذا كان الالتزام بالرجوع للنصوص القديمة والاحترام الأعمى للتقاليد قد حدّ من تحقيق تقدم الطب الفرعونى.

الأطباء والسحرة

إن الاستخدام العلاجى للسحر من قبل المصريين، يعود إلى مفهوم للعالم "كل شىء فيه يحمل مدلولا ولا توجد (فيه) أى صدفة"[١٣٨].

وكانت تنظمه أربعة مفاهيم أساسية، وصفها ب. غليونجى بصورة تدعو للإعجاب[١٣٩]. وحسب المبدأ الأول - مبدأ الهوية - فإن لهيئة شخص ما، ولفظ اسم ، أو كتابته قدر كبير من القوة التى تدل على هذا الفرد نفسه، سواء كان ذلك يتعلق بأخمص القدم ، أو بعضو من الأعضاء ، أو عرض من الأعراض. ويمكن أن يتوافق مع دواء معين من حيث مظهره، ولونه، أو اسمه. فعلى سبيل المثال، فإن حجراً أحمر كان يمكنه أن يوقف النزيف[١٤٠].

والمبدأ الثانى، وهو مبدأ التضامن، يربط كل أجزاء الجسم فيما بينها. وهكذا كان المصريون يعتقدون أنه كان فى الإمكان التأثير فى شخص ما عن طريق خصلة من الشعر ، أو حتى قطعة من ثيابه.

والمبدأ الثالث، وهو مبدأ معالجة الداء بالداء (الطب المثلى)، يجعلنا نعتقد أن "الشبيه يجذب الشبيه"[١٤١]، بعبارة أخرى "إن حدثين يتتابعان مرة، سيتتابعان فى المستقبل بالضرورة".

وأخيراً المبدأ الرابع والأخير، والذى تم استلهامه من أسطورة إيزيس وأوزوريس يجمع بين الموت وصورة "النوم الطويل"[١٤٢].

وكان الطب السحرى يقوم قبل كل شىء على النطق بكلام معين، وكان كل مرض تقابله صيغ معينة ينبغى ترديدها. وكان يمكن أن تصحبها طقوس يدوية، مع أشياء يتم استخدامها باليد. ما هو البروتوكول الذى كان مستخدماً؟ قبل كل شىء، كان على الطبيب أن يصد التهديدات التى يمكن للسحر - وهو تقنية خطرة - أن يشدها إليه. وهكذا نجد فى بردية إيبرز ثلاثة نصوص مكرسة لحماية الطبيب الذى يستخدمه: "وكان ذلك يتعلق بفاتحة سحرية حقيقية"[١٤٣].

وكان النصان الأولان يحصنان الطبيب ضد المخاطر المحتملة للاتصال بالمريض وبيئته. وكان المصدر الإلهى للصيغ كامنا فيها، ويتم تصوير الأطباء والسحرة أنفسهم

باعتبارهم منافسين لتوت؛ والإله المحسن الذى كلفه رع بحماية "الإنسانية المعذبة"، ينقل إليهم فى الواقع علمه وقوته.

"لقد خرجت من هليوبوليس فى صحبة خبراء المعبد، حفظت وسائل الحماية، سادة الأبدية. كذلك خرجت من سائيس بصحبة أم الآلهة. وقد وهبونى وسائل الحماية لديهم. (وهكذا)، فإننى أملك الكلمات التى نطقها سيد الكون لصرف أعمال إله ما، أو آلهة ما، ميت ما ، أو ميتة ما، وما إلى ذلك، والذى يتبدى فى رأسى هذه، فى رقبتى تلك، فى كتفى هاتين، وفى لحمى هذا، وفى تلك الأماكن من جسدى، و "أمتلك الكلمات اللازمة لمعاقبة آلهتهم، رئيس أولئك الذين يثيرون الاضطراب فى لحمى هذا، ويقرضون أجزاء من جسدى، ويدخلون فى نفس هذا اللحم، وفى رأسى هذا، وفى كتفى هذين، وفى لحمى السطحى، وفى تلك الأماكن من جسدى. إننى أنتمى للإله رع الذى قال: أنا الذى أحميه من أعدائه وتوت هو مرشده، الذى أمليت عليه ما يكتبه، وهو الذى يحدد المضاعفات الطبية، والذى يمنح العلماء والأطباء الذين فى معيتهم القدرة على شفاء (المرضى). أنا الذى أحبه الرب. وحفظ علىَّ حياتى. كلمات تتلى فى لحظة وضع الدواء على المكان الذى يعانى من جسد الإنسان. وهو فعال حقًّا، مليون مرة". (مقدمة بردية إيبرز رقم ١)(١٤٤).

ويفيد النص الثالث عن المخطوط، فى العناية بالطبيب الذى يسقط مريضًا والذى يهاجمه انتقاما منه الشياطين الذين يشن ضدهم معركة يومية(١٤٥).

وبعد هذه المقدمة تتم متابعة الجزء الشفهى من هذا الطقس عن طريق التعاويذ والرقيات، وتكمن كل فاعليتها فى شكل وصوت وإيقاع هذه التضرعات، التى تستند إلى المبدأ الرباعى للتحويل وللأساطير المصطنعة والصيغ غير المفهومة والبصمات السحرية.

وفى التحويل، كان الطبيب الساحر يكفل نقل الحالة التى يعانى منها المريض إلى العالم الإلهى. وتقدم بردية تشستر بيتى رقم ٥ مثالا لذلك : فالأمر يتعلق بنص للحماية مكرس لعلاج الصداع النصفى، والذى ترمز إليه هنا الثعابين: "سحر لطرد الصداع النصفى. إن رأس هذا الصبى أو هذه الصبية هو رأس أوزوريس أونوفريس،

الذى وضعت على رأسه ٢٦٧ ثعبانًا ربانيًا، تنفث اللهب، لإجبارها على ترك رأس هذا الصبى ، أو هذه الصبية، مثل رأس أوزوريس"[١٤٦].

وخلال هذه التعازيم، يقدم الساحر تفسيراً رشيداً لأصل المرض، وهو منهمك فى تحويله إلى العالم الإلهى، وبالنسبة للآلهة، كان إبراء المريض وسيلة وحيدة لإعادة النظام للعالم. وهناك عنصر آخر للعلاج : اختراع أساطير مصطنعة. فالميثولوجيا التقليدية لم تكن تشكل مادة كافية لكى تستوعب فيها كل التشابهات ذات العلاقة بأنواع البؤس الإنسانى العديدة[١٤٧]. وهكذا، فقد ذكرت تعازيم معينة مثل تلك الواردة فى بردية هيرست، أن حورس راح ضحية عضة ثعبان، لدغة عقرب ، أو جرح فى الرأس.

وإضافة للأساطير غير المعروفة، كان الطبيب الساحر يستغل غموض أهدافه هو نفسه، مما كان يؤثر على المريض بأكثر مما تؤثر صيغة واضحة. وهكذا، نجد فى تأويلات برديات لندن عددا من الكلمات بلغات أجنبية مختلفة.

"إن التعازيم على المرض الكنعانى حسبما يقوله بشأن سكان كيفتيو (سكان كريت): (أو) سنتى (أو) كابوبى، بعيد (عنى)، أو يافتيرو، (أى) كارو. وتقال هذه الصيغة على: سائل (جاشو) محمر، بول (سدجت). ويدهن به (بردية لندن رقم ٣٢)[١٤٨].

وأخيراً، لم تكن البصمات السحرية، وهى كتقنية سحرية أخيرة مرموقة، تستخدم على الأحياء بل على الأموات[١٤٩]. إذ كان يتعين على الطبيب الساحر الذى لم يستطع إنقاذ مريض أن يواصل العمل لحماية نفسه من المتوفى عند انتقاله للآخرة. وكان عليه عندئذ أن يصنع تماثيل صغيرة مكرسة لطرد "الموتى الخطيرين": وللقيام بذلك، كان بإمكانه أن يشوه أو يطعن بالسكين إشارات هيروغليفية تمثل الحيوانات المؤذية. وهكذا، نجد أحيانا صورة للأسد مقطوعة لجزءين فى الإمبراطورية القديمة؛ وفى الإمبراطورية الوسيطة كان الثعبان هو الذى يتعرض لنفس المعاملة ، أو تقطع رأسه[١٥٠].

العلاجات الكهنوتية

لم يكن استخدام الأساليب السحرية هو الرابطة الوحيدة التى تجمع بين الطب والدين. بل كان يمارس أيضاً فى المعابد، حيث كان المرضى يترددون على المصحات وينشدون أغانى علاجية.

وكانت المصحات مؤسسات تقع فى المعابد، بدأ المرضى الباحثون عن الشفاء يترددون عليها بدءاً من نهاية الإمبراطورية وخلال الفترة البطلمية كلها. وكان معبدان منها هما معبد حتشبسوت ، ومعبد دندرة محل وصف فى هذا وصل إلينا.

وكان أولهما، وقد حفر فى الجبل بأمر الملكة حتشبسوت، يقع فى الدير البحرى، فى صعيد مصر، فى مواجهة طيبة على الضفة الغربية لنهر النيل[١٥١]. وقد كرس سطحه الأعلى لأمحوتب ولأمنحوتب خلال العصر البطلمى، وكان هذا المعبد يستقبل المرضى فى المصلى الأول من مصليين كانا به: وهناك، كان صوت رزين ينبثق من الليل ليبين الأدوية العلاجية. وحينذاك كان المرضى يقتنعون بحدوث تدخل خارق للطبيعة يثير شفاءهم، وهكذا نجد نقوشاً على جدار المعبد المقدس، ربما نحتها أو رسمها المرضى وهم ينتظرون الشفاء، على صورة ما يلى: "طروادى، مقدونى، رجل العقاب، يجىء إلى الإله والطبيب أمنحتب، لقد كان مريضاً وشفاه هذا الإله فى ذلك اليوم[١٥٢]". وكان يتوافر لمعبد دندرة، المكرس لهاتور، مؤسسة لها مياه معدنية حارة، بها ممر يضم تماثيل شفاء، وكانت المياه تملأ براميل حجرية مختلفة الأحجام يستحم فيها المرضى بأمل الشفاء[١٥٣].

ولكن لم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى يطبقه الكهنة فى هذه المصحات ، بل كانوا يرددون أغانى علاجية، خلال ليلة أو عدة ليال يمضيها المريض فى هذا المكان بعد أن يمضى نهاراً كاملاً من الاحتفالات[١٥٤]. ولما كان النوم يعتبر وسيلة الإغراق فى مملكة الموتى، فقد كانت تتوافر للمريض حينئذ الفرصة أن يتحاور مع الآلهة ويطلب منهم الشفاء فى نهاية الأمر.

الأدوية والصيادلة

ريما كان دستور الصيدلة (الفارماكوبيا) المصرى، الذى يتميز بثرائه هو أصل الصيدلة لدينا، حتى من ناحية الاشتقاق. والواقع أنه كما يقول نجيب رياض[١٥٥]، فإن اللفظة اليونانية "فارماكون" جاء من "فا-ار-ماكى"، التى تعنى "الذى يوفر الأمن"، وتلك إحدى صفات توت، إله الشفاء الشهير برأس طائر أبو منجل، وكانت عملية إعداد المستحضرات الطبية عادة طويلة ومعقدة وعديدة جدا بصفة خاصة، حيث ضاعفها الممارس المصرى وصولاً لأقصى فاعلية ، وإضافة لهذه التحضيرات كان الممارس يزيد تلاوة صيغ سحرية. وينبغى مع ذلك التزام الحرص فى تفسير المعنى الدقيق لهذه العلاجات، لأن عدداً من المنتجات التى تدخل فى تركيب هذه الأدوية لا تزال مجهولة لنا حتى الآن، مثل "عين السماء"، "المرهم السكين"، "ذيل الفأر" و"رأس الحمار" ، أو "أسنان الخنزير" وذلك رغم ٢٤٠ ترجمة اقترحها إيبرز بالنسبة إلى ٤٠٠ عقار تضمنتها بردية إيبرز[١٥٦]. ويمكن إضافة ٣٥٨ ترجمة مكتسبة، ١٦٧ ترجمة مشكوكًا فيها أو غير معروفة و ١٩ غير مقروءة، مستمدة من دراسة جرابو على ٥٠٠ منتج وردت فى هذه الفارماكوبيا المصرية.

وحتى إن لم تتوافر لدينا معرفة بالمكونات، فإننا نعرف رغم هذا أن إعداد الأدوية المسجلة فى البرديات الطبية كان يلتزم قواعد محددة وواضحة، مقسمة جيدا، ففى البدء تسجيل وعدّ المواد المختلفة المستخدمة مع ذكر النسب (وليس الأوزان لأن المكونات كانت تكال ولا توزن). ولكى تكال، كانت الوحدات المرجعية هى الصاع أو الحكة، وهو يعادل ٤,٥ لتر، وكان مخصصًا أصلا للحبوب[١٥٧]، والذى يمكن تجزئته إلى أقسام فى الوصفات الأكثر تفصيلا.

وبعد ذلك، كان التوقيع يقدم الإشارات التقنية الضرورية لإعداد الدواء (السحق، الطبخ، الخلط، إلخ). وكانت البيرة والنبيذ والمياه توفر وسيلة النقل الأكثر شيوعا لإيصال المادة الفعالة.

وفى النهاية كانت التعليمات تقدم إرشادات عن طريقة تعاطى الدواء. وكان المصريون يستخدمون الجرعات التى تساوى ملعقة والغرغرة وغسول الفم والنقيع،

وغلى الأعشاب، والمنقوعات والأقراص والملبس والكريات الصغيرة جدا واللبخة والمراهم، ومرهم العيون ومرهم الأذن واللصقة والقطرة والاستنشاق والتعقيم بالبخار والدخان واللبوس والغسول والمحاليل المثبتة والحقن المهبلي. ويضاف إلى هذه القائمة الطويلة المعجون الذي يستخدم للأسنان التي أصابها السوس وثدي المرضع المدهون بدواء قبل الرضاعة. وفي تفصيل مثير للاهتمام، تحدد الوصفات سن المرضى المعنيين، والساعة التي يتعين تناول الدواء فيها، واليوم أو الفصل، ومدة العلاج. بل ويصل الأمر إلى حد تحديد درجة الحرارة: "(هذا) يتم إنضاجه وبلعه (بعد إعداده) في درجة حرارة مناسبة للإصبع"[١٥٨].

وكانت هذه الفارماكوبيا تقوم في الأساس على استخدام ثلاثة أنواع من المواد لها أصل معدني ونباتي وحيواني[١٥٩] تحظى بمزايا علاجية. وهكذا كان الأطباء يستخدمون المرمر في إعداد مراهم للجلد (إيبرز ٧١٤ و ٧١٥ وهيرست ١٥٣-١٥٤)، والطين الأصفر (صلصال غني بأكسيد الحديد المائي)، لعلاج التراكوما والثعلبة. كما استخدموا الرصاص (كبريت الرصاص) والتوتيا الزرقاء (كبريتات النحاس المائية) في وصفات علاج العيون. ويمكن ذكر مواد معدنية أخرى كانت تستخدم في أغراض علاجية مماثلة: كبريتات الزرنيخ، القرميد، الصلصال، التربة، الخزف، الجرانيت، الجبس، حجر ممفيس (من الكلس بلا شك)، وكربونات النحاس القاعدية، وكسارة الحطب المتفحم، والطين، الرمل، والسناج والكحل.

وكان من بين النباتات التي استخدمها المصريون، فاكهة الجمّيز والحنظل والتين والخروع والصبار والذي كان يوفر أفضل أدوية الإسهال وحبوب العرعر، والفاشرة والعنصل التي تمثل مدرات جيدة للبول. أما بالنسبة إلى خميرة البيرة، والتي أوصى بها الأقدمون لعلاج الأمراض المعوية وأمراض الجلد، فهي تحتوي على فيتامين ب ولها مزايا المضادات الحيوية ضد المكورات العنقودية.

وكانت المواد ذات المنشأ الحيواني والإنساني تدخل في تركيب نحو نصف ١٧٤٠ وصفة تم إحصاؤها.

وإضافة إلى العسل، والذى يذكر كثيرا خصائصه المهدئة والمضادة للبكتريا والمضادة للفطريات[١٦٠]، تميز المصريون باستخدام لبن البقر وشحم الحيوانات ، واللحم الطازج، ومنها الكبد الغنى بفيتامين " أ " فى وصفات علاج العيون، وتذكر أيضا العلاج المسمى علاج الغائط (الزبل، البول، سلخ (براز) الذباب...)، والذى أكدته أدلة وفيرة، والذى يثير حاليا كثيرا من التساؤلات.

ولم يكن الطبيب ينشغل بتحضير هذه الوصفات بنفسه على الأقل مثلما يتضح من البرديات الطبية، ولكن كان يمكن أن يعاونه مساعد يتقاسم معه أسراره. وهكذا، فإن دفتر مستودع مسجل على صدفة من الإمبراطورية الحديثة يكشف لنا أن العامل با-حيرى-بادجت فتح مكتبا لإعداد الأدوية لعدة أشخاص: وهى مسئولية كان يمكن ترجمتها بعدة ألقاب، وعلى نحو أعم، فإن تحضير الأدوية الصيدلانية كان يعتمد على تنظيم ما، ربما داخل بيت الحياة[١٦١]، وكان مديره يحمل لقب "رئيس الصيدلة". وبمجرد أن وضعت النباتات تحت سيطرة الكاهن (سيم)، "رجل النباتات الطبية"، فإنها أودعت تحت إشراف "حارس المر". فهل كان هؤلاء يمثلون الجدود الموقرين لمحضرى الأدوية فى الصيدلية، أى الصيادلة؟

المقصات والمباضع

رغم الدقة البارزة للعيان فى الملاحظات الجراحية المعروضة فى برديات إدوين سميث[١٦٢]، فإن وصف الأدوات أو الوسائل الجراحية المستخدمة لا يتسم بالوضوح الجلى : فقد كانت بالكاد موضع ذكر موجز فى الفقرات المكرسة لمختلف العلاجات. ورغم كل شىء فقد استكملت هذه الأدلة الهزيلة بنتائج الحفائر الأركيولوجية والتى كشفت عما يحتمل أن يكون أدوات جراحية، وهو ما يشهد على نحو مباشر على المستوى التكنولوجى الرائع الذى بلغه المصريون.

ونجد من بين الأدوات التى كانوا يملكونها السكين "ديس" والسكين "سيس" والسكين "نبت" والملقاط "حيموحو" بل وحتى أسل للتشريط، وهو أداة استعمالها فريد. ولكن ليس بمقدورنا معرفة ما هى الأدوات الحديثة التى يمكن أن تقابلها هذه البقايا

الثمينة المختلفة، وهكذا وصل إلينا عدد كبير من القطع التى لا نجد خيراً من وصفها بأنها "جراحية".

وفى المقابل، فإن أدوات التحنيط، تم التعرف عليها وحفظها بصورة كاملة : المشارط الصرفة، والمباضع وأدوات الفصد، وسكاكين بنصل له جراب، ومستديرة عند الطرف والقاعدة، وسكاكين من النحاس والبرونز، وأحجار مسنونة من كل الأشكال تستخدم خلال الختان، وكذلك ملاقيط مستقيمة أو ملوية(١٦٣). ومن جانب آخر، فإن البعض من هذه الأدوات معروض فى معبد كوم أمبو، الذى تم تشييده خلال عصر البطالمة.

ولنقف لحظة عند الأنصال - المجسات، خاصة تلك الطويلة النحيلة والمشحوذة، والتى كان يمكن استخدامها فى بزل وسبر الأورام. وكان يمكن استخدامها بعد تسخينها على النار فى المساعدة على استئصال الأورام والخراريج بكى القرح. ولهذا السبب تم التمييز بين نوعين من المكاوى : الحمن، وربما كانت مكواة معدنية أو نصلاً يتم تسخينهما بالنار (إيبرز رقم ٨٧٢)، وألجا (سميث رقم ٣٩)، أو "عصا النار" التى يظهر التعبير الهيروغليفى عنها فى النصوص منذ الأسر الأولى. وكانت هذه الأداة الأخيرة نوعا من المثقب يوضع طرفه المستدق فى تجويف محفور فى كتلة من الخشب. وبعد حركة تدوير على اليدين المفتوحتين أو عن طريق قوس، يظهر لمعان يشمل حافة العصا. وكان الممارس يستطيع باستخدام هذه الوسيلة البدائية أن يوفر قدرا من النار ويكوى الخراريج أو الدمامل.

وإجمالاً، كانت براعة الممارسين مرموقة: فقد تم علاج حالة من التيتانوس الرأسى(١٦٤) بفضل أنبوبة (قصبة) أمكن عن طريقها إدخال شراب أو سائل غذائى فى فم المريض. وقد استخدمت أنبوبة مماثلة، ولكنها مقطوعة على نحو مائل لشق ورم وبذل سائل منه(١٦٥). وكان "طبيب العيون" هو نفسه يستخدم أنبوبة طويلة ولينة (أو أيضًا أنبوبة من ريشة نسر) لإدخال القطر فى عين مريضة.

الضمادات واللصقات

لتضميد الجروح، كان المصريون يفضلون قماش الكتان على الصوف، وهو مادة رأوا أنها ملوثة؛ أما القطن، الذى ظهر فى مصر فى فترة جدّ متأخرة، فلم يكن معروفًا لهم فى حين كان "الكتان (فى الأصل linum humile ، وحاليًا linum usitatissinum) يزرع فى مصر منذ أزمنة بعيدة"(١٦٦)، وكان القماش يصنع منذ عهود العصر الحجرى الأخير، وعصور ما قبل الأسر والأسر. واستخدمه المصريون فى حالتين جراحيتين : لعلاج القروح ولصنع الضمادات.

وكانوا يضعون فوق الجروح مباشرة، إما ضمادات ضاغطة، أو خرق، أو سدادة من الكتان لها خاصية امتصاص المصل، وكان يمكن استخدام قطع القماش هذه كدعامة للمستحضرات الصيدلانية(١٦٧)، مثلاً كقاعدة للشحم أو العسل. فما الذى نعتقده فى تلك الوصفة فى ضمادة ضاغطة مبللة ومصحوبة برمل الصحراء للشفاء من عضة ثعبان والتى وردت فى بردية بروكلين رقم ٤٤، أو فى تلك الخصلة من الكتان الجاف، الموضوعة فى فتحة جرح فى عنق داخلة حتى قصبة الرئة(١٦٨). وحسبما يقول ج. هـ. برستيد(١٦٩)، ربما كانت هذه الخصلة تستهدف بزل الصديد عن طريق الخاصية الشعرية، بدلاً من الضمادة التقليدية بالعسل والشحم.

والواقع، أن الضمادة الأكثر ذكرا عادة، والتى كانت تستخدم فى القروح المفتوحة، فى اليوم الأول، كانت من اللحم الطازج لتأثيرها المهدئ بفضل طبيعتها القابضة ذات الانضباط الذاتى(١٧٠)، ثم مستحضر أساسه العسل والشحم وألياف نباتية حتى يتحقق الشفاء التام. كما تذكر بردية بروكلين استخدام اللحم الذى يقطر دما (وبصفة خاصة لحم الورل) فى العضات الحديثة : وجاء تفضيل هذا العلاج من معتقد قديم يقول إن اللحم المقتطع من حيوان ذبح حديثا يظل مشربًا بالحياة.

أما فيما يتعلق بالعسل، فإنه يتضمن خصائص لامتصاص الرطوبة تضفى عليه قوة مطهرة عن طريق تعديله للوسط الذى تنمو فيه الجراثيم، مما يحمى من إصابة القروح بالعدوى جزئيًا. ولكن جميع المواد المسكرة بصفة عامة كانت معروفة على نحو تجريبى بتأثيرها المفيد على التئام الجروح والقروح.

وكان الشحم، الذى يتم تطهيره بالحرارة لتنشيط التصبن، مفضلاً بسبب دوره الملطف، أو لتفادى وضع سدادة من الكتان على الجرح، وكان شمع عسل النحل يستخدم أحيانًا لإكمال هذه الوصفة، وكذلك المنتجات ذات الأصل النباتى: السنط (accacia vera) والصفصاف لتأثيرهما القابض، والجميز، والعنّاب لعضات الحيات السامة، والخروب، والخبيزة، والحندقوق، والخروع، والناردين، والبصل.

وكانت معادن مثل الشبة وأكسيد الرصاص الأحمر وملح الشمال (أو النطرون)، وبرادة النحاس، والطين الأحمر تستخدم موضعياً بالمثل.

وكانت سوائل مثل اللبن والزيت والنبيذ والماء تستخدم عادة كمادة مسوغة فى المستحضرات التى تستعمل موضعياً.

وبالمثل كانت المنتجات المعرضة للتخمر مثل البيرة ولعاب النبات والبلح والدقيق تستخدم موضعياً بسبب تأثيرها الملطف. وكان المصريون ينسجون الأربطة، دائمًا باستخدام الكتان وذلك فى أشكال مختلفة ويستخدمون نسيجًا محبوكًا بدرجة أكبر لحماية الجروح بالحفاظ على المستحضرات الموضعية وفى الوقت نفسه ضمان وجود ضغط ميكانيكى على الجروح المفتوحة أو الكسور. وهكذا، فإن ج. هـ. برستيد(١٧١) يبدى إعجابه بالدراية الفنية غير العادية للقائمين بالتحنيط سادة هذا الفن القدماء الذين كانوا يستخدمون ويرتبون الضمادات، بمهارة تبديها المومياوات للعيان. ومن هنا جاء التساؤل عما إذا كان الأطباء المصريون لم يكتسبوا نفس الكفاءات فى ميدان التضميد، وللإجابة على هذا لا توجد سوى خطوة واحدة خطاها ف. جونكير: فقد قدم هذا الأخير كبرهان على هذا وصف سلسلة من الضمادات "المتقاطعة" أو "كل ثمانية معًا" بالنسبة للرأس، و"أربطة سنبلية بسيطة" للفخذ أو الحوض أو "منْحات" للأعضاء أو "أسطوانات كاملة" للقدمين.

وكان نفس هذا النسيج، الذى يتم تقطيعه إلى أربطة، هو الذى كان يستخدم فى تثبيت الجبائر المستعملة لتثبيت الكسور(١٧٢). وحسبما يقول ليفبر، فإن هذه الجبائر كانت تغطى سلفًا بقماش قبل استخدامها، وكان هذا يرجع للقائم بالتجبير(١٧٣)، كما نستطيع أن نشهده من جسد مراهق سنه أربع عشرة سنة كسر عظم فخذه

اليمنى وتم تثبيته بأربع جبائر من خشب، مغطاة بالكتان، واستخدمت حول الفخذ حتى الركبة، وفى رجل تم تثبيت كسر فى ساعده باستخدام ثلاث جبائر خشبية كغلاف يغطى المرفق والرسغ[١٧٤].

وكانت ضمادات متقنة من الكتان تسمى أوى أو أوى، مخصصة لاستخدام مختلف تماماً، وإن كانت دائماً من نفس المادة، وجرى وصفها دائماً مثناة فى علاج القروح تستخدم كلصقات مشمعة فى الجروح المفتوحة بهدف ضم شفرتى الجرح للتعجيل بالتئامه.

وكما يقول لوكا[١٧٥] فإن مواد أخرى كان يمكن استخدامها كمواد لاصقة أو تدخل فى تكوينها فى صدارتها شمع عسل النحل الذى كانت تربيته ترجع للإمبراطورية القديمة، مثلما تبين النقوش ضعيفة البروز. كذلك كان يستخدم شمع النخيل. لكن الشمع مذكور فى كثير من المستحضرات الصيدلانية فى بردية بروكلين، لكن لم يمكن تحديد المنشأ. ومن جانب آخر، فقد صنع المصريون غراء من مستخلصات حيوانية، من العظام، والجلد، والغضاريف والأوتار، يتم سحقها حتى تشكل جيلاتين، يتم غليه ثم تجفيفه عن طريق التبخر. ناهيك عن الصمغ المستخرج من الديليوم والمر وأنواع مختلفة من شجر السنط الذى ينمو فى مصر والسودان. وكان الراتنج يستخرج أساساً من أشجار الصنوبر التى تنمو فى المنطقة الشرقية من حوض البحر المتوسط، مثل الأرز فى لبنان، والصنوبر فى سيليسيا(*)، والصنوبر فى حلب، وكان يمكن استخدامه أيضاً كمادة لاصقة.

لكن متى كان يتعين خياطة الجرح؛ يبدو أن بردية سميث تبين أن المصريين كانوا قادرين على خياطة الجرح المفتوح[١٧٦]، بالخيوط. وحسبما يقول ليفبر، فإن الخيوط المستخدمة لهذا الغرض كانت تصنع فى الواقع من أمعاء حيوان مقطعة إلى سيور دقيقة، أو لأوتار من المعى[١٧٧]. بل لقد وجد السير ف. بيترى إبرا صالحة لاستخدامها فى هذا النوع من الخياطة.

(*) جنوب تركيا . (المترجم)

المطهرات والمسكنات

هل كان المصريون يعرفون مواد لها تأثير مطهر ؟ توحى بردية إدوين سميث باستخدام مستخلص من أوراق الصفصاف على جرح ملوث فى الصدر(١٧٨)، وهو مستحضر ناتج عن خبرة امتدت قرونا، وكان يستخدم كمطهر لاشك فى ذلك. ومن جانب آخر، فالواقع أن لحاء الصفصاف، الذى يستخرج منه السليسين، تتوافر له قدرة قابضة وخافضة للحرارة. كما كانت هناك مواد نباتية أخرى، مثل دقيق الشعير، لها هى أيضا تأثير مزيل للاحتقان: ولنذكر أيضا رماد خشب العناب المخلوط بالخل والبصل، وهو مستحضر له تأثير موسع للأوعية يستخدم فى حالة عضة الثعبان.

تبقى مادة مثيرة للاهتمام تسمى أمرو، ذكرت سبع مرات فى رسالة إدوين، وذكر بلين(١٧٩) استخدامها فى الطب فى العصر الرومانى، وذكرت نصوص مصرية أخرى استخدامها كمادة قابضة، وحسبما يقول ج. هـ. برستيد، فقد كانت تستخدم لتعقيم الجروح الملوثة(١٨٠) وربما كانت من الشبة، وهى معدن كان يستخرج من مناجم واحتى الداخلة والخارجة فى صحراء غرب وادى النيل. ونجد أيضًا من بين المعادن المفيدة النحاس: فقد استخدمت برادته فى علاج عضة حية سامة(١٨١)، بسبب قدرته على تقليل حدة السم. وكان أكسيد النحاس الذى يتمتع بتأثير مزيل للاحتقان وقابض يخلط فى شكل مرهم من أكسيد الزنك، يستخدم فى علاج الخراريج والجمرات الخبيثة.

وفيما يتعلق بالألم، هل كان المصريون يعرفون كيفية تخفيفه؟ هل توصلوا إلى مواد مخدرة فى أى شكل كان؟ إضافة إلى الخشخاش واللفاح، التى تصورها النقوش قليلة البروز والقلائد، اهتم الباحثون "بالحجر السحرى"، وهو حجر جيرى مستخرج من نواحى ممفيس. ويحدد ديسقوريدس فى الواقع أن المصريين مارسوا شكلاً غريبًا من المخدر الموضعى بهذا الحجر الذى تم تحويله إلى مسحوق واستخدم على الأماكن المعنية. ومن جانبه وصفه بلان(١٨٢) بأنه من المرمر المخلوط بالخل لكى يؤدى إلى إطلاق غاز كربونى(١٨٣). ولكن حسبما يقول نون، فإنه إذا كان استنشاق الغاز الكربونى بنسبة ٢٠٪ يؤدى إلى

فقد خفيف للوعى، فإنه لا يؤدى إلى التخدير بمعناه الصحيح[١٨٤]. وقد أورد باسليز في أطروحته عن السموم فى مصر[١٨٥] فرضيتين مقبولتين على نحو شائع حول هذا "الحجر السحرى": فحسب الآراء السائدة، فإنه كان يشير إلى القار، الذى كان يحرر عند اتصاله بالنار أبخرة قارِّية وفيرة، قادرة على تخدير من يتعرض لها، أو حجر صوانى مغطى بطلاء مخدر أساسه الأفيون.

الهوامش

(1) Papyrus Ebers n°854 a.

(2) G. Boulu, Le medecin dans la civilisation de L'Egypte pharaonique. These de (docteur en medecine, Amiens, 1990, p. 52.

(3) G. Rachet, Dictionnaire de la civilisation egyptienne, Paris, Larousse, 1998.

(4) G. Posener, S. Sauneron,J. Yoyotte, Dictionnaire de la civilisation egyptienne, Paris, Fernand Hazan, 1971, p. 251.

(5) Herodote, Thucydide.(Euvres completes, Bibliotheque de la Pleiade Paris, Gallimard, 1964 II, p. 37.

(6) Les premières representations divines ont etc rapportées au cours dc la periode predynastique. Chaque tribu vivant le long de la vallee du Nil avait son propre dieu, represente par un animal. Au fur et a mesure de L'evolution, les representations ont pris une forme humaine. Le pantheon egyptien, qui etait tres important, comprenait les dieux responsables des fonctions vitales (fertilite, naissance, fleuve Nil, recoltes...), les dieux funeraires, d'innombrables dieux locaux, parfois promis a un destin national, et les dieux cosmogoniques, qui avaient participe à la creation du monde.

(7) F. Lexa, La magic dans l'Egypte antique, Paris, Paul Geuthner, 1925.

(8) E. Hornung, L'esprit au temps des pharaons, Paris, Hachette litteratures, 1998, p.49.

(9) G. Rachet, Dictionnaire... op. cit., p 153.

(10) F. Daumas, La civilisation de l'Egypte pharaonique, Paris, Arthaud, 1987.

(11) P. Leca, op. cit.

(12) P. Hennequin, Sante et hygiene de l'enfant dans l'Egypte Ancienne, These de docteur en medecine, Nancy, 2001 p 49.

(13) T. E. Woodward, «Religion and medicine: an ancient relationships, Maryland Medical Journal, 1989, 38(7), pp. 568-572.

(14) G. Posener, S. Sauneron.J. Yoyotte, Dictionnaire de la civilisation egyptienne, Paris, Fernand Hazan, 1971, p. 27.

(15) H. Ey, Naissance de la medecine, Paris, Masson, 1981.

(16) Ibidem.

(17) C. Lichtenthaeler, Histoire de la medecine, Paris, Fayard, 1978.

(18) Au cours de la phase precedente, dite primitive-magique, qui existe dans les societes tribales, L'homme considere que la maladie resulte d'une intervention etrangere qui justifie un traitement par Fintermediaire du cha-man «homme medecine» afin «d'extraire et de chasser le facteur causal». La troisieme phase occidentale est celle qui a donne naissance a «une doctrine medicale positive basee sur une pensee scientifique» comme cela a etc le cas pour Hippocrate.

(19) Spaeth.... op. cit.

(20) G. Lefebvre, Essai sur la medecine egyptienne a l'epoque pharaonique, Paris, PUF, 1956, p. 9.

(21) PLeca, op. cit.

(22) G. Boulu... op. cit., p. 13.

(23) «Le medecin de pharaon» Sciences et Avemr, n'52662, Avril 2002, pp. 32-34.

(24) R. Picard, op. cit., p. 50.

(25) Von den Driesch, «Is There a Veterinary Papyrus of Kahoun?», Historia Medicinae Vetmnariae, 26(3-4), pp. 105-106.

(26) G. Boulu, op. cit., p. 54. Un texte inscrit sur la tombe du directeur des pretres de Sekhmet Petosiris mentionne aussi cette fonction: «Tes troupeaux sont nombreux a Uetable grace de la science des pretres de Sekhmet».

(27) F.Jonckeere, Les medecins... op. cit., p. 131.

(28) F.Jonckheere, «La place du pretre de Sekhmet dans le corps medical de l'ancienne Egypte», Actes du Vie congrès d'Histoire des sciences, Amsterdam, 1950, pp. 324-333.

(29) Spaeth, op. cit.

(30) G. Maspero, Etudes de mythologie et d 'archeologie egyptienne, 40 vol., Paris, E. Leroux, 1898., p. 302.

(31) G.Boulu, of), cit.

(32) R. Picard, op. cit.

(33) G. Boulu, op. cit., p. 55.

(34) A la memo epoque, un certain Ptah-Hotep l'est appelé «le pretre-ouab de Sekhmet, inspecteur des medecins, Ounennefer» sur son tombeau. Par ailleurs, une stele du Moyen Empire datant d'Amenemhat III, precise le nom de Nedjemou-Seneb «directeur des pretres-oudb de Sekhmet et chef des medecins» Cf. G. Boulu, op. cit.

(35) R. Picard, op. cit.

(36) Y. Koenig, Magic et magidens dans L'Egypte Ancienne, Pygmalion, Paris, 1994, pp. 20-22.

(37) H. Gardiner, Professional Magicians in Ancient Egypt, Proceeding of the Society of Biblical archeology, Londres, 1917, XXXIX, pp. 31-44.

(38) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 57.

(39) Von Kanel a établi une difference entre les Sa Serket et les Herep Serket. Il a traduit le terme de Sa Serket par «protection de Serket» qui souligne Fas-pect ritualiste du conjurateur, par opposition au role medical que traduirait le litre de Herep Serket. (Les pretres-oudb de Sekhmlet et les conjurateurs de Serket, Paris, PUF, 1984, p. 285).

(40) Ce texte se trouve sur la statue guerisseuse de Djed-er-le-Sauveurcite par G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 56.

(41) G. Boulu, op. cit.

(42) Jonckheere, A la recherche du chirurgien egyptien. Chronique d'Egypte, XXVI, 1951, pp. 28-45.

(43) Herodote, Thucydide..., op. cit., p. 83.

(44) Pline 1'Ancien, Histoire Naturelle, Paris, Les Belles Lettres, Histoire Naturelle, XXVI, p. 4.

(45) Boulu (Le medecin... op. cit, p. 61) cite un certain nombre de ces specialistessous L'Ancien Empire, Ouai I et Neferthes: «medecin des yeux» du palais et d'Irenakhti II. Sous le Nouvel Empire, il mentionne Houy, intendant et chef des «medecins des yeux» du palais. Enfin, a la Basse-Epoque, il cite un autre Ouai II et Padihor.

(46) Lefebvre, Essai sur la medecine egyptienne a l'epoque pharaonique, Paris, PUF, 1956, p. 59.

(47) T. Nickol, R. Germer, S. Lieberenz, F. Schmidt, W. Wilke, «An examination of the dental state of an Egyptian mummy by means of computer tomography: a contribution to dentistry in Ancient Egypt». Journal of the History Dentistry, Nov. 43(3), 1995 pp. 105-112.

(48) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 63.

(49) On connait le nom de deux autres dentistes attaches au palais royal portant le titre de «Ourlbhy Per Aa» soit «chef des dentistes du palais». Il s'agit de Ny-Ankh-Sekhmet, doyen des medecins du palais sous la V[e] dynastic. Selon Ghalioungui, le fait qu'aucun des deux Ibhy n'ait etc medecin contrairement au «chef des dentistes» laisse entendre qu'ils pouvaient avoir rempli les fonctions cT assistant technique ou encore cTeleve; cf. P. Ghalioungui, La medecine... op. cit.

(50) L. Viso, J. Uriach, The «guardians of the anus» and their practice, International Journal of Colorectal Disease, 10(4), 1995, pp. 229-231. Khouy et Irenakhti II qui ont vecu sous l'ancien l'Ancien Empire au cours de la VP dynastie ont, eux-aussi, exerce la fonction de bergers de '\anus.

(51) Herodote, Thucydide..., op. cit.

(52) Diodore de Sicile, Paris, Les Belles Lettres, 1972.

(53) P. Ghalioungui les a compare aux iatroklystes chez les Grecs.

(54) D. Spaeth, op. cit.

(55) Herodote, op. cit.

(56) F.Jonckeere, «Le cadre professionnel et administratif des medecins egyptiens», Chronique d'Egypte, XXVI/52, pp. 237-268.

(57) A. P. Leca, La medecine..., p. 106-58.

(58) D. Meeks, «Notes de lexicographies», Bulletin de l'Institut franfois d'esr-cheologie orientate, Le Cairo, LXXVII, 1977, pp. 87-88.

(59) G. Boulu, op. cit.

(60) F.Jonckheere, op. cit.

(61) G. Boulu, op. cit.

(62) P. Ghalioungui, op. cit.

(63) A. P. Leca, op. cit.

(64) G. Godron, «Notes sur L'histoire de la medecine et Inoccupation perse en Egypte» in Hommage a Francois Daumas, Montpellier, Publications de Universite de Montpellier, 1986, pp. 285-287.

(65) G. Boulu, op. cit.

(66) T. Bardinet, Les medecins dans la societe egyptienne a Uepoque des pharaons. Mytheet realite, Medecina nei Secoli, 9,2, 1997 pp. 177-188.

(67) T. Bardinet, ibid.

(68) R. Picard.La medecine magique dans l'Egypte ancienne: notions fondamentales et concepts neuropsychiatriques, Aix Marseille 2, 1999, p. 37.

(69) C'est ce quo suggere la sequence des litres portes respectivement par Nesemnaou et par Niankhkh-noum-Memi qui etaient respectivement «maitre medecin» (qui etaitun dtre extra-paladn) et «medecin du palais».

(70) On connait un certain nombre de medecins qui ont exerce la fonction e rand de «grand des medecins» comme Ni-ankh-Sekhmet qui etait le medecin du roi Sahoure qui a vecu vers 2400 av.J.-C. ou Khouy de la VF dynastie sous les regnes de Teti et de Pepi I vers 2300 av.J.- C.

(71) Ibid.

(72) Ibid.

(73) On en connait deux a ce jour, en particulier un certain Herychefnakht.

(74) Bakenkhonson qui avait le dtre de «Grand des medeans du maitre des deux terres» a vecu a Thebes a la 3*' Periode intermediaire(XXP- XXVe dynasde).

(75) G. Boulu, op. cit.

(76) W. Heick, Eine Briefsammlung aus der Ver waltung des Amuntemples, JARCE, 1967, VI, pp. 135-151.

(77) G. Boulu, op. at.

(78) Ibid.

(79) Papyrus Ebers, n°854.

(80) Papyrus Ebers, n°188 Ins.

(81) O. Nanetti, Riserche sui medici esuUa medidna neipapiri, Aegyptus, 1941, XXI, pp. 304-314.

(82) G. Boulu, op. cit.

(83) G. Boulu, ibid.

(84) Diodore de Sicile, op. cit.

(85) J. Czerny, «Quelques ostracas hieratiques inedits de Thebes au musee du Caire», Annales du service des antiquites egyptiennes, 1927, XXVII, pp. 183-210.

(86) G. Boulu, op. cit. Le «khar» correspond a environ 76 litres.

(87) J. J. Janssen, Comodity prices from the Ramessid period, Leiden, EJ Brill, 1975 p. 46.

(88) Comme le suggere un fragment du papyrus du Vatican de la XIX*" dynasde qui relate les paiements realises a plusieurs individus dont un mede-cin de la ne-cropole. Il en est fait mention dans le papyrus de Turin 188. date de Fan 29 du regne de Ramses III. Plusieurs papyrus de la periode pto-lemaique (33 av.J.-C.) font aussi mention du versement d'une taxe versee par les Clerouques)colons grecs) aux medecins. Toutefois il s'agit d'un temoignage tardif.

(89) W. F. Edgerton, «The strikes in Ramesses III's Twenty ninth year's Journal of Near eastern Studies», 1951, X, 142-143.

(90) R. Picard, op. cit.

(91) G. Boulu, Lemedecin... op. cit., p. 156.

(92) F.Jonckheere, Les medecins de l'Egypte pharaonique, Bruxelles, Fondation egyptologique de la Reine Elisabeth, 1958.

(93) P. Martinez, Egypte. Civilisation, Paris, Liana Levi, 1991, p. 94.

(94) Ibid.

(95) H. Brunner, L'education en ancienne Egypte in G. Mialaret.J. Vial, Histoire mondiale de l'education, Paris, PUF, 1987.

(96) P. Martinez, op. cit.

(97) G. Lefebvre, op. cit.

(98) Diodore de Sicile, op. cit., p.122

(99) Ibid.

(100) J. F., Nunn Ancient Egyptian medicine. University of Oklahoma Press, 1996, p.130.

(101) P. Martinez, op. cit.

(102) G. Boulu, op. cit., p 42.

(103) P. Martinez, op. at., p. 95.

(104) O. Sarrazin, La pathologie cardio-vasculaire dans l'Egypte Ancienne, These de docteur en medecine, Faculte de medecine de Creteil, 2001.

(105) G. Posener cite par R. Picard, op. cit., p. 33.

(106) A. Gardiner, «The house of life», Journal of Egyptian archeology, 1938,24.

(107) D'ailleurs, a Fepoque tardive, lorsque l'ecriture hieroglyphique a etc reservee aux seuls pretres, les hieroglyphes ont etc denommes «Les cents de la maison de vie». B. Gunn, Interpreters of dreams in Ancient Egypt, Journal of Egyptian Archeology. 1917, 4, p. 252.

(108) A. Volten, Demotische tramdeutung (papyrus Carlsberg XIII), Copenhagen munksgaard, 1942, Analecta Aegyptiaca, p. 20.

(109) G. Lefebvre, op. at

(110) P. Martinez, op. cit.

(111) G. Lefebvre, op. at.

(112) A. Gardiner, art. cit., p. 157-179. Le titre de «professeur de la maison de vie» retrouve chez un personnage constitue une preuve indirecte que rinstruction et-ait delivree dans les maisons de vie.

(113) G. Boulu, op. cit., p. 46.

(114) Elle est aujourd'hui conservee au musee du Vatican; cf. A. P. Leca, op. cit., p. 123.

(115) R. Picard, La medecine... op. cit., pp. .٦٢-٤٢

(116) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 46.

(117) A. Gardiner, The house of life..., art. cit.

(118) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 47.

(119) F. Von Kanel, Les pretres-oudb... op. cit.

(120) F. Jonckheere, Le «preparateur de remede» dans Forganisation de la pharmacie egyptienne in Aegyptologische Studien, H. Grapow, Berlin, Akademie der wissenschafter zu Berlin, Institu fur orient forschung, 29, pp. 149-161.

(121) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 47.

(122) Grace aux papyrus medicaux, principalement ceux d'Ebers et de Smith, on peut avoir une idee de la maniere dont le medecin realisait l'exa-men de son malade.

(123) G. Lefebvre, Essai... op. cit.

(124) Papyrus Smith n°20.

(125) T. Bardinet, Les papyrus... op. cit., p. 113.

(126) Papyrus Ebers n°295.

(127) Papyrus Smith.

(128) J.-P. Lethor, Du cceur et des vaisseaux dans l'Egypte Ancienne: etude de textes, etude de momies. These de docteur en medecine, Nancy 1, 1989, p. 65.

(129) J. G. W. Gispen, Measuring the patient in Ancient Egypt medical texts, Janus, 1967,54, pp. 224-227.

(130) B. Ebbel, The papyrus Ebers, Londres, Levin et Munksgaard, 1937.

(131) J. H. Breasted, The Edwin Smith surgical papyrus (in fac simile and hieroglyphic transliteration with translation and commentary), Chicago, Chicago University Press, 1930,

(132) J.-P. Lethor, Du cceur... op. cit., p. 65.

(133) D. Spaeth, Pneumologie... op. cit., p. 93.

(134) H. M. Atta, «Edwin Smith Surgical Papyrus: the oldest known surgical treatise», American Surgeon, decembre 1999, 65(12), pp. 1190-1192.

(135) R. Picard, La medeane... op. cit., 1999, p. 19.

(136) H. G. Koenig, «Religion and medicine I: historical background and reasons for separation», International Journal of Psychiatry in Medicine, 2000,30(4), pp. 385.

(137) Diodore de Sicile, op. cit.

(138) G. Bon temps. La medecine en Egypte pharaonique, These de docteur en medecine, Angers, 1990.

(139) P. Ghalioungui, La medecine..., op. cit., p. 18.

(140) P. Hennequin, Sante... op. cit., p. 49.

(141) P. Ghalioungui, La medecine... op. cit., p. 18.

(142) P. Hennequin, Sante... op. cit., p. 50.

(143) R. Picard, La medecine... op. cit., p. 59.

(144) T. Bardinet, op. cit., pp. 39-48.

(145) Ibid.

(146) Ibid.

(147) R. Picard, La medecine... op. cit., p. 63.

(148) T. Bardinet, op. cit., p 487.

(149) Y. Koenig, Magic et magiciens dans L'Egypte Ancienne, Pygmalion, Paris, 1994.

(150) R. Picard, La medecine... op. cit., p. 63.

(151) N. Riad, La mededne au temps des Pharaons, Paris, Maloine, 1955, p. 244.

(152) P. Hennequin, Sante... op. cit., p. 58.

(153) «Daumas, le sanatorium de Dendera», Bulletin de l'Institut français d'archeologie orientale, 56, Le Caire, 1957. pp. 35-37.

(154) P. Hennequin, Sante... op. cit., p. 59,

(155) N. Riad, La mededne... op. cit., p. 249.

(156) B. Ebbel, The papyrus Ebers... op. cit.

(157) J. F. Nunn, Ancient Egyptian medicine. University of Oklahoma Press, 1996, p.140.

(158) Papyrus Ebers n°799.

(159) W. C. Bowman, «Drugs ancient and modern.», art. cit.

(160) Zumla, A. Lulat, «Honey: A remedy rediscovered». Journal of the Royal Society of Medicine, 1989, pp. 384-385.

(161) G.'Boulu Gilles, op. cit.,p. 73.

(162) R. P. Feldman.J. T. Goodrich, «The Edwin Smith Surgical», Papyrus Childs Nervous System,] w\\et 1999, 15(6-7), pp. 281-284.

(163) S. K. Hamarneh, «Excavated surgical instruments from Old Cairo, Egypt», Annali deU'Istituto e Museo di Storia deUa Sdenza diFirenze, 1977, 2.

(164) Le cas Edwin Smith n°7.

(165) Mentionne dans le papyrus Ebers.

(166) Lucas, J.R. Harris, op. cit.

(167) Preparation citee dans le papyrus Smith.

(168) Cas n°28 du papyrus Edwin Smith.

(169) J.H., Breasted, The Edwin Smith..., op. cit.

(170) G.-P. Menard, Les techniques chirurgicales dans L'antiquite egyptienne, These de docteur en medecine, Lyon 1, 1991, p. 100.

(171) J.H. Breasted, The Edwin Smith..., op. cit.

(172) Comme il est signale dans le papyrus Edwin Smith.

(173) G. Lefebvre, Essai sur la medecine..., op. cit.

(174) Dans les cas n°2, 9, 10 et 47 du papyrus Edwin Smith.

(175) Lucas, J.R. Harris, Ancient Egyptian Materials..., op. at., p. 319.

(176) J.H. Breasted, The Edwin Smith... op. cit.

(177) G. Lefebvre, Essai sur la medecine..., op. cit.

(178) Cas n°41 du Papyrus Smith.

(179) Pline l'Ancien, Histoire Naturelle..., op. cit.

(180) J.H Breasted, The Edwin Smith..., op. at.

(181) Cas n°51c du papyrus de Brooklyn.

(182) Pline FAncien, Histoire Naturelle..., op. cit.

(183) N. Riad, La medecine..., op. cit., p 249.

(184) J. F. Nunn, Ancient Egyptian .... op. cit.

(185) L. Baslez, Les poisons dans l'Antiquite egyptienne, These de docteur en medecine, Paris, 1932.

٢ - على درب المومياوات

علم أمراض الشعوب القديمة

التحنيط لماذا . وكيف؟

إن هدف الباحثين فى علم أمراض الشعوب القديمة، "هذا العلم فى الأمراض التى يمكن إثبات وجودها فى البقايا البشرية والحيوانية من العصور القديمة"- وهم الورثة الأكفأ للسير أرماند روفر - هو كشف أسرار الكائن المحنط لاستخراج معلومات لها طابع علمى، وبصفة خاصة فى ميدان الطب المصرى.

العلاقة بين القائمين بالتحنيط والأطباء

لنطرح توضيحًا أوليًّا لا غنى عنه بين العلاقات بين المومياوات والمعارف الطبية. وإضافة إلى المعلومات الباثولوجية والطبية التى يمكن استخلاصها من تحليل المومياوات، فإنها اعتبرت لزمن طويل مرتبطة بالطب؛ لأنه كان هناك اعتقاد بأن خصوصية الطقوس الجنائزية كانت تفترض وجود معارف متطورة عن التشريح لدى القائمين بالعلاج، ومن ثم كان الخطأ الحديث الأول هو الاعتقاد بأن المصريين كانوا رواد التشريح بفضل سيطرتهم الكاملة على تقنية التحنيط[١]، والخطأ الثانى، الاعتقاد بأنهم كانوا يقومون عادة بتشريح الجثث بهدف علمى، كما يجعلنا نعتقد بلان لانسيان: "كان من المعتاد أن يفحص الأطباء أجسام المرضى المتوفين لتحديد أسباب الوفاة"[٢].

ولو كانت هذه الممارسة مستخدمة خلال الفترة اليونانية الرومانية فى مدرسة الإسكندرية مع أراسيسترطس وهيروفيل[٣]، ففى المقابل، فإن الاحتمال قليل فى أن الأطباء المصريين الذين كانوا يعتبرون أى جثة من "لحم أوزوريس"[٤]، قد شرعوا مطلقًا فى التشريح بطريقة منهجية، مخاطرين بارتكاب عملية تدنيس، ويفسر هذا الخلط الموجود فى وصف الشرايين والأوردة والأوعية الليمفاوية وقنوات الغدد، والمشار إليها باسم نوعى هو ميتو "المسالك".

ومع ذلك، فقد افترض مؤلفون معينون أن الأطباء المصريين، استطاعوا بعد أن ساعدوا في عمل القائمين بالتحنيط، استلهام معارفهم : وهكذا اعتقد ليفبر[٥] أن ممارسة التحنيط القديمة جدا إن لم تتح تحديد معارف تشريحية، فإنها أتاحت على الأقل مفهوما عن التشريح لم يكن معروفا للشعوب الشرقية الأخرى، وحسبما يرى دولفوس، فإن ملاحظة بردية سميث تجعلنا نعتقد أن علاقات تتصل بالكتب على الأقل قامت بين الأطباء والمحنطين[٦]، كما هو الحال هنا: "إنها تشير إلى (نفس) الضمادات المتوافرة للمحنطين، والتى يستخدمها الأطباء "(برديات سميث رقم ٤ ، ١٩ - خامساً ، ٥).

وفى نفس الوقت، كانت هناك أسر كثيرة تضم فى نفس الوقت أطباء ومحنطين. وهكذا، ففى نصب قربان فى أبيدوس فى الإمبراطورية الوسطى، تم وصف نيمتمحات بلقب رئيس الأطباء ولقب حيريب سيركت فى حين كان شقيقه شيدوى كاهنا (سيم) و "محنطا"، وكان ابنه تيتو فى نفس الوقت كاهنا محاضرا وحيرى تيب "رئيس أسرار قاعة التحنيط". ويجعلنا وجود هذه الألقاب داخل نفس الأسرة نعتقد أن هذه العلاقة لم تجئ صدفة واتفاقا، وتجعلنا نعتقد بوجود مهارة مشتركة[٧].

وعلى وجه القطع، فإنه إذا كانت العلاقات بين المهنتين محتملة، فإن جوهر المعارف التشريحية التى كان أطباء مصر القديمة يملكونها لابد وأنها جاءت بصفة خاصة من فحص الجرحى والدراسات التشريحية التى تجرى على الحيوانات. والواقع أن رموز القلب واللسان والأسنان والرحم فى الكتابة الهيروغليفية تتضمن تعريفًا حيوانيًا، وذلك ما يعكس اعترافًا بتناظر أعضاء الحيوانات والبشر، وتأثير التشريح المقارن.

المفهوم المعقد للشخصية الإنسانية

يتوقف الأمر كله على المفهوم المصرى للشخصية الإنسانية[٨]. فالإنسان لم يكن يعتبر وحدة واحدة بل كائنا معقدا يتشكل من ثمانية مكونات مرتبطة معا بصورة وثيقة – أربعة على الصعيد المحسوس (الجسد، خيت، أى الغلاف الجسدى للفرد، والاسم، والقلب، والظل) وأربعة أخرى على الصعيد التصورى (الآخ، الكا، البا، والسامو).

وكان الموت يفصل هذه العناصر الثمانية، المادية عن غير المادية، وتواصل هذه الأخيرة الحياة من جانبها خارج الغلاف الجسدى. ومن ثم، كان ينبغى الحفاظ بأى ثمن على الجسد (خيت) بعد الوفاة حتى يصبح سماوياً، واستبعاد أى إمكانية للتحلل لكى تستطيع الكا والبا أن تتعرفا على الغلاف الذى تحميان له حياة دائمة: فى الواقع كانت إعادة تكامل هذه العناصر هى الشرط الذى لا غنى عنه لكى تنهض الآخ من الجسد وترتفع حتى تصل للمحاكم الإلهية. خلاصة القول، إن التحنيط كان يستهدف الحفاظ على الجسد سليما حتى يستطيع أن يصبح ملتقى المكونات الروحية، التى لا غنى عنها فى الحياة الآخرة. وبفضل التفكير الذى تجسده الطقوس، كان المصريون مقتنعين أنهم سواء كانوا أمواتا أو أحياء، يشتركون فى الحفاظ على العالم بإقامة جسر بين الأرض والآخرة. وكان للفرعون نفسه، وظيفة هى ضمان تخليد نظام العالم الذى عهدت الآلهة به إليه.

وقد وجد التحنيط، الذى كان يشكل حينذاك "معبرا بين الحياتين" تبريره فى أسطورة إيزيس وأوزوريس. وحسب هذه الأسطورة، فإن جيب ونوت، وهما على التوالى إله الأرض وإلهة السماء، واللذان عاشا فى بداية الزمان، أنجبا الإلهين أوزوريس وست والإلهتين إيزيس ونيفتيس، وقد تزوج أوزوريس شقيقته إيزيس، وسمى أيضاً "إله السحر" وحكم معها على الأرض.

ومثل الزوجان ست ونيفتيس الصورة النقيضة تماما لهما حيث إن نيفتيس حسب المجموعة التساعية كانت أخت ست وزوجته. وتحكى الأسطورة أيضاً أن ست الغيور قرر استبعاد أوزوريس، ولكى يفعل هذا، استغل مأدبة ليقدم صندوقاً رائعاً ضبطه سراً على مقاس أخيه ووعد بتقديمه لمن يستطيع الدخول فيه. ووضع أوزوريس نفسه فيه بكل براءة، وانقض ست والمتواطئون معه يقفلون الغطاء فجأة قبل أن يلقوا الصندوق الذى تحول إلى تابوت فى النيل. ورحلت إيزيس تذرع البلاد بحثاً عن جسد زوجها، وسرعان ما تنبهت إلى أن الصندوق حملته الأمواج إلى أرض بيبلوس فى فينيقيا عند شجيرة كثيفة الفروع من أدناها. وما أن استعادت جثة أوزوريس إلا وعادت بها لمصر لدفنها. وحينئذ قام ست وقد استشاط غضبا بتقطيع الجثة إلى ست وثلاثين قطعة بعثرها فى كل أنحاء المملكة.

وعثرت إيزيس على الأجزاء المختلفة وجمعتها باستخدام أربطة وضمادات بعد أن كانت قد حنطتها. وبعدئذ حطّت نفسها على هيئة صقر على قضيب أوزوريس لتحمل بابنه حورس. وانتهى هذا الأخير بأن وضع نهاية ست، واستولى على السلطة، فى حين أصبحت إيزيس التى تم تحنيطها وتأليهها ملكة العالم السفلى. ومثلما أوضح جيداً راشيه "أصبح أوزوريس النموذج الإلهى للمومياء التى تحفظ الجسم من أجل الخلود. ويجسد الجسد المحنط أوزوريس، متخذاً حينذاك اسمه، الذى يضاف إلى الاسم الذى كان يحمله الحى"[٩].

من أين جاء التحنيط ؟

"إن هذا العمل النابع من العقيدة والذى أضيفت عليه القدسية وجرى العمل به بأمانة حسب الطقوس وأوردته الكتابات وترسخ عميقا فى مجتمعات القائمين بالتحنيط خلال قرون عديدة" معروف تماماً حاليًا بفضل نصوص ودراسات للمومياوات، حتى وإن كان الأمر قد استلزم سنوات كثيرة لكشف تقنيات التحنيط.

والسؤال التالى هو أحد الأسئلة الأولى التى تطرح: كيف نشأت هذه البراعة؟ يبدو أن فكرة تحنيط الموتى ظهرت فى عصر ما قبل الأسر، عندما كانت الأجساد تدفن فى حفرة بسيطة يتم حفرها فى الصحراء. وقد أدرك المصريون عن طريق التجربة، وبعد أن نبشت الريح والحيوانات محتوى القبور البدائية، التأثير المجفف للرمال الساخنة والمناخ الجاف جدا، وما نتج عن ذلك من حفظ جيد للأجساد، دون قصد، ومن جانب آخر، فإن من الحق أن الرمال المحرقة التى كانت تغلف جثة الإنسان بعد موته كانت تستطيع أن تمتص سريعاً ٧٥٪ من المياه التى تحويها، وبذا توقف التحلل. وفى ظل هذه الظروف، كان الجسد يفقد ٣/٤ وزنه، وكان الجلد يتصلب ويتخذ مظهر الجلد المدبوغ، والمفارقة هى أن التقدم التقنى والرغبة فى توفير أفضل حماية للمتوفى جعلا المصريين يبنون منذ الأسرة الأولى مقابر متقنة، لكن هذه نتيجة لم تستطع المصاطب أن تديمها. ولم يستطع الإتقان الذى تحقق (التابوت المصنوع من السلال أو الخشب الموضوع فى صدر حجرة حوائطها مبنية، فى جانب من معبد وأثاث جنائزى)،

المكرس للحفاظ على الأجساد بطريقة مثلى، تجنب التحلل الطبيعي. فالواقع، أن الجثث التي تم الحفاظ عليها في هذه المصاطب، والتي حرمت من الاتصال بالرمل الذي يجففها، تحللت ولم يبق منها غير العظم[١٠].

المحاولات الأولى

ومن ثم، فإن المحاولات النشيطة الأولى لحفظ الجثث ظهرت حقًا منذ بداية الإمبراطورية الأولى[١١]. وخلال الأسر الثلاث الأولى، كانت الأجساد الموضوعة في وضع يشبه وضع الجنين محاطة بأربطة من الكتان ومضغوطة ومغموسة في الراتنج للحفاظ على شكل المتوفى[١٢]، وكانت تعزل عن الوسط المحيط. وعلى مر الزمن، تحسن الأسلوب وانتهى بإعداد "مومياوات زائفة" خلال الأسرة الثالثة. وكان المصريون القائمون بالحفاظ على الجثث يتركونها لتجف حتى لا يبقى منها سوى الجلد والعظم قبل إعادة تشكيل الجسد حول الهيكل العظمي بفضل حشو خرق مضمخة بالراتنج.

ولكن في بداية الأسرة الرابعة، فإن المحنطين الذين درسوا ظاهرة تحلل الأحشاء في منشأ التعفن، استخرجوها من تجويف البطن عن طريق عملية قطع ونزع تتم من الجانب الأيسر، مما يؤدي إلى تغيير حاسم في حالة جسم المتوفى، من وضع الجنين إلى الاضطجاع على الظهر[١٣]. وحينذاك كانت الأحشاء المستخرجة من الجسد تحفظ في وعاء فخاري، خابية الموتى، مملوء بمحلول النطرون، وهو كربونات صوديوم متبلرة طبيعية[١٤]،المستخرج من بحيرات مالحة لا تزال توجد في وادي النطرون (ومنه اسمها) بين القاهرة والإسكندرية. وأخيراً، فإنه في نحو نهاية الأسرة الخامسة، كانوا يقومون بعد نزع الأحشاء بالتضميد بالأربطة الأكثر إتقانًا، كان أحيانًا يشابه، وقد غطى بطبقة من الجص أو الراتنج، الملابس المستخدمة في الحياة اليومية. وكانت ملامح الوجه التي يصنع لها قالب من الجص يتم رسمها، ولكن على الرغم من أن الأجساد كانت تحافظ على شكلها، فإن التحلل نفسه كان يواصل عمله تحت الأربطة، الأمر الذي ينتهي بها إلى تشكيل مجرد قشرة فارغة حول الهيكل العظمي. ومن ثم كانت الأولوية في عمل المحنطين هي إبعاد الجسم بأكمله عن المصادر المحتملة للتعفن، وذلك بعد استخدام

النطرون عقب نزع الأحشاء بهدف ضمان تجفيف المومياء نفسها. وفى هذه الفترة نفسها بدأ المحنطون فى تشكيل هيئة مهنية متميزة، يدفع لها أجرها بعطايا عينية، غالبًا قرابين للآلهة المستردين، أو مكافآت مختلفة تقدمها أسرة المتوفى، ورغم هذه المزايا، لم يحظوا بوضع اجتماعى مرتفع جداً.

وابتداء من الإمبراطورية الوسطى، انتشر التحنيط الذى كان مقصورا حتى ذلك الحين على الملوك وكبار الأعيان، فى المجتمع، بخليط من النجاح. ويرجع لهذا العصر تاريخ الأدوات والمنتجات الأولى للتحنيط التى وجدناها، غالبا مدفونة فى بئر صغيرة على بعد أمتار قليلة من المقبرة(١٥).

التحنيط فى الإمبراطورية الحديثة

تواكب التقدم الحاسم فى تقنيات التحنيط، الأكثر تكلفة والأكثر فاعلية مع قيام الأسرة الثامنة عشرة : فقد بلغت حينذاك أعلى درجة من الإتقان، مثلما تبين المومياوات الملكية المحفوظة جداً على نحو خاص(١٦). وكانت طقوس التحنيط تجرى حسب بروتوكول متطور جداً من سبع مراحل متعاقبة، بعد استقبال الكهنة للجسد عقب الوفاة بيومين أو ثلاثة على الضفة الشرقية للنيل. وكانت جثة المتوفى تحمل فى قارب نحو الضفة الغربية، ثم توضع فى "خيمة التطهير" (الإيبو). وعندئذ كان رئيس المحنطين، "رئيس الأسرار" الذى يمثل الآلهة أنوبيس والذى يرتدى قناعًا من الخشب أو من الطين المحروق عليه صورته المنقوشة، يساعده "الكاهن المحاضر" التابع له، والمكلف بالجانب الدينى من التحنيط وقراءة صيغ التعاويذ، يوجّه الكهنة المكلفين بالتحنيط. وكان الجسد، الذى نزعت عنه ملابسه، يغسل كلية بالماء المحتوى على النطرون ثم يتم نتف شعر الجسد مع الإبقاء على الشعر العادى. وبعد تجفيف الجسد، يتم تنظيفه بقماش مغموس فى مادة ملونة، مطهرة بلا شك، كانت تترك قشرة رقيقة ضاربة للحمرة على الجلد - وهذا هو ما يفسر الاختلافات فى درجات الألوان فى بشرة المومياوات حاليًا.

وكانت المرحلة الثانية تتضمن استخراج المخ عن طريق تجويف الأنف، وهى عملية كانت تتم تقريبا على كل المومياوات فى الإمبراطورية الحديثة(١٧). وكان المحنط يخرج

الحاجز العظمى الدقيق الغربالى للأنف بمساعدة أداة مدببة يغرزها فى المنخر. وكان محتوى الدماغ يحول إلى قطع صغيرة، ثم تستخرج من فتحة التجويف الأنفى. وبعد ذلك، كان يتم إدخال منتج مستخرج من رماد نباتات مثل الأشقان الأصفر، مع الصودا فى تجويف الجمجمة بهدف تنظيف الجدار العظمى تمامًا. وبعد عدة ساعات، كان الجسد الذى عولج وتم قلبه على جانبه أو على بطنه، ورأسه مائلة للأمام، (وهذا ما أدى إلى كسور فى الدماغ ظهرت فى عدد من المومياوات) يطرد هذا السائل. وبعد غسل أخير، كان الكاهن يدخل فى المنخرين مادة راتنجية سائلة، ساخنة تغطى كل جدران الجمجمة من الداخل، باستخدام عدة حركات لتدوير الرأس. وكان الراتنج الزائد يتركز عن طريق الانحدار فى منطقة القذال (القفا) مشكلاً "الدرع القذالى" التقليدى الذى وصفه إخصائيو التصوير بالأشعة. وفى نهاية عمليات العناية هذه، كانت الفتحات - الأنف والفم والأذنان - تغطى بالراتنج أو بالشمع المصهور، أو تحشى بسدادة من الكتان المضمخ بهذه المواد.

وفى المرحلة الثالثة، كانت تنزع أحشاء التجويف البطنى والصدرى، عن طريق منفذ تغير وضعه على مرّ الزمن. فقد كانت تتم فى البدء على التوازى على الجانب الأيسر تحت حافة الجنب، ثم بدأت تمارس من مكان أدنى، ابتداء من حكم تحوتمس الثالث، على التوازى عند خط الحرقفة والعانة، لكن دائمًا من الجانب الأيسر[١٨]. وكان يتعين أن يقوم كاتب بتحديد الموضع الدقيق فى حين كان القائم باستخدام المشرط يقوم بعمل الفتحة باستخدام سكين طويلة ملوية من الزجاج البركانى، "حجر أثيوبيا"[١٩]. وعن طريق هذه الفتحة الضيقة والتى تبلغ ١٢ سم فى المتوسط، كان المحنط، الذى يقف إلى يسار المتوفى، يدخل يده اليسرى عميقا ويستخرج بيده العارية أو بحجر صغير قاطع، الأمعاء والمعدة والكبد، تاركا الطحال والكلى فى مكانها[٢٠]، وكذلك المثانة وأعضاء التناسل الأنثوية. وفى كل الأحوال كان الجنس يظل متصلاً بالمومياء، حتى تستمر الحياة الجنسية للمتوفى سليمة فى الآخرة : وإذا قطع القضيب، فقد كان يتم لفه فى الكتان أو يعاد وضعه فى البطن. وكان الحجاب الحاجز نفسه يتم قطعه بهدف نزع الرئتين، لكن القلب وهو مركز الوعى والشعور، كان يظل فى تجويف الصدر. وعندما كان يتم نزعه خطأ، كان يعاد بعناية إلى مكانه أو يربط ثانية.

وكانت المرحلة الرابعة تتكون من غسل الأحشاء بعناية باستخدام ماء مُنترت بصورة خفيفة، ثم تملح وتعرّض، للشمس خلال مدة قصيرة. وكانت تغمر في سائل محلي ترتفع فيه نسبة الكحول ومشبع بالعطور والراتنج : الشرح(٢١)، وهو شراب كحولي قوى عياره ٢٠ درجة، أساسه النبيذ المطبوخ من واحات الصحراء الليبية، وبعد ذلك، كانت الأحشاء تضمخ بالعطور: المرة، راتنج شجر البُطْم واللورانوم(*) وشجر الاصطرك (ولكن لا شك ليس "عرق البلح" الذى ذكره هيرودوت(٢٢) وديودور(٢٣))، قبل أن يطلى بالراتنج والزيت؛ ثم يُلفّ كل منها فى قماش من الكتان لتوضع فى أربعة أوعية من خابيات الموتى.

وفى المرحلة الخامسة، كان المحنطون يشرعون فى إزالة الماء من الأنسجة، وكانوا يبدأون فى حشو التجويف البطنى والصدرى "بأكياس صغيرة من القماش تحتوى على النطرون الصلب وسدادات من القماش مضمخة بالغراء والراتنج المعطر وبقايا نباتية مثل القش أو ألياف النخيل، ثم يغطون الجسم كله بالنطرون الجاف المتبلر (طبعًا بكميات كبيرة، تبلغ عشرة أمثال حجم الجسم)، والذى كان ينزع الماء من الأنسجة بفضل خاصيته التناضحية. ونظراً لأن الجسد كان يتخفف بهذا الشكل من ٣٠ إلى ٤٠ فى المائة من وزنه، فقد كان يوضع على سرير مائل قليلاً، أسفله وعاء يتلقى المكونات المائية للجسم. وحسبما يقول هيرودوت(٢٤)، فإن هذه المرحلة كانت تستغرق ٤٠ يوماً لكن مدة إزالة الماء والتجفيف هذه لا تزال موضع خلاف.

وخلال المرحلة السادسة، كان جسد المتوفى يحمل إلى مكان آخر "بيت الكمال" (بير نفر)، لكى يتم غسله وتنظيفه، ثم يطلى بمسحة من الزيت المقدس الأولى التى تضفى عليه لونا أحمر برتقاليًا، وفى المسحة الثانية، كان يستخدم خليط من المواد الدهنية النباتية (زيت العرعر، زيت الأرز، الغار، الفلفل، اللادن، ثمار عنب العرعر) ممزوجا باللبن والنبيذ وعسل النحل لإعطائه ليونة من جديد. وكان المحنطون يحشون

(*) عقار من روح الأفيون . (المترجم)

الأجساد بمواد مختلفة: قماش من الكتان مبلل بالراتنج، نطرون، نبات كشة العجوز، بصل، طين أو أيضًا النشارة المخلوطة بقطران الصنوبر. وكانت فتحة البطن تغطى عادة بالشمع، وكانت فتحات الملوك تستر تحت لوحة من المعدن أو الذهب، تحفر عليها العين "أوجات" علامة الحماية والشفاء.

وكانت العينان تجففان بالنطرون، ويتم نزعهما واستبدالهما أحيانًا بحشو من الأنسجة (وهو ما حدث بالنسبة لرمسيس الثالث)، وبأحجار كريمة، بعضو اصطناعى مزين، أو حتى بالبصل المرسوم (ما حدث بالنسبة لرمسيس الرابع). وكانت فتحتا المنخارين تسدان عادة عن طريق القماش أو الشمع.

وكانت المرحلة السابعة تشرك إخصائى التجميل الذى يقوم بتجميل المومياء بالألوان خلال ١٥ يومًا على الأقل، ويصحب ذلك إجراء طقوس وترديد صيغ شعائرية، وبين طبقات الأربطة المضمخة بالشمع والغراء النباتى، كان يتم إدخال تعاويذ للحماية وكذلك مجوهرات (كان عددها ١٤٣ بالنسبة إلى توت عنخ آمون)[٢٥]. وبمجرد لف الجسد فى الكفن المصنوع من القماش المتين جدا، كان يوضع قناع من النسيج أو البردى، المقوى بالجص أو الراتنج على الوجه والكتفين. وكان العمل فى المومياء ينتهى بصب العطور والمروخ وكذلك الراتنج عليها.

وإلى جانب هذا التحنيط المعقد الذى كان مقصوراً على الشخصيات المنحدرة من طبقات راقية، شاع صنفان آخران من التحنيط، كانا يتمان على نحو أسرع. فبالنسبة للفقراء جداً، كان الأمر يقتصر على حقن عصير نوع من الفجل الأسود، ثم كان الجسد يجفف فى حمام من النطرون، وكان التحنيط من النوع الثانى، يتمثل فى حقن زيت الأرز فى المعدة قبل غمر المتوفى فى النطرون. وعند لحظة سحب الجسد، كان زيت الأرز يخرج حاملا معه الأحشاء التى حولها لسائل. ثم كانت جثة الميت تعاد لأسرته.

هدف جميع الرغائب

حسب الأسطورة، فقد أكل فرنسوا الأول المومياوات. ولقد كانت المومياوات وهى شاهد جذاب على ماض بعيد، على الدوام موضع اهتمام حىٍّ كان فى البدء اقتصادياً بحتا. إذ كان يتم البحث عنها ليس فقط للحصول على الأشياء التى تحتوى عليها، وإنما أيضا لاستخدامها فى الفارماكوبيا أو فى الزراعة كسماد[٢٦]. ومن ثم كان نهب المقابر على أيدى أفراد لا يتسمون بالمبالاة، ظاهرة قديمة جداً: فقد لوحظ ارتكاب سرقات فى نواحى طيبة حتى فى ظل حكم رمسيس التاسع[٢٧].

وكان لابد من انتظار القرن التاسع عشر حتى تصبح المومياوات موضع دراسة علمية. وقد قام روسو فى ١٨٠٢ بأول تشريح "عليم" حقًا، وتبعه التشريح الذى قام به لارى فى ١٨١٣[٢٨]. لكن سنة ١٨٢٠ بصفة خاصة هى التاريخ الذى ينبغى تذكره: ففى هذه السنة تم فى لندن تشريح لامرأة تبلغ من العمر ٣٥ عاماً من الأسرة السابعة والعشرين[٢٩]. ولكن كلمة "عليم" لا تعنى القول بأنه علمي: فطوال القرن التاسع عشر، كانت جلسات فك الأربطة عن المومياوات فى المحل الأول موضع اهتمام مرضى من جانب جمهور هاو يبحث عن الإثارة الشديدة. ولم تتم أولى عمليات التشريح الدقيقة للمومياوات، إلا فى ١٨٦٨، بعد اكتشاف الفراعنة الأكثر شهرة فى موقع الدير البحرى. وابتداء من هذه الفترة، تضاعف تشريح المومياوات (٩٠ ألف بين ١٨٨٠ و ١٩١٠ حسبما يقول رولنج)[٣٠]، ومارسه علماء الأنثروبولوجيا وعلماء المصريات أو أطباء لم يلتزموا بدورهم الدقة العلمية، وقاموا بدراسات سريعة وفظة ومسببة للبتر بهدف مظهرى أكثر منه علمى.

ولم يبدأ علم أمراض الشعوب القديمة حقًا، إلا بعد أعمال السير أرماند روفر فى ١٩٢١ . وابتداء من سبعينيات القرن العشرين فحسب، جرى فحص المومياوات حسب بروتوكولات أقل تسببًا فى التشويه، على أيدى أطقم تضم تخصصات مختلفة[٣١]. وخير توضيح لذلك هو علاج مومياء رمسيس الثانى[٣٢] فى باريس فى ١٩٧٦، على أيدى مجمع غير عادى من خبراء الأشعة والأسنان والتشريح والباثولوجيا، والطفيليات والبكتريا والحشرات وإخصائيين فى النباتات القديمة.

جسّ الكلى والقلب

تصور ذهول المرضى والعاملين فى مستشفى القاهرة الذى كان يوجد فيه حينذاك جهاز الأشعة الوحيد فى مصر، من مشهد اثنين من علماء المصريات، إليوت سميث ووود جونز، وهما يحملان بعناية فائقة مومياء تحوتمس الثالث، ويخرجان بها من تاكسى[٣٣] فى ١٩٠٣ ... فسرعان ما أدرك عالما المصريات هذان أهمية التصوير بالأشعة، الذى تتوافر له ميزة ترك المومياء الملفوفة فى أربطتها سليمة[٣٤]. وقد ذاع صيت هذه التقنية: ففى ١٩١٣، أورد برتولوتى أول تقرير عن وجود تشوه عظمى بيّنه التصوير بالأشعة فى مومياء من الأسرة الحادية عشرة[٣٥]. وأجرى رائد هذا الأسلوب، ر. ل. مودى من جانبه دراسة على سبع عشرة مومياء فى ١٩٣١[٣٦]، وقد فاقه فى هذا كثيرا جراى الذى نشر فى ١٩٦٧ ، ٢٠٠ ملاحظة على مومياوات محفوظة فى مختلف المتاحف الأوربية، خاصة فى بريطانيا العظمى (المتحف البريطانى، نيوكاسل، ليفربول ...) وفى هولندا[٣٧]. وفى العام التالى، صرحت الحكومة المصرية بإجراء فحص بالأشعة لمومياوات محفوظة فى متحف القاهرة بواسطة طاقم من أساتذة جامعة متشجان.

لقد كان للتصوير التقليدى بالأشعة فائدة واضحة أدركها بروثويل[٣٨] وبوكاى[٣٩]، إذ يتيح اكتشاف وجود عظام جيفة بشرية تحت الأربطة من عدمه وبذلك يتم كشف "المومياوات الزائفة" التى كان يعدها بإتقان فى القرن التاسع عشر تجار مصريون لا يبالون شيئًا بطلب ملح من جامعى التحف. ومن جانب آخر، أتاح التصوير بالأشعة كشف الأجسام الغريبة التى تظهر مظلمة فى الأشعة، مثل التعاويذ المخبأة فى تخانة الأربطة، ناهيك عن المعلومات ذات الطابع الأنثروبولوجى التى يمكن أن تقدمها الصور السلبية[٤٠]. وهكذا، يمكن تقييم قوام الشخص الذى يفحص بدراسة العمود الفقرى والعظام الطويلة للأعضاء، وتحديد الجنس عن طريق الصور السلبية للحوض والجمجمة، وكذلك العمر بفضل المشاهد الأفقية والعمودية للأسنان (التى تحدد درجة التحول لمعدن وحالة بروز الأسنان)[٤١]، وحالة تعظم الهيكل العظمى، والتصاق عظام القوام ومحو النافوخ على صور أشعة الجمجمة وتقدير السطح المفصلى العجزى

الحرقفى على صور أشعة الحوض. وهكذا فإن تصوير الأسنان بالأشعة، إذا ضربنا المثل بهذا، بيّن سن المتوفى بالنسبة لثلاث مومياوات معزوة للفراعنة: تحوتمس الثانى (حوالى ٣٠ – ٤٠ سنة)، منفتاح (حوالى ٦٠ – ٧٠ سنة)، رمسيس الثانى (حوالى ٨٥ – ٩٠ سنة)[٤٢]. لقد أتاح فحص رمسيس الثانى بالأشعة بدوره تحديد سنه العظمى بثمانى عشرة سنة فحسب، وهى نتيجة تتعارض مع المعلومات التى نعرف بمقتضاها أنه مات فى نحو الخمسين، بعد حكم استمر ١١ عاماً و ٩ أشهر، إذا كان الأمر يتعلق فعلاً بجسم تحوتمس الأول المحنط.

كما يتيح التصوير بالأشعة كشف أمراض العظام، والتى تتحدد فى النهاية بتقنيات أكثر تخصصاً. وهكذا بيّن التصوير بالأشعة للهيكل العظمى لأمينوفيس الثانى ترقق الأجزاء التى تباعد العجز والحرقفة وتكلس أربطة العظم الشوكى الجانبى القطنى فى الظهر، مما يوحى بتشخيص يبين وجود التهاب يؤدى إلى تصلب المفاصل والتصاقها. وذلك دون أن نحصى إحداث أضرار معينة فى الأنسجة الرخوة يتعين تعقب آثارها (تكلس الشرايين، المرارة، حويصلات متكلسة ...)[٤٣].

وهناك تقنية أقل اشتهاراً بين العامة، وكانت تحظى بتقدير كبير قبل ظهور السكانر (جهاز إنعام النظر)، هى الأشعة السينية التى استخدمت فى دراسة المومياوات[٤٤]. ونظراً لأنها تسجل الصورة التى تنتجها الأشعة السينية بمساعدة إجراءات للتصوير الكهربائى، فقد توافرت لها ميزة إنتاج صور جدّ متعارضة عن تفاصيل الأنسجة الرخوة والغضاريف.

كما استخدم التصوير الطبقى بالأشعة ذات الطبقات المتعددة بصفة خاصة قبل السكانر، مما أتاح الحصول عن طريق المسح بالأشعة السينية على صور على هيئة قطع، عن سطح مصور بعد الآخر. وبهذه التقنية، الحصيفة جداً، بالنسبة إلى دراسة الهياكل العظمية المعقدة للجمجمة، أظهر طاقم كوكبرن فى ١٩٦٩ فتحة إخراج المخ، التى لا تظهرها الصور العادية[٤٥].

لكن السكانر، الذى ظهر فى ١٩٧٢، أحدث حقًا ثورة فى دراسة المومياوات. وقد استخدم طاقم الدكتور هارودناس من تورنتو هذه التقنية فى ١٩٧٧ لأول مرة

لتحليل مومياء يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة (نحو ٩٠٠ ق.م.)[٤٦]. وفيما بين ١٩٧٨ و ١٩٨١، قامت أقسام الأنثروبولوجيا والوراثة البشرية والتصوير الطبى بالأشعة فى جامعة توبنجن، بقيادة و.م. بال، ببحوث للتصوير بالسكانر على مومياوات أصلية من مصر وكذلك مومياوات من أمريكا الجنوبية وآسيا[٤٧]. وخلال سنوات الثمانينيات بصفة خاصة، قام ت. فولك[٤٨] وم. ماركس[٤٩] بعدد كبير من الفحوص بقياس الكثافة المقطعية بهدف جمع كمية من المعلومات المثيرة فى مجال علم أمراض الشعوب القديمة.

ما هى ميزة السكانر على التقنيات الأخرى؟ إنه يتيح إجراء دراسة محددة للهيكل العظمى، بتحديد مقاطع دقيقة جدا للجسد كله. وهكذا، أسفرت دراسة التصوير بالسكانر لتاشات، ابنة جيحوتيحوتب " حارس أبواب معبد أمون " فى طيبة خلال الأسرة الخامسة والعشرين عن تكوين صورة رائعة لقلبها، حيث ظهرت واضحة بجلاء فى حجرة البطين بقايا هياكل تتفق مع الحبال والعضلات الحلمية[٥٠].

وباستخدام السكانر، استطاع الباحثون بالمثل تحديد تفاصيل نظام للمصريات، أسلوب وتقنية لف الأربطة المستخدم، الأشياء الجنائزية المخبأة، المواد الموضوعة داخل الجسد، الشكل، والقامة والموضع المحدد لنزع الحاجز البطنى وبصفة خاصة تقنية التحنيط المستخدمة (نزع الأحشاء كاملة، المواد المستخدمة لملء ما تحت الجلد، العيون الصناعية، إلخ).

ومنذ فترة قصيرة، أمكن استكمال قياس طبقات الكثافة هذا فى المومياوات بعملية إعادة تشكيل لها ثلاثة أبعاد[٥١]. وكان هذا هو حال كاهنة من الأسرة الثانية عشرة، اسمها تجنهوتنجبنيو، محفوظة فى تابوتها الحجرى فى المتحف البريطانى فى لندن[٥٢]. وبفضل عملية إعادة تشكيل الأنسجة المحنطة، أمكن استنساخ رأسها وحتى تعبير الوجه دون نزع التابوت الحجرى ولا لمس الأربطة[٥٣]. وأمكن من خلال صور أسنانها، تحديد سن المتوفاة بين ١٩ و ٢٣ سنة، فى حين قدرتها المعطيات الأركيولوجية بين ٢٥ و ٤٠ سنة. وباستخدام هذه التقنية على ثلاث مومياوات أخرى، أمكن تشكيل صور للمتوفين قريبة من التماثيل الصغيرة المنحوتة على شاكلتهم[٥٤].

وكان الرنين المغناطيسى هو الوحيد الذى تم التوغل به قليلا فى هذا الشأن[٥٥]. والواقع، أن التجفيف الضيق بالتحنيط يمنع إنتاج البروتونات، وبذا يعرقل الصور[٥٦].

تفتيش منتظم

تعدّ الخصائص المتعلقة بالتشكل والتشريح، الطبيعية والمرضية، للجثة التى يتم تشريحها، والتى تتحدد بفضل التصوير المعيارى بالأشعة وجهاز المسح (السكانر)، مرشداً رائعًا للعرض الجيد لتشريح الجثث.

ويأتى التفتيش فى المحل الأول؛ وفيه يتم فحص الجسد قبل الانتقال للتشريح بمعناه الدقيق. ويتعلق الأمر بالبحث أولا عن آثار الجروح الموجودة على الغلاف الجلدى التى لها مظهر الطبقة الصلبة الغامقة، المجزعة، بسبب الراتنج والشمع اللذين استخدمهما المحنطون. وهكذا أظهر فحص مومياء تحوتمس الثانى وجود بثرات جلدية مساحتها ١ مم فى ١ مم[٥٧]، على مستوى الصدر والكتفين والذراعين واليدين والردفين والساقين والقدمين؛ ولم يكن سليماً سوى الوجه وراحتى اليد وباطن القدمين[٥٨]. وتم التوصل إلى تشخيصين افتراضيين، يصلحان لتفسير هذه المتاعب الجلدية لدى تحوتمس الثانى، إذ كانت تعبر إما عن بثرات جلدية تتعلق بخلل فى الأيض (دمامل صفراء جلدية مسطحة، فقاعات فى الجلد مملوءة بالسوائل، أو وجود مخاط فى بثرات الجلد)، وإما تغير لون الجلد من جراء الالتهابات. وينزع مظهر انتشار القروح والتكلسات فى الأجزاء الرخوة والسن المبكر والتكوين الهش للفرعون إلى تأكيد الفرض الأول. لكن طبوغرافية البثرات الجلدية ووجود نفس العناصر لدى ابن وحفيد تحوتمس الثانى يشير إلى مرض أسرى ويتجه بدرجة أكبر نحو الفرض الثانى. ومن جانب، فإن فحص مومياء رمسيس الخامس وهو فرعون مات فى سن الثلاثين، أوضح وجود بثرات جلدية على الوجه وعلى البطن وعلى الفخذين، وهى بثرات تعتبر على نحو شائع آثاراً للجدرى، وفى هذا لا يمكن التوصل لتشخيص حاسم، فى ظل عدم القيام بفحص تشريحى باثولوجى.

ولنضف أن أربع مومياوات جرى تحليلها كانت تحمل وشما (نقط وخطوط مرتبة في خطوط متوازية، أو في شكل المعيّن الهندسي) : أمونيت، كاهنة حتحور التي وجدت في مقبرة من الأسرة الحادية عشرة، وراقصتان من طيبة من عصر أكثر تأخرا وامرأة نوبية، وكانت كاهنة حتحور مثلا موشومة على الكتف الأيسر والذراع الأيمن والفخذ ومنطقة الحالب اليمنى، وكذلك على البطن في مستوى تحت السرة، وكان جزء كبير له شكل القطع الناقص مرسوما على منطقة ما تحت العانة. ويوضح فحص الوجه عادة وجود تشويه واستطالة يرتبطان بتقنية التحنيط، وفيها كان يتم استبدال الفك الأسفل بدرجة أو أخرى من الصعوبة. وقد تفقد الأنف في النهاية، فكثيرا ما كان يتم كسرها خلال التحنيط، أو يتم استبدالها بأنف صناعية. وعلى مستوى الأذنين، نجد في مومياوات معينة الشحمتين مثقوبتين ومشوهتين من جراء ثقل الأقراط التي تحملانهما : أو نجد حتى لدى أحد المراهقين أذنين مشكلتين من الراتنج وقماش القطن ولا يمكن تحديد ما إذا كانا قد وضعا قبل الموت أو بعده.

وقد وجدت بصمات أصابع على مومياوات محفوظة جيدا، بمساعدة مواد سليكونية ولكن تفسيرها يظل أمرا شائكا، والأمر المعقول نوعا ما هو إجراء دراسة على عدد كبير بقدر كاف من الجثث التي تنتمي على وجه التأكيد لنفس الأسرة.

فحص الباطن بالمنظار، أو الترحال داخل الجسد

في مرحلة ثانية، كان باطن المومياوات هو الذي جرت دراسته: وقد استند هذا طويلا على تشريح تحليلي يشبه من كل النواحي ذلك الذي يقوم به طلاب الطب في وقتنا الراهن[٥٩]. ولكن زاد تدريجيا استخدام فحص الباطن بالمنظار قبل التشريح. وقد أبرز نوتمان وستانورث في إطار مشروع مانشستر للمومياوات، وب. بونفيس في إطار مشروع ميونخ للمومياوات، الاهتمام بهذه التقنية، والتي أخذت تتحسن دوما بسبب تصغير معدات السبر المستخدمة لفحص الألياف. والواقع أنها تتوافر لها ميزة رصد قروح وإصابات البطن والصدر وكذلك محتوى التجاويف، وتقييم تقنية التحنيط، والبحث في الأعضاء ورزم أوعية خابيات الموتى. ولكنها تتيح بصفة خاصة أخذ

عينات من الأنسجة لتحليلها والتى كانت موضع دراسة للأنسجة الحية (هستولوجية)، أو دراسة كيميائية متعمقة[٦٠]. وكان المسبار يتم إدخاله فى المرة الأولى عن طريق فتحة فى البطن لاستخراج الأحشاء أكثر مما يتم إدخاله عن طريق الفتحات الطبيعية عن طريق الفم أو الشرج، التى كان يتم سدها عادة فى المومياوات، ويمكن بالمثل جعل الرأس موضع فحص للباطن بالمناظير عن طريق مسالك الأذن الخارجية، ويمكن أيضا أخذ عينة من النسيج الدماغى عند الضرورة.

صغر غير محدود: الفحص الهستولوجى للأنسجة المحنطة

يمكن عن طريق الدراسات الهستولوجية، إجراء تشخيص بأثر رجعى، بمجرد تخطى عقبة جفاف الأنسجة المحنطة ونزع المياه منها، الذى يجعل من الصعب القطع بمشرط العينات المجهرية، ومن ثم كان يتعين أولا وقبل كل شىء إماهة الأنسجة (إعادة المياه لها). وبعد محاولة تعيسة الحظ قام بها النمساوى كزيرماك فى ١٨٥٢[٦١]، حصل شاتوك على بعض النتائج عن طريق تجميد أجزاء من الشريان الأبهر (الأورطى) لنفتاح[٦٢]. لكن بوفر[٦٣] بصفة خاصة هو الذى حسّن بدرجة كبيرة المعارف المتعلقة بأمراض الجلد وقدم فى ١٩١٠ أسلوبًا جديدًا للإماهة، تاركًا الأجزاء المقتطعة مغموسة لمدة تتراوح من ٣٤ إلى ٤٨ ساعة فى خليط يحتوى على كربونات الصوديوم بنسبة ١ فى المائة والفورمول. وخلال العقود التى تلت ذلك، واصل الباحثون الانكباب على المشكلة: ونجح ساندسون[٦٤] فى إتقان تقنية للتحضير الهستولوجى للأنسجة المحنطة فى ١٩٥٥، وبذا فتح المجال لإجراء دراسات مثيرة للاهتمام. وبفضل تقنياته، أمكن جعل غالبية الأنسجة البشرية موضع فحص هستولوجى فى شكل جيد ولائق: وحتى إن ظهر أن البعض منها، مثل العضلات، والكبد والأعصاب، قد تغير للغاية بصفة عامة، فإن البعض الآخر، والذى يبدو فى حالة جيدة، يوفر صورًا طيبة، وكان ذلك هو حال الجلد وما يبرز من البشر كالشعر والأظافر، والأنسجة الغضروفية، والأوعية، والعناصر الدموية[٦٥].

وفى ١٩٦٨ ، بينت الدراسات الأولى للفحص المجهرى بالمسح التى أجريت على أجزاء من الجلد جاءت من اثنتين من المومياوات من عصر ما قبل الأسر (٤٠٠٠ ق.م.)[٦٦]، طبقة الجلد العليا (البشرة) مصانة لكن دون نويات مرئية للخلايا. ومن ثم خلص

الباحثون منها إلى أن حالة حفظ المومياوات نجمت عن مناخ جاف جداً أكثر مما نجمت عن عملية التحنيط نفسها، بينما كانت التفسيرات المقدمة حتى ذلك الحين تركز على سجح البشرة بمحاليل النطرون خلال التحنيط، وفى ١٩٩٣، تأكد هذا الفرض بدراسة بنيوية دقيقة لجلد اثنتين من المومياوات المصرية (١٥٠ ق.م. و ٩٠ بعد الميلاد)[٦٧]، أوضحت، إضافة إلى بزبزات بكتيرية، أن حفظ الهياكل الجلدية كان سليماً تماما، وبصفة خاصة الجسيمات الرابطة للجلد، نقطة الالتقاء بين الخلايا والمكونات المتليفة لترسيب طبقة الجلد الداخلية (الأدمة) خارج الخلايا. وأكدت هذه المعطيات روعة إجراءات التحنيط بسبب من نوعية حفظ هياكل الأنسجة.

الوجبة الأخيرة

إننا نعرف غذاء المصريين بفضل اللوحات الموجودة على جدران المقابر. والوجبة الأكثر شهرة هى تلك التى اكتشفها خبير الآثار القديمة الإنجليزى و. ب. إيمرى، فى سرداب فى سقارة – ٣٠ التى يرجع إلى الأسرة الثانية نحو ٢٧٠٠ ق.م. وكانت هذه الوليمة تضم سمكاً، وسمانا مشوياً، ولحم حمام متبلاً، وكلاوى، مصحوبة بخبز ومعجنات بالعسل، وكذلك ثمر العناب بل ومربة تين. وكانت كلها مصحوبة بالنبيذ. وهذا هو السبب فى أن علماء الآثار القديمة زاد اهتمامهم بتحليل مواد البراز[٦٨] أو البراز المتحجر، الذى تم استخراجه من المومياوات بعد تشريح الأمعاء. وبيّن الفحص الميكروسكوبى لهذه المواد قليلة الإغراء، بعد إماهتها، مكونات مواد البراز. وقد وفرت عمليات الفحص التى مورست على سلسلة موحدة التركيب من العينات، معطيات محددة عن العادات الغذائية لأحد الشعوب، ولكن ليس فى الإمكان دوما العثور عليها، حيث كان حفظها داخل الجسم بواسطة المحنط يعتمد على نوع التحنيط والعصر. وإضافة لذلك، فإن الجثث التى تم تحليلها لا تشكل مجموعة موحدة فى التركيب وكبيرة بما يكفى لاستخلاص المعطيات الغذائية لمجموع شعب بأسره. ومع ذلك فإن وجود ألياف نباتية فى المواد البرازية لحينتت (زوجة منتوحتب)، وألياف عضلية فى براز بوم الثانى (مومياء مصرية من الفترة البطلمية يرجع تاريخها إلى نحو ١٧٠ سنة قبل الميلاد ومحفوظة فى متحف جامعة بنسلفانيا)، يتيح الكشف عن تكوين آخر وجبة لهما[٦٩].

رمسيس الثانى، أشقر الشعر

لم يتم إهمال شيء، فقد تم دراسة شعر الرأس وشعر البدن الذى تم جمعه بالملقاط مع الجراب الخاص به فى فحص مجهرى بصرى وإلكترونى بعد إعداده. وبذا أمكن معرفة أن رمسيس الثانى كان ... أشقر الشعر(٧٠). والأكثر جدية، أنه ابتداء من معطيات عن النمو العام للشعر الكثيف على الغشاء أو الجلد، وعن شكل شعر البدن ولونه، أمكن نسبة المتوفى إلى هذه المجموعة أو تلك من السكان، ومن جانب آخر تم اكتشاف قروح تتفق مع أمراض الجلد الأشقر، خاصة القراع الناجم عن فطريات نبتات الجلد؛ ناهيك عن أن فحص شعر الرأس وشعر البدن يتيح تحديد عدد معين من المكونات المعدنية أو السمية(٧١)، مثلاً التركزات الكبيرة للعناصر قليلة العدد، بفضل إجراءات لقياس الطيف. وقد تم العثور على الكالسيوم والمغنسيوم والسترونتيوم والمنجنيز والزنك والحديد والنحاس بنسب كبيرة فى ١٦٨ مومياء(٧٢). وقد أتاحت دراسات تكميلية تفسير اختلاف تركزات المعادن بالعادات الغذائية. يضاف إلى ذلك أن عقاقير معينة وجدت أيضًا فى شعر المومياوات(٧٣)، وهى نتائج تأكدت مرات كثيرة على أيدى أطقم مختلفة(٧٤).

ما هو سن المومياوات؟

لتحديد تاريخ المومياوات، هناك حلان : أسلوب تحديد تاريخ الكربون ١٤ وتفاعل ترازم الأحماض الأمينية.

ويقوم الأسلوب الأول الذى طبقه و. ف. ليبى فى ١٩٤٧ على قياس النشاط الإشعاعى للكربون ١٤ فى عينات من عضلات المومياوات، ويستند مبدأ هذه التقنية على حقيقة أن هذه النظائر المشعة، التى يبلغ عمرها النصفى ٥٥٦٨ سنة، والتى يتضمنها كل كائن حى طوال وجوده عندما يتمثل الغاز الكربونى الملوث بأشعة كونية، لها نشاط يتناقص بانتظام تبعًا للزمن. ويتيح تحديد مستوى النشاط الإشعاعى للكربون ١٤، الذى يقاس باستخدام عداد جيجر، الوقت المنصرم منذ موت الكائن الحى.

والميزة ، هي أن تحديد التاريخ يمكن إجراؤه بالنسبة لكل الهياكل التي تتضمن الكربون ويبلغ عمرها من ١٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ سنة. والجانب غير الملائم: هو أن مصادر الخطأ عديدة، لأن النتائج تتوقف على حجم العينة واحتمال التلوث من عناصر في البيئة المحيطة، ومن ثم فإن تحديد التاريخ بهذه الطريقة تقريبي.

وتقوم الطريقة الأخرى لتحديد التاريخ على تقنية توصل إليها براكو، في ١٩٧٣، تستند إلى تفاعل ترازم الأحماض الأمينية. ونقطة البدء هذه المرة هي الأحماض الأمينية، التي تكون بروتينيات الكائنات الحية وتؤثر على اتجاه المسقط الأفقي للضوء الذي يخترقها. وتتشكل هذه الأحماض الأمينية المركبة من أشكال تدور لليسار أكثر منها أشكال تدور حول اليمين، وبذا تحرف الضوء المستقطب إما نحو اليمين، أو نحو اليسار. وبدراسة نسبة هذا الشكل أو ذاك، يمكن استنتاج عمر النسيج الذي تتم دراسته. والميزة : هي أن هذه الطريقة لا تتطلب سوى كمية ضئيلة من المادة. والجانب غير الملائم : هو أن نتائجها تتباين تبعًا لدرجة الحرارة. وفي هذه الحالة، فإن دراسة مومياء ما تقتضي معرفة، وإن كانت تقريبية للظروف الحرارية التي دفنت فيها.

دم ، دم

جرت دراسة الزمر الدموية بطريقة دراسة الأمصال القديمة لأول مرة في ١٩٢٧، على أيدي كريتشفسكي الذي بيّن وجود مواد تسمى مولدات المواد الغروية (مولدات الملزنات) أ و ب على الجثث، وهي المواد التي كشف عنها لاندشتينر(*). وبدراسة الزمر الدموية للمومياوات المصرية، كشف ل. ج. بويد[٧٥]، توافر الزمر أ ، ب ، و، في مصر القديمة على وجه يماثل كثيرًا ما يوجد في هذا البلد حاليًا[٧٦]. ومن جانب آخر، يؤكد وجود الزمرة ب في مومياوات من عصر ما قبل الأسر والتي ترجع إلى أكثر من ٣٠٠٠ سنة ق.م.، الافتراض الذي وضعه أطباء معينون، وبمقتضاه فإن الزمرة ب لم تكن سوى

(*) عالم أمريكي من أصل نمساوي (١٨٦٨ – ١٩٤٣) اكتشف في ١٩٠١ الزمر «الفئات» الدموية ، واكتشف في ١٩٤١ العامل رهسيوس وآليات وتساوي التمنيع للجنين والأم . (المترجم)

تحوير للزمرة و التى ظهرت فى العصر المسيحى، وعلاوة على هذا أتاحت هذه الطريقة تحديد علاقة القرابة بين سمنخارى وتوت عنخ آمون اللذين كانا شقيقين ومن ثم ينتميان لنفس الزمرة[٧٧].

والتجميع HLA، الذى نعرف أنه يلعب دوراً أساسيًا فى التوافق النسيجى والاستعداد الوراثى لأمراض معينة، أمكن الكشف عنه هو أيضا بعد اقتطاع عينتين من أنسجة محنطة، على المستوى العضلى والجلد العميق. وذلك ميدان للبحث مهم بصفة خاصة فى علم الأمراض العضوية للأجناس البائدة، لأنه يتيح تحديد الأمراض الوراثية التى ظلت حتى ذلك الحين مجهولة أو مشتبه فى وجودها فحسب عند المصريين. وإضافة لذلك، فإنه بفضل هذه الطريقة، توافرت لعلماء الأنثروبولوجيا إمكانية التحديد الدقيق لأصول السكان وتطورهم، حتى وإن ظلت هذه التقنية المكلفة والصعبة التطبيق مطبقة لفترة محدودة.

ميكروبات قديمة قدم مصر

قام الباحثون فى مجال الميكروبيولوجيا، وكان روفر رائدا لهم، بعزل عدد معين من الأجسام الدقيقة فى أجساد المومياوات. وبذا نجح فى أن يكتشف فى رئات جثتين عاملا مرضيا بكتيريا قريباً من بكتيريا الالتهاب الرئوى المسئولة عن الإصابة بمرض ذات الرئة وبكتيريا سلبية الجرام قريبة من عصية الطاعون. وفى ١٩٧٧، قام طاقم متحف أونتاريو الملكى بعزل بيض متكلس لديدان المنشقات المسئولة عن الإصابة بالبلهارسيا فى الكبد، والأمعاء والكلى الخاصة بحائك نسيج مات من ٣٢ قرنًا حتى الآن، اسمه ناخت، وأعيد تسميته روم ٢[٧٨]. كما كانت هذه المومياء نفسها تحوى بيض دودة شريطية فى حويصلات الشعرينات الحلزونية فى العضلات الموجودة بين الأضلاع. ومن جانبه، وجد طاقم متحف جامعة فيلادلفيا بقيادة كوكبيرن بيضة لدودة الإسكارس الأسطوانية فى أمعاء معدة كاهن معمد باسم بوم. ومن جانب آخر، حدد اختبار "Parasight F-Test" والذى يقوم على الطريقة ELISA، المطبق على أجزاء من الجلد والعضلات والرئة لأربع مومياوات من عصر ما قبل الأسر واثنتين من المومياوات

اللتين ترجعان للأسرة العشرين، وجود مولد المضادات PTHRP-2 المميز للمسمود المنجلى، وهو العامل المرضى المسئول عن الملاريا(٧٩).

وغـدا ؟

فى الصغر غير المحدود، ننتقل بلا ريب للكيمياء الحيوية للأجناس البائدة التى تحلل على حد سواء المكونات العضوية الجزيئية الكبيرة (البروتين [بروتيد]، والدهون، والسكريات) وجرعة العناصر الكيميائية البسيطة(٨٠). والواقع أن تحديد البروتين، الذى يتسم بوزنه الجزيئى وتكوينه من الأحماض الأمينية، يوفر معلومات قيّمة عن حفظ الأنسجة، وأيضا عن ظروف التحنيط، فللنطرون خاصية تثبيت البروتين ذى الوزن المرتفع. وإضافة لذلك، تحدد دراسة الدهون والسكريات والفيتامينات الأنواع المختلفة من التغذية فى حين يستند تحديد أسلوب الحياة إلى البحث عن كوليسترول ثلاثى الجلسريد والدهون الفسفورية وفيتامين هـ(٨١). وتحديد جرعة العناصر الكيميائية (الصوديوم، البوتاسيوم، الكالسيوم، والمغنسيوم، وكذلك الرصاص والزئبق والفضة، إلخ) أصبح ممكنا بفضل تقنية قد يبدو اسمها غريباً بالنسبة للعامة وهو قياس الضوء الطبقى للامتصاص. كما أوضحت الدراسات المقارنة للمومياوات، ولأشخاص معاصرين وجود تركزات متماثلة من الزئبق فى العظام، على عكس الرصاص الذى كانت تركيزاته أقل ثلاثين مرة فى المومياوات.

وفى النصف الثانى من الثمانينيات، أتاحت هذه التقنيات للبيولوجيا الجزيئية، التى استغلها س. بابو وتم الأخذ بها فى مجال دراسة علم أمراض الشعوب القديمة، بالفعل إمكانيات مثيرة للاهتمام بأقصى حد(٨٢). فقد أظهر هذا الباحث فى ١٩٨٥ أجزاء من الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسجين القديم فى مستحضرات هستولوجية مختلفة من عضلة محززة بالهيكل العظمى، ومن نسيج ضام للأجسام المحنطة منحدر من عصر ما قبل الفراعنة(٨٣). وهكذا نجح س. بابو فى عزل مادة جينية من عمليات الاقتطاع التى تمت من ٢٣ مومياء مصرية من عصور مختلفة وفى استخراج واستنساخ جزء من الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسجين

من ٣,٤ كيلوجرام من جثة طفل محفوظة فى المتحف المصرى فى برلين ويرجع تاريخها إلى ٥٠٠ سنة ق.م.[٨٤]. كما أتاحت جرعة إنزيمات القلب التوصل لتشخيص بأثر رجعى لاحتشاء عضلة القلب عند حوريم كينسى، أم آمون، والتى راحت فى سن الستين ضحية لموت مفاجئ حوالى عام ١٠٥٠ ق.م.

وقد أتاح هذا العلم الجديد دراسة الأمراض التى تفشت فى مصر القديمة، والتى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، وبهذه الطريقة غير المباشرة، أصبح تواتر وتطور الأمراض المكتشفة مفهوما. وإضافة لعلاقات القرابة بين أعضاء أسر الفراعنة[٨٥]، ساعد هذا فى تتبع هجرات سكان وادى النيل والسكان المجاورين فى العصر الفرعونى.

الهوامش

(1) P. Hennequin, Santeet hygiene..., op. cit., p. 75.
(2) Pline FAncien, Histoire nature Ue..., op. cit., p. 5.
(3) L. L. Wiltse, T. G. Pait. «Herophilus of Alexandria (325-255 B.Q). The father of anatomy», Spine, Sept. 1998, 23(17), 1904-1914.
(4) J.-P. Lethor, Du cceuret des vaisseaux dans l'EgypteAncienne: etude de textes, etude de momies. These de docteur en medecine Nancy 1, 1989, p. 60.
(5) G. Lefebvre, op. cit.
(6) M. A. Dollfus, Les connaissances ... op. cit., p. 2.
(7) S. Sauneron, «Une conception anatomique tardive*». Bulletin deUinsti-tutfrancais d'archeologie orientate, 1952, 51, pp 61-62.
(8) J. Assmann, Images et rites de la mart dans l'Egypte ancienne, Cybele, 2000.
(9) G. Rachet. Diction naire..., op. cit., p. 171.
(10) F. Dunand, R. Lichtenberg, Les momies... op. cit.
(11) J. Roller, U. Baumer, Y. Kaup, H. Etspuler, U. Weser, «Embalming was used in Old Kingdom», Nature, 1998, Jan 22, 391(6665), pp. 343-344.
(12) J.-C. Goyon, P.Josset, Un corps pour l'etemite, autopsie d'une momie, Paris, Le Leopard d'or, 1988.
(13) E Dunand, R. Lichtenberg, Les momies ....op. cit
(14) B. Brier, R. Wade, «The use of natron in Egyptian mummification: preliminary report», Paleopathology Newsletter] mv. 1995, (89), pp. 7-9.
(15) L. Millo, La mort chez les Egyptiens, These de docteur en medecine, Aix Marseille2, 1992, p. 94.
(16) J. Assmann, Images et rites de la mort dans l'Egypte ancienne, Paris, Cybele, 2000
(17) M. Bucaille, Les Momies des pharaons et la medecine, Paris, Seguier, 1987.
(18) J. Sluglett, «Mummification in ancient Egypt», West of England Medical Journal Dec. 1990, 105(4), pp. 117-119.
(19) T. A. Reyman, «Les momies egypuennes». La Recherche, 1984,14, 792-799.
(20) M. E. Salem, G. Eknoyan, «The kidney in ancient Egyptian medicine: where does it stand?», American Journal of Nephrology, 19(2), 1999, pp. 140-147.
(21) L. Millo, La mart..., op. cit.,p. 98.
(22) Herodote, Thucydide..., op. at.
(23) Diodore de Siciie..., op. at.

(24) Herodote, Thucydide..., op. at.
(25) M. Bucaille. Les Momies..., op. at.
(26) P. Morice, La gynecologic..., op. at., p. 28.
(27) L. Henrion, L'atherosclerose dans l'Egypte ancienne, These d'exercice de Medecine, Nancy 1, 1997, p. 95.
(28) D. Spaeth, Pneumologie..., op. at, p. 143.
(29) A.B. Granville, An essay on Egyptian mummies with observations on the art of embalming among the Ancient Egyptians, Philosophical Transactions of the Royal Society, 115, 1825, pp. 219-319.
(30) D. Revelat, Pensees et pratiques medicates de l'Egypte pharaonique, These, medecine, Nice, 1984.
(31) Cockburn, R.A. Barraco.TA. Reyman.W.H. Peck. Autopsy..., op. at., pp. 1155-1160.
(32) L. Balout, La momie..., op. cit..
(33) J. Thorwald. Histoire..., op. at., p. 33.
(34) J. Fodor.J.C. Malott, A.Y. King, The radiographic investigation of two Egyptian mummies, Radiologic Technolology Journal, juillet-aout 1983, 54(6), pp. 443-448; J.A. Bloomfield, «Radiology of Egyptian mummy», Australasian Radiology Journal, Fevrier 1985, 29(1), pp. 64-66
(35) R. Naguib. La medecine..., op. cit., p. 181.
(36) R.L. Moodie, Roentgenologic studies of Egyptian and Peruvian mummies, Field Museum of Natural History, Chicago, 1931.
(37) P.H. Gray, Radiography of ancient Egyptian mummies. Medical radiography and photography, 1967, 43, pp. 34-44.
(38) D. Brothwell, A. T. Sandison, Diseases in Antiquity:..., op. at.
(39) C. Faure, M. Bucaille, «Interet actuel de l'etude radiologique des momies pharaoniques», Annales radiologiques, 1976, vol 19,5 pp. 475-480.
(40) F. Dunand, R. Lichtenberg, Les momies et la mort en Egypte, op. cit.
(41) J.K, Thekkaniyil, S.E. Bishara, MA. James, «Dental and skeletal findings on an ancient Egyptian mummy. American». Journal of Orthodontics and Dentofaaal Orthopedics, Janvier 2000, 117 (1), pp. 10-14.
(42) H. De Bidart, Momification et paleopathologie des momies de l'Egypte ancienne. These de docteur en medecine, Nancy 1, 1998, p. 68.
(43) F. Dunand, R. Lichtenberg, Les momies ... op. at..
(44) Certaines momies, comme celle de Ramses n ou de Nakht-ROMI ont beneficie de cet examen.
(45) H. De Bidart, Momification..., op. at., p. 68.
(46) D.C. Harwood-Nash, «Computed tomography of ancient Egyptian mummies». Journal of Computer Assisted Tomography, Dec. 1979, 3(6), pp. 768-773.
(47) W.M. Pahl, Possibilities, limitations and prospects of CT as a non-invasive method of mummies in studies. Science in Egyptology, Manchester Ed. Longwood Pub.Group, 1986, pp. 243-249.

(48) T. H. Faike , M.C Zweypfenning-Snijders, R.C. Zweypfenning, AEJr James, «Computed tomography of an ancient Egyptian», Journal of Computer Assisted Tomography, Juillet-Aout 1987, 11(4), pp. 745-747.

(49) M. Marx, S. H. D'Auria. «CT examination of eleven Egyptian mummies», Radiographics, Mars 1986, 6(2), pp. 321-30.

(50) D. N. H. Notman, «CT of Egyptian mummies», Science in Egyptology, Manchester, Longwood Pub. Group, 1986, pp. 251-320.

(51) M. Marx, S. H. D'Auria, «Three-dimensional CT reconstructions of an ancient human Egyptian mummy», American Journal of Roentgenology,] wvier 1988, 150 (1), pp. 147-149.

(52) C. Baldock, S. W. Hughes, D. K. Whittaker, J. Taylor, R. Davis, AJ. Spencer, K. Tonge, A. Sofat, «3-D reconstruction of an ancient Egyptian mummy using X-ray computer tomography», Journal of the Royal Society of Medicine, Decembre 1997, 87 (12), pp. 806-808.

(53) B. Hill, I. Macleod, L. Watson, «Facial reconstruction of a 3500-year-old Egyptian mummy using axial computed tomography», Journal of Audiovisual Media in Medicine, Janvier 1993, 16(1), pp. 11-13.

(54) D. Spaeth, Pneumologie..., op. cit., p. 146.

(55) H. Piepenbrink,J. Frahm, A. Haase, D. Matthaei, «Nuclear magnetic resonance imaging of mummified corpses», American Journal of Physical Anthropology, Mat 1986, 70(1), pp. 27-28.

(56) Les essais de realisation de cliches par resonance magnetique nucleaire d'une momie egyptienne, Lady Tashat, du Minneapolis Institute of Arts n'ont pas ete concluants en 1983. Cf. D. N. H. Notman, J. Toskjian, A. C. Aufderheide, 0. W. Cass, «Modern imaging and endoscopie biopsy-technics in egyptian mummies», American Journal of Roentgenology, Janvier 1986, 146, pp. 93-96.

(57) G. Bon temps, La medecine..., op. at, p. 153.

(58) H. Gaafar, M.H. Abdel-Monem, S. Elsheikh, «Nasal endoscopy and CT study of-Pharaonic and Roman mummies>», Acta Otolaryngolica, Mars 1999, 119(2), pp. 257-260.

(59) Les premieres endoscopies ont etc realisees sur les momies au musee du Caire en 1975 par le Dr Mianalawy du departement de Medecine et d'Endoscopie de Fhopital Maadi du Caire (cf. M. Manialawy, R Meligny, «Endoscopie examination of Egyptian mummies». Endoscopy, 1978, vol. 10, pp. 191-194).

(60) D.N. Notman, J. Tashjian, A.C. Aufderheide, O.W. Cass, Shane OC 3rd, T. H. Berquist, J.E. Gray, E. Gedgaudas, «Modern imaging and endoscopie biopsy techniques in Egyptian mummies», American Journal of Eoentgenology, Janvier 1986, 146(1), pp. 93-96.

(61) N. Riad, La medecine..., op. cit., p. 183.

(62) S. G. Shattock, «Microscopic sections of the aorta of the King Menepath», The Lancet, 1919, 1, p. 319.

(63) M. A. Ruffer, Studies in the paleopathology of Egypt, Chicago, University of Chicago Press, 1921.

(64) T. Sandison, The histological..., op. cit

(65) T. A. Reyrnan, M. R. Zimmerman, P. K. Lewin...., art. cit.
(66) T. A. Chapel, A. H. Mehregan, T. A. Reyman, «Histologic findings in mummified skin», Journal of the American Academy of Dermatology, Janvier 1981, pp. 27-30.
(67) Perrin, V. Noly, R. Mourer, D. Schmitt, Annales de dermatologie et de Venereologie, 1994, 121(1-7), pp. 470-475.
(68) R. David, «Disease in Egyptian mummies: the contribution of new technologies» The Lancet, Juin 1997, 14, 349, pp. 1760-1763.
(69) H. De Bidart, Momification..., op. cit., p. 82.
(70) L. Balout, La momie de Ramses /..., op. cit.
(71) D. A. Birkett, C. L. Gummer, R. P. R. Dauber, «Preservation of the subcellular ultrastructure of ancient hair», Davidar, Manchester, Manchester University Press, 1986, pp. 113-118.
(72) M. K. Sandford, G. E. Kissling, «Multivariate analysis of element hair concentrations from a medieval nubian population» American Journal of Physical Anthropology, 95, 1994, pp. 41-52.
(73) A. R. David, 'Disease... art. cit.
(74) N. Moore, «Drugs in ancient populations», The Lancet, mai 1993 1, 341 (8853), p.1157.
(75) L. G. Boyd, «Les groupes sanguins chez les anciens egyptiens», Chronique d'Egypte, 23, 1937, pp. 41-44.
(76) La determination du groupe sanguin ABO chez une momie peut etre realisee aussi bien sur des echantillons de muscle quo de cheveu, de peau ou d'os.
(77) R. C. Conolly, «Kingship of Smenkare and Toutankhamon demonstrates serologically», Nature, Londres, 1969, pp. 325-326.
(78) J. D. lies, Autopsy of an Egyptian mummy, art. cit.
(79) R. L. Miller, S. Ikram, G.J. Armelagos, R. Walkker, W. B. Harer. C. S. Schiff, D. Baggett, M. Carrigan, S. M. Maret, «Diagnosis of Plasmodium fal-dparum infections in mummies using the rapid manual Parasight-F test>», Transactions of the Royal Society of tropical Medicine ›fb9 Hygiene, 88. 1994, pp. 31-32.
(80) R. A. Barraco, Paleobiochemistry, in Cockburn, Mumies, diseases and ancient cultures, Cambridge, Cambridge University Press, 1988.
(81) R. David, «Disease in Egyptian mummies: the contribution of new technologies» The Lancet, 14, 349 (9067), pp. 1760-1763.
(82) Marota, F. Rollo, «Molecular paleontology», Cellular & Molecular Life Sciences, 59(1), Janvier 2002, pp. 97-111.
(83) S. Paabo, «Preservation of DNA in Ancient Egyptian Mummies», Journal of Archeological Science, 12, 1985, pp. 411-417.
(84) S. Paabo, «Molecular cloning of Ancient Egyptian mummy DNA», Nature, Avril 1985, 314 (6012), pp. 644-645.
(85) R. E. M. Hedges, B. A. Sykes, The extraction and isolation of DAN from archeological bone in anthropology and study of ancient Egypt, London, British Museum Press, 1993.

٣ - تسلسل الزمن

تسلسل الصفات الخلقية للجنسين

صحة النساء

وصفت كريستيان ديروس - نوبلكورت على نحو يدعو للإعجاب مكانة المرأة فى المجتمع المصرى : "إن الصورة النسائية تترجم الحب، الأم، الندّابة (النحّابة)، تلك التى تستثير الرغبة، التى تهب الحياة، أو تسهر على الميت الراحل نحو أبديته. وفى أدوارها هذه، تبدو مرغوبة ومحترمة وحامية . وهى تجسد -أيا كانت- فتنة، وحاجة، وعزاء"(١).

زوجة وأم

إن اللوحات التى تبين المرأة المصرية فى صحبة زوجها فى مختلف المهرجانات والأعياد، تثبت الدور الحاسم الذى كانت تلعبه فى الحياة اليومية. ومع ذلك يصعب الحديث عن "المساواة بين الجنسين"، مثلما يذكر بيير جرانجيه: "إن المصريين القدماء لم يكونوا ملائكة، ولا شياطين، وإنما رجال، وباعتبارهم أفرادا، أظهروا نحو النساء المشاعر التى ألهمها ما يلهم للرجال فى كل الأوقات من الحب إلى الكراهية، من الرغبة إلى الغيرة ومن الاحترام إلى الاحتقار. ولكن على الرغم من إتقاد عواطفهم، فقد اعتبروا بوصفهم مجتمعاً، الأمومة مهمة مقصورة على المرأة، والزواج (بزوجة واحدة) المجال الممتاز لازدهارها"(٢). ومن ثم كانت صحة المرأة هى فى المحل الأول صحة زوجة وأم (مستقبلا)، وهما وظيفتان مترابطتان بصورة وثيقة لو آمنا بمقطع من كلام حكم آنى حول غاية الأسرة المصرية: "تزوج امرأة وأنت لا تزال شاباً، وستنجب لك ولدك. فهى تستطيع أن تنجب لك أطفالاً طالما كنت شاباً. إنها حكيمة فى إنجاب الأولاد. وهى فى (وضع) جيد لهذا، والرجل الذى له أولاد كثيرون: يكون مكرما بقدر عدد أولاده".

وكان على كل بيت، وإن كان يقوم أساسه على الاقتران بواحدة، رغم بعض حالات الزواج من امرأتين رسميا، أن يضم فى الواقع أطفالا كثيرين، يفضل أن يكونوا صبيانا، للاعتراف بمنزلته فى المجتمع وتفادى العار: والحالة العكسية كانت

تعتبر برهانا على الأنانية[٣]. وعلاوة على هؤلاء الأطفال، كان يضاف -عادة- الأبوان المسئولان من الأب (أم أرملة، أب مريض، شقيقة أصغر من أن تتزوج)، وكان المجموع يشكلون الأسرة المصرية كثيرة العدد التى نراها مصورة على الآثار الجنائزية.

ولود أم لا ؟

فى هذا السياق، كان العقم، الذى كان يعرض لخطر الطلاق[٤]، يعتبر نقمة إلهية تخشاها النساء الشابات لأقصى حد وتجأرن بالشكوى منها، وفى حالة حدوث مشكلة فى الحمل مثلاً، كان كل الذنب يلقى على عاتقهن، وإلا اعتبرت الآلهة مسئولة. وعلى سبيل الوقاية، كانت المراهقات تحملن أحزمة مزينة بتماثيل أولاد من الذهب عليها نقوش متكررة لقوقعة حلزونيات، وقواقع ترمز للفرج. وكانت هذه الملحقات (الإكسسوار) تستخدم أساساً داخل الأسر الميسورة الحال. ولكن كان يمكن شراء تمائم أخرى تمثل طفلا، امرأة حاملا، أو الإله بيس، قادرة على أن تجلب الخصوبة لمن يحملها.

وإذا كان العقم مؤكداً، كان السحر حينذاك يظل هو الملاذ الأخير. ولتشخيصه، كانت تستخدم وصفة أصلية تقدم بردية كاهون رقم ٢٨ تفاصيلها: "يجب أن تتركى طوال الليل فص ثوم مبللاً ... فى مهبلك (حرفيًا: "فى عضلاته") حتى الصباح. فإذا ظهرت رائحة فى فمها، فإنها ستحمل (بطريقة طبيعية)، وإذا [لم تظهر أى رائحة فى فمها]، فإنها لن (تحمل بطريقة طبيعية)، وعلى الدوام".

ويفترض الاختبار المعنى وجود استمرارية بين المهبل والجهاز الهضمى العلوى، وكان صعود الرائحة من عضو التناسل حتى فم المريض يؤكد أن المسالك (القنوات) خالية من العوائق. والواقع أن العقم فى المفهوم المصرى كان يعتبر انقطاعًا فى تواصل أعضاء التناسل مع باقى الجسم : ومن بين أسباب أخرى كانت صعوبة الحمل يمكن أن تنشأ عن انسداد هذه القنوات (مت). وشكلت هذه الفكرة وصفة، وفى أعقاب ذلك، أخذ العرب بهذا النص بصورة كاملة ومن قبلهم الإغريق الذين وسعوا نطاقها لتشمل تشخيص العقم فى كتاب أبقراط فى الفصل المعنون "عن النساء العقيمات"[٥].

ولد أم بنت ؟

كان فى مقدور المرأة الولود أن تضمن دورها كأم، وأن تبدأ فى حمل طفل. ولا ريب أنها تتقاسم هذه المهمة مع الأب، لكنها كانت تتقاسمها أيضاً مع الإله خنوم، الذى يتعاون بنشاط فى إنجاب الأولاد ويقوم فى ذلك بدور أساسى، وخلال حياة الجنين، كان النفس الدينامى للإله يختلط بدم الأم، وهو ناقل حقيقى للحياة، لربط النطفة التى كان يعتقد أنها مستخرجة من عظام الأب، وتشكل الهيكل العظمى للطفل(٦). وفى هذا المنظور الفلسفى والدينى، فإن الأم منوطة بالجانب غير المرتبط بالعظام. وفى رحمها أو موت رمتج (بعبارة أخرى "أم الرجال"(٧))، والذى كان المصريون يصفونه باعتباره عضواً غير مستقر فى مكانه بلا رباط، كان الهيكل العظمى يكتسى لحما فى تشكيل يحدده الأب؛ وكان يعتقد أن لبن الأم يدخل فى تكوين هذا الأساس، وهو نفسه منتج ينشأ من تسييل الأنسجة النسائية خلال الحمل.

وعند المصريين، فإن نوعية لبن الأم هذا على وجه التحديد هى التى كانت تحدد جنس الطفل: فاللبن الأفضل يعطى صبيًا صغيراً (ومن جانب آخر كان يدخل فى وصفات أدوية كثيرة تحت عنوان "لبن امرأة جاء للعالم بصبى"). وكان المصريون المهمومون بإنجاب ذرية من الذكور، يبذلون كل ما فى وسعهم لمعرفة جنس الطفل قبل ولادته. ولتحديد ذلك، كان يمكن مثلا أخذ "شعير ، وقمح نشوى، تقوم المرأة ببله ببولها كل يوم، وكذلك بلح ورمال (موضوعة) فى كيسين (منفصلين). فإذا نمت معا فى مجموعها (كما تفعل عادة)، فإنها ستحمل بطريقة طبيعية. وإذا نما الشعير (وحده) (إذا كان الشعير هو الوحيد من نوعى الحبوب الذى نما جيدا)، فإن هذا يعنى طفلاً ذكرا. وإذا نما القمح وحده (إذا كان القمح هو الوحيد من نوعى الحبوب الذى نما جيداً)، فإن هذا يعنى فتاة. وإذا لم ينم النوعان، فإنها لن تحمل "بطريقة طبيعية"(٨).

ما هو المبدأ الذى أوحى بهذا الاختبار الغريب؟ يصعب القول، هناك تفسيران لغويان، فى البدء: أحدهما يقوم على تطابق طريقة كتابة كلمتى "أب" و"شعير" (وكلاهما ينطقان "جت" باللغة المصرية)، ومن ثم على التطابق بين الحبوب وجنس الذكور؛ والثانى الذى قدمه جرابو(٩)، يقوم على حقيقة أن الشعير فى اللغة المصرية جنسه

مذكر، والقمح جنسه مؤنث. وأخيرا، هناك افتراض ثالث، قدمه ثوروالد[١٠]، يعطى لهذه الوصفة أصلا براجماتيا. وهكذا أثبت جوليوس مانجر، وهو باحث فى مختبر معهد فورتزبورج للفارماكولوجيا، فى ١٩٣٣، وجود اتساق فى النمو الثابت للقمح الذى ينمو على بول امرأة حامل بصبى وإنبات أسرع للشعير فى حالة ما يكون الطفل الذى سيولد بنتا. وفى ١٩٦٣، أوضحت دراسة أخرى مثيرة للاهتمام من جانب آخر أن حبوب القمح والشعير المرويّة ببول امرأة حامل تنبت فى ٤٠٪ من الحالات[١١]. ويمكن أن نتساءل عما إذا كان هذا يعنى أنه جاء صدفة أو نتيجة لروح الملاحظة لدى المصريين.

١٠ شهور حمل

يتضمن نصان من العصر الرومانى عثر عليهما فى معبد إسنا، تحديداً مدهشاً لتسلسل الحمل نفسه حيث إنهما يذكران احتياجات الجنين طوال "١٠ شهور"[١٢]. كيف يمكن تفسير مدة الحمل الطويلة هذه؟ هل ينبغى الظن بأن بدايته كانت تشخص بطريقة الصدفة والاتفاق؟ من المؤكد، أننا لا نعرف حقًا ما إذا كان المصريون يعتبرون انقطاع الطمث (توقف الدورة) علامة واضحة على الحمل[١٣]. لكن التشخيص كان يقوم على فحص يقظ للجلد، والثديين وشبكة الأوردة، مثلما ذكر فى بردية برلين رقم ١٩٦ وفى بردية كاهون رقم ٢٦[١٤] : كثير من البيانات التى أخذها أبقراط نفسه ووصفها فى أقواله المأثورة (القول المأثور خامسا، ٣٧ ، ٥٢ ، ٥٣ والقول المأثور خامساً، ٤٢). ومن ثم، فإن مدة الحمل الباعثة على الاندهاش يمكن تبريرها بطريقة أخرى، إذ يمكن ببساطة تبريرها ... بالتقويم : فقد كان المصريون يحسبون الزمن المنقضى بالشهور القمرية (٢٨ يومًا) وكانوا يعتبرون الشهر الناقص شهراً كاملاً.

ومن ثم، كانت المرأة الحامل تقترب فى نهاية هذه "الشهور العشرة" من الموعد المحدد. وعلى سبيل الحماية، كانت ترتدى طوال مدة حملها حول عنقها أو خصرها، تمائم، وعاجًا سحريًا وغيره، مما يمثل الآلهة مثل بيس وتويريس وأنوبيس، مصحوبة بصيغ سحرية للحماية. كما كان يتعين عليها فى النهاية أن تصنع تماثيل صغيرة

للآلهة تويريس لكى تضم إليها قطعًا من ملابسها. لكن ألم يكن للحمل عواقب على صحة الأم والطفل؟ لكى يتم التأكد من ذلك، كان يتعين التحقق من حيوية المرأة الحامل، وفحص حالة مسالكها (مت) فهذه هى فى الواقع التى يتم من خلالها مرور النفس الإلهى، الوحيد القادر على إبقاء الجنين على قيد الحياة، مثلما تبين هذه البردية[١٤]، وهى تصف فحصا يمكن أن يتطابق مع أسلوب قياس النبض الذى نعرفه "هناك (طريقة) [أخرى] للفحص. عند استلقائها ادهن صدرها وذراعيها حتى الكتفين بشحم زيت جديد. واستيقظ صباحا لترى هذا. فإن رأيت أن مسالكها (مت) متصلة وسليمة، بدون إجهاد فإن الحمل هادئ ومستقر. وإن رأيت أنها منحطة القوى ولون جسدها السطحى الخاص(؟)، فإن هذا يعنى الإجهاض (؟) وإذا رأيت أنها متكاملة (بين الليل) و (لحظة) فحصها فإن الولادة ستتأخر".

وهناك طريقة أخرى لتحديد التشخيص، وردت فى بردية كاهون ٢٩ (٣، ١٩ - ٢٠)، التى تستند إلى إعادة تلوين الجلد: "يتعين عليك أن تزم البطن، مع وضع طرف (؟) إبهامك تحت جنينها (مينا)، وتعنى حرفياً "ذلك الذى يخفق قلبه"). [فإذا] [...] اختفى (إذا اختفت العلامة) [فإنها ستلد (بطريقة طبيعية)] و [إذا] لم يختف، فإنها لن تلد (بطريقة طبيعية) وعلى الدوام.

ناهيك عن العلامات المختلفة التى تتيح للطبيب التنبؤ بولادة طبيعية والتى نجدها فى نفس البردية : ويتراوح هذا من صلابة الصدر إلى قىء المرأة الحامل الممزوج بثمالة البيرة - عدد مرات القىء يطابق عدد الأطفال الذين ستلدهم...

كيفية التوليد

إن عملية التوليد نفسها خليط من الممارسات الدينية والسحرية، والتقنيات الطبية[١٦]. ففى البداية، وخلال فترة الأسرة السادسة، كانوا يقتصرون على تركيب مقعد (كرسى) مصنوع بطريقة بدائية، المسخن، يتكون من ثلاثة قوالب طوب يتم التحايل من بينها لإخراج المولود الجديد[١٧]. وابتداء من الأسرة الثامنة عشرة، حل مقعد حقيقى للتوليد محل تلك التقنية البدائية[١٨]، أو استخدمت كذلك مقاعد منخفضة

تتمتع بمزايا معينة. (كان وضع رأس الطفل لأسفل يعتبر طبيعيًا مثلما تشهد عليه الكلمة الهيروغليفية التى تعبر عن الولادة: كانت تبين رأس وذراعى الجنين يخرجان من البطن[١٩]). ومن ثم كانت الولادة تتم دوما فى وضع القرفصاء.

لكن التفسير الرمزى للمولد أثَّر أيضًا بصورة كبيرة على تنظيم عملية الولادة. إذ كان الرجال يستبعدون، ويأتى عدة نساء مع القابلة ليستقبلوا الكائن الجديد الذى أبدعه الإله الخزّاف خنوم، ويحللن بصورة رمزية محل الإلهات الحاميات، وكانت امرأة أولى تومئ للآلهة نفتيس، تقف خلف المرأة الماخض لكى تمسكها فى وضع قائم أثناء عملية الولادة. وكان يتعين على امرأة ثانية تشجيعها على دفع المولود وتأخذ مكان الآلهة حكت. وكانت امرأة ثالثة تكلف باحتواء الطفل عندما يخرج وتتلقاه مقلدة حركات إيزيس. وفى صحبتهن، كانت أم المستقبل تردد عندئذ صلوات لجلب رعاية خنوم، متضرعة لشو، ممثل العنصر الحيوى الذى يشهقه المولود الجديد، وشكل آمون، المسمى بالرجل: "أيتها النساء الحوامل، اخشين خنوم، الذى يجعلكن تكملن مدة حملكن، لأنه هو الإله شو إله المولد الذى يفتح شفرى العضو النسائى ويكفل المولد فى شكل آمون الذى يتخذه".

ولم تكن المرحلة الأخيرة من المخاض ترمز لنهاية عملية الولادة. إذ تبقى عملية إخراج المشيمة: "التى كانت تعتبر الأخ التوم للمولود الجديد، وكانت تحظى بقيمة رمزية كبيرة. وبهذه الصفة، كان يتم دفنها فى حديقة المنزل، أو يتم الاحتفاظ بها فى عناية، لتشفى الطفل من الأمراض وتقى من الكوارث الأكبر.

وأخيرًا، كانت المرأة تخضع لفترة "تطهر" لمدة أربعة عشر يومًا، خارج مسكنها، فى طقس مماثل لطقوس العبرانيين مثلما ورد فى سفر اللاويين (الإصحاح ١٢، ٢ – ٥) : "إذا حبلت المرأة وولدت ذكرا، تكون نجسة سبعة أيام ... وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين...".

ومع ذلك، لم تكن كل عمليات الولادة بمثل هذه السهولة التى قد يجعلنا هذا الملخص نظنها، فقد كشفت لنا مومياوات معينة أن الأمور قد تأخذ مسارًا دراميًا. وهكذا، فإن جثة حينتت، زوجة منتوحتب، وكان حوضها ضيقًا للغاية، تحمل أثر شق

فى الفرج بطوله كله، مصحوباً بناسور فى المثانة والمهبل. والأكثر إثارة للدهشة أيضاً، أن مومياء امرأة ماتت أثناء الولادة، وجدت ممددة على ظهرها والفخذان متباعدان والركبتان مثنيتان: ومات مولودها الجديد، وكانت الرأس محطمة.

وللتشجيع على الولادة وتخفيف تأثير عمليات الولادة الصعبة، كان المصريون يستخدمون محاليل مختلفة: فعلاوة على قطعة الملابس التى كانت توضع على تمثال صغير يمثل تويريس، كان يمكن تناول مستحضر خلال العملية أو بعدها: " دواء آخر لتشجيع المخاض (يشجع على ولادة طفل يوجد داخل جسد امرأة) ، ملح بحرى ١ ؛ قمح نشوى: ١ ؛ سمار أنثى (مجوفة) (؟) ١ غطى البطن السفلى بهذا[٢٠]". وأخيرا كانت هناك أدوية أخرى تيسر إخراج المشيمة : "دواء لإنزال المشيمة من امرأة من مكانها الطبيعى نشارة شجر التنّوب. ويوضع هذا فى راسب سائل. ادهن قالب طوب مغطى بقماش. وعليك أن تخرجها وهى جالسة على ذلك[٢١]".

المواليد الجدد

رغم غسل الرضيع وتجفيفه ووضعه فى سرير من قوالب الطوب، كان يظل معرضا للخطر. وكانت تتم مراقبته فى اللحظات الأولى من حياته لتقييم مقاومته، والتى كان يتم تدعيمها فوراً بطقس سحرى يضمن حمايته، قبل اختيار اسمه والتنبؤ بمستقبله. وكانت أوجه الرعاية الأولية الطبية والرمزية التى تبذل له هى إرضاع الأم له. فذلك مصدر أساسى لحيوية الرضيع، يضمن له نموا جيدا خلال السنوات الثلاث الأولى من حياته.

الرعاية الأولية، الطقوس الأولية

مع إتمام عملية الولادة، لا تزول كل المخاطر التى تهدد المولود الجديد، فوفيات الأطفال الرضع، الكبيرة جدا، كانت تتراوح بين ٢٠ و ٥٠ فى المائة خلال السنة الأولى من عمرهم، إذا صدقنا فى ذلك دراسات معينة[٢٢]. ومن ثم كان المواليد الجدد

"يخضعون لعناية فائقة، سواء لتقييم مقاومتهم أو لحمايتهم فيما بعد، حتى وإن لم يتوج الجهد دائمًا بالنجاح. يشهد على ذلك، العديد من المواليد الجدد والرضع المدفونين فى اللاهون أسفل المنازل القديمة. بعضهم فى توابيت حجرية مغطاة بألياف الكتان مزخرفة فى المناسبة ومزينة بتمائم حامية.

ومن ثم، لا صعوبة فى إدراك أن المولود الجديد كان يخضع لفحص دقيق منذ الساعات الأولى له. وكانت التكهنات بطول العمر التى توضع فى يوم المولد تستند إلى معايير مختلفة. وكان البعض يلجأون إلى علامات لا تزال مألوفة لدينا، مثل تشخيص حالة طفل مولود حديثًا بأنه بكاء، أو ناقص التوتر، ووجهه متجها لأسفل. "هناك محدد آخر. إذا سمعنا صوته شكاء، فهذا يعنى القول إنه سيموت. وإذا اتجه بوجهه نحو الأرض، فهذا يعنى أيضًا أنه سيموت"(٢٣).

وهناك محددات أخرى تستند إلى المبادئ الخاصة بالطب المصرى، مثل تكامل المسالك (مت)، وذلك أمر حاسم بالفعل أثناء حمل الأم وولادتها. والطفل المولود حديثًا الذى يتقيأ المشيمة، وهى رمز رائع للتغذية، عرضة أيضًا لرفض الحياة: "هناك شىء آخر يجرى له فى اليوم الذى يجىء فيه به للحياة: كرية صغيرة جداً من مشيمته، مع [...] وضع (هذه) فى اللبن وتعطى له من وعاء (حنو). فإذا تقيأ هذا، فإنه يعنى القول بأنه سيموت. وإذا [ابتلعها] فإن هذا يعنى القول إنه سيعيش..."(٢٤).

وأخيراً، فإننا نجد فى هذا أشياء لا تزال غامضة فى رأينا، دون أن يمكن تقديم أى تفسير رشيد لها حتى الآن: "أمر آخر. لتحديد مصير الطفل فى اليوم الذى يجىء فيه به للعالم. إذا قال ناى، فإن هذا يعنى القول بإنه سيعيش، وإذا قال أمبى، فإن هذا يعنى القول إنه سيموت(٢٥)"، حتى وإن كنا نعرف أن ترجمة ناى وأمبى على التوالى هى "نعم" و"لا".

وبعد إجراء التشخيص الحيوى، كان المواليد الجدد يحظون بعناية قيّمة من قبل المحيطين بهم لحمايتهم من القوى المشئومة فى الأرض والسماء. إذ كان يمكن مثلا "صنع (تميمة) للحماية الفردية للطفل فى اليوم الذى يجىء فيه للعالم : [...] كرية صغيرة جداً من الغائط توضع على هذا، منذ أن ينزل (الطفل) من بطن أمه [...]"(٢٦).

ولكن الرقيات كان يمكن أن تفى بهذه المهمة. ويرد ذلك فيما يلى، وبالطبع كانت ترددها الأم ومساعداتها فى الولادة، وهـدفها المعلن هو طرد الأرواح الشـريرة ، لكن لا شىء يحول دون الاعتقاد، اتفاقًا مع رأى كريستيان ديسروس - نوبلكورت، بأن تلك الصلوات تؤثر أيضا على الأم الشابة وتهدئ قلقها، الضار بعملية الرضاعة:

"إن حمـــايتك هى حمـــاية من السماء [...] ومن الأرض [...] ومن اللـيـل [...] ومن النهار [...] .

إن حمايتك هى حماية الذوات الإلهيـة السبع، الذين أشـاعوا النظام فى الأرض عندما كانت قفراً؛ ووضعوا القلب فى مكان جيد .

[...]

ليحمى كل إله اسمك،

وكل مكان توجد فيه،

وكل لبن تشربه،

وكل ثدى ترضعه،

وكل ركبة تجلس عليها،

وكل ملابس ترتديها،

وكل مكان تقضى فيه يومك،

وكل حماية تلفظ من أجلك،

وكل شىء تنام عليه،

وكل عقدة تعمل لك،

وكل تميمة توضع حول رقبتك،

تحميك، بنفسها،

تحفظك فى صحة جيدة، بنفسها،

تبقيك سالمًا، بنفسها،

تهدئك، بنفسها، كل إله وكل إلهة

لتختف (أيها الشيطان) الذى يأتى فى الظلمات، والذى يدخل رياء،

أنفك خلفك، والوجه ملتفت للوراء، ولكن ممن ستهرب هذا هو ما جئت من أجله!

لتختف (يا شبح الأموات) الذى يجىء فى الظلمات، ويدخل رياء،

أنفك خلفك، والوجه ملتفت للوراء، ولكن ممن ستهرب هذا هو ما جئت من أجله!

هل جئت لتعانق هذا الطفل ؟

لن أسمح لك بمعانقته.

هل جئت لتخمده ؟

لن أسمح لك بإخماده.

هل جئت لتؤذيه ؟

لن أسمح لك بإيذائه.

هل جئت لتأخذه ؟

لن أسمح لك بأخذه." (مأخوذ من بردية برلين ٣٠٢٧).

ولم يتم تناسى الأطفال المبتسرين، والمعرضين لوفيات الأطفال وهم رضع بصفة خاصة. وهناك صيغ سحرية فى بردية برلين ٣٠٢٧ مكرسة لهم خصيصا: "رقية للمرأة تعيسة الحظ التى تلد قبل الأوان.

السلام لك (أبناء الكتان السبعة) التى نسجت بها إيزيس وفتلت نفتيس عقدة من النسيج الإلهى مكونة ٧ عقد. وهى ستحميك، أيها الطفل!

(من الآن فصاعداً) تكون معافى، يا ابن مثل هذه (الآلهة) سيجعلك مُعَافًى، سيجعلك سالمًا، سيجعلك ملائمًا لكل الآلهة، ولكل الإلهات، وسيهزم عدوك، من يعاديك، وسيغلق فم من يريد بك شرا (؟) مثلما تم قفل الفم، مثلما تم سدّ فم ١١٧ حماراً كانوا فى بحيرة ديدس. إننى أعرفهم، منذ ذلك الوقت أعرف أسماءهم، ولكن أولئك الذين يريدون الأذى بهذا الطفل حتى يصير مريضًا ليسوا معروفين... ينبغى ترديد هذه الرقية

٤ مرات على ٤٠ لؤلؤة مستديرة، ٧ أحجار زمرد، ٧ قطع من الذهب، ٧ خيوط من الكتان المنسوج المغزول، من قبل شقيقتين من رحم واحد (مثل إيزيس ونيفتيس) ، الأولى تغزل والثانية تنسج. لتعمل من هذا تميمة من ٧ عقد وتوضع حول رقبة الطفل ، وسيكون ذلك حماية لجسده".

وفيما يلى مرحلة أخيرة وحاسمة فى الرعاية التى تبذل للطفل المولود حديثًا والتى تستهدف ضمان سلامته: اختيار الاسم، الذى يسجل علامات صحة بادية. ولإعطائه هذا "الاسم الكبير" أو "الاسم الحقيقى"[٢٧]، كان الأبوان يأخذان باسم إلهى أو ملكى معدل، فعلاً أو صفة.

وكان هناك حل آخر: تسمية الطفل حسب اسم إله تذكره الأم نفسها، فى لحظة الولادة أو عقب حلم. وحسب هذه القاعدة، تذكر الأسطورة أن اسم أحد الأطفال الملكيين كان ينطق فى لحظة الجماع، أو تلقنه الإلهات اللاتى يحضرن الولادة للملكة الشابة.

ثلاث سنوات رضاعة

"ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك، احملها كما حملتك. فقد تكفلت بك فى أغلب الأحوال ولم تتخل عنك عندما ولدت بعد مرور شهورك. لقد ثبتت ثديها (لتمسكه) فى فمك خلال ثلاث سنوات بمثابرة وصبر...". إن هذا القول المأثور لآنى[٢٨] يتحدث طويلاً عن الرعاية التى كانت الأم المصرية تقدمها لرضيعها، حتى تغذيته من ثديها خلال السنوات الثلاث الأولى من عمره. وكانت بصفة عامة تحتفظ بالطفل بالقرب منها طوال اليوم فى خرج مربوط برقبتها. يشهد على ذلك كثير من التماثيل والنقوش قليلة البروز، التى تصور امرأة جالسة على الأرض، ركبتها مرفوعة، ترضع مولودًا حديثًا أو يجلس عليها فى الغالب الأعم صبى صغير. بل وتظهر فيها الإلهات أنفسهن، عادة إيزيس، وهن يعطين أثداءهن لطفلها أو لفرعون، ويفسر هذا المثال الإلهى والدور الحاسم للرضاعة بلا شك، الامتنان الذى كانت تبديه الأسر الميسورة للمرضعات اللاتى تعهد إليهن بأطفالها مثل حتشبسوت الموقرة فى معبد هاتور فى الدير البحرى. والواقع،

أن هذه التغذية الطبيعية لأقصى حد، كانت تتيح مكافحة الكساح بصورة فعالة، لدرجة أنها كانت تسهم، فى حدود معلوماتنا على الأقل، فى جعله غير موجود من الناحية العملية(٢٩).

كما كان يتعين ضمان تدفق ونوعية لبن الأم خلال هذه السنوات الثلاث الطويلة، الحاسمة لبقاء الرضيع على قيد الحياة ونموه، ولحفز إدرار اللبن، كان الأطباء المصريون يستخدمون ممارسات سحرية، بواسطة كمية كبيرة من التمائم، أساسا على صورة تويريس، الإلهة التى تتخذ صورة فرس النهر، مصحوبة برقيات وصيغ مختلفة. وكانت تُصنع أيضا تماثيل صغيرة مجوفة ربما تكون مملوءة باللبن: وكان اللبن ينساب منها من إحدى الحلمات المحفورة ويشجع على الرضاعة بصورة رمزية. وإزاء هذه الوصفات التى تكمل هذه الممارسات، يمكن التساؤل عن فاعلية سيكولوجية هذا النوع من العلاج: "لإعادة اللبن إلى مرضعة ترضع طفلا: خذ السلسلة الشوكية لظهر سمكة مقاتلة. ويتم غلى (هذا) فى دهن زيت وادهن بهذا ظهرها." ويمكن أيضا استخدام دواء قاعدته "الخنمت" (الخبز) المصنوع من الشعير التالف، خبز يكون قد أعدت نيران (إنضاجه) من النباتات (خيساو). وتتناول (هذا) المرأة التى تنهار ساقاها (؟)"(٣٠) بعبارة أخرى المرأة الضعيفة.

يبقى بعد ذلك رقابة جودة اللبن. وفى هذا المجال، كان المصريون يبدون متزمتين، لأنهم كانوا يعتبرونه ناقلاً محتملاً للأمراض: "فحص اللبن الردىء (حرفيًا : معرفة اللبن الفاسد): "يتعين عليك فحص رائحته الشبيهة بنتانة السمك" على العكس تمامًا من اللبن الصالح للتناول الذى "تشبه رائحته رائحة كشاطة الساق الأرضية لنبات السُعد الصالح للأكل"(٣١).

ومن ثم، كانت صحة الأم الجيدة، التى تتم حمايتها من مختلف تلوثات وأمراض الثدى (الشقوق، والالتهابات، والاحتقان)، هى التى تضمن صحة الرضيع. والواقع أن المصريين كانوا يعتقدون أن أمراض الثدى هذه، إضافة إلى تسببها فى التوقف الصرف والمجرد لإدرار اللبن وفى حدوث نتائج مأساوية بالنسبة للنمو، يمكن أن تغير نوعية السائل وتنقل مواد ضارة للطفل. وللوقاية منها، ليس هناك أفضل "من رقية الثدى لطرد الشياطين عنه" :

"هذا هو الثدى الذى وصل لإيزيس فى المستنقع عندما جاءت للعالم بشو وتيفنوث، وهذا هو (الثدى) الذى رقته من أجلهما بالنبات (أيار)، بثمرة نبات (سينب) وبجزء (بيكات) من نبات السمار، بشعر (ألياف) من جزء سنه (اب) (الجزء الداخلى من نبات السمار)، (كل هذا) الذى تم إعداده لطرد عمل المتوفى، والمتوفاة وهكذا دواليك. ويتم إعداد هذا فى شكل رباط يلف إلى اليسار ويوضع على (مكان) عمل المتوفى، المتوفاة (مع ترديد الكلمات التالية) : "لا تستثر الإفراغ! لا تضع مواد تنخر! لا تنتج دمًا ! احرص على ألا تنمو (ضدك) (مواد مؤذية تجعل) الظلمة (تزداد) ضد البشر." ويتم لف الرباط فى اتجاه اليسار، وتعمل فيه سبع عقد. و (هذه) ستكون عقدا. وسيطبق (هذا) على ذاك"[٣٢].

وإذا وقع الشر، فها هى وصفة لبخة أساسها حجر التوتياء، وهى مادة ناتجة عن تأكسد المعادن. تستخدم كثيرا لعلاج التهابات الأغشية المخاطية أو الجلد: "علاج آخر للثدى المؤلم: حجر التوتياء : ١، ومرارة ثور : ١، وسلخ (براز) الذباب : ١، وطين أحمر : ١ . ويعد (هذا) فى كتلة متجانسة. ادهن الثدى بـ (هذا) أربعة أيام متوالية[٣٣]".

ورغم كل هذه الاحتياطات، كان يمكن أن يبدى الطفل نفسه عزوفا، ويرفض الثدى، ويسعى بهذا إلى هلاكه. وفى هذه الحالة، يستغل الطبيب أيضا موارد السحر لإقناعه بأن يشرب: "حورس يبلع وست يمضغ [...] ، بل واستهدفت وصفات طبية معينة "كتم عطش الطفل": "يرتفع جوعك عن طريق [...] وعطشك [يرتفع] عن طريق أجيب-أور، حتى السماء. أيها العصفور (باخ) عطشك فى قبضتى، وجوعك فى مخلبى [...] . البقرة حيسات (مت؟) ثديها فى فمك. فمك مثل منقار العصفور (خابيو) على فوحان عطر أوزوريس (الذى يخرج من الجسم). لن تأكل جوعك، لن تشرب [عطشك] [...]، حلقومك لن يصبح فاقدا للحس. ويردد رجل هذه الرقية على قرص (؟) من الطين. موضوع على رباط من الكتان [...] موضوع فى شكل (؟) [...]"[٣٤].

وكملاذ أخير، كان المولود الجديد المحروم من لبن الأم ومن خدمات مرضعة، تتم تغذيته بلبن بقرة[٣٥]. ولكن لا يوجد أى مشهد للرضاعة الصناعية. ومع ذلك يفترض أن قرون البقر المحفورة والأوعية التى تتخذ مظهراً إنسانياً أو إلهياً فى شكل امرأة أو إلهة جاثية، وطفل على الركبة، كانت تملأ باللبن لتقوم مقام زجاجة الرضاعة.

مصادفات الطفولة

لم يكن الاهتمام المبذول للطفل ينقص على مرّ الزمن، إذ كان الطفل بعد فطمه، يظل موضع عناية مستمرة: "إن حب الأطفال أحد السمات المميزة للمصريين وهم لا يتركون فرصة للإسراف فى تدليله، بل ويمكن القول إن ذلك كان يتم أحيانًا بتفاخر ومباهاة"[٣٦]. إن الرضاعة الطويلة التى يحظى بها الأطفال تكفل لهم حماية نسبية ضد أمراض الجهاز الهضمى الميكروبية، وكان التوازن فى تغذيتهم، كما وصفه ديودور، يستمر بعد الفطام: "إنهم يغذونهم بصورة خفيفة جدا، بنفقة قليلة. وكان طعامهم بسيطًا وخشنًا واقتصاديًا، يتكون من لب البردى المطهى تحت الرماد، وجذور وسوق بعض النباتات المائية، نيئة، أو مسلوقة أو مشوية. ولما كان الأطفال لا ينتعلون أحذية ولا يرتدون ملابس، بسبب لطف المناخ، فإن مجموع النفقات التى كان الأبوان يتحملانها لم تكن تتجاوز عشرين دراخمة للطفل. وهذا التقشف هو السبب فى كثرة سكان مصر"[٣٧].

ومع ذلك، كان أطفال مصر القديمة يظلون معرضين للإصابة بأمراض مختلفة، تتراوح من الكحة البسيطة إلى مرض غريب، لم يتحدد حتى يومنا هذا، مرورًا بمتاعب فى مجرى البول، وبثرات جلدية والزكام. وكان فى مقدور عدد من الأدوية أن يعالج الكبار والصغار[٣٨]. وكانت تهدئة أزمات الألم البسيطة يمكن أن تبرر اختراع وصفة مكرسة خصيصا للأطفال، مثل تلك التى كان أساسها نبات "شبتن" الذى يماثل الخشخاش، وهو مخدر ومسكن مشهور : "علاج للتخلص من الأزمات المتكررة (عشاو): جزء (شنبو) من النبات (شبتن)، سلح الذباب من على الحائط. ويعد (هذا) فى كتلة متجانسة ويرشح، ثم يبلع أربعة أيام متوالية. وسيتوقف (ذلك) تمامًا. أما بالنسبة لكلمة عشاو، فهى تنصرف إلى الطفل الذى يبكى (باستمرار)[٣٩].

التبول فى السرير ، والأسنان الأولى

فيما يلى دواء أساسه الخزف وحجر شبه كريم من النوبة "تيجيهنت" يعد علاجا لمرض من أمراض الأطفال يمكن أن يكون مألوفا لنا فى وقتنا الحاضر: "ينبغى إعداده

للطفل الذى يعانى من سلس البول: اغلِ التيجيهنت واجعله فى شكل كرية صغيرة. فإذا كان الطفل كبيراً (بالفعل)، فإنه يمضغها كما هى ثم يبلعها. وإذا كان لا يزال فى اللفة، فإن مرضعته تهرس هذا فى اللبن، ويرضعه أربعة أيام متوالية"[٤٠]. ولكن ليس هذا هو علة المسالك البولية الوحيدة التى كانت تظهر لدى الأطفال. ففى نفس البردية، وفى مقطعين قبل ذلك، يرد ذكر "تكدس قدر كبير من البول" والذى على العكس من ذلك قد يتطابق مع حالة احتباس البول. "وهناك (دواء) آخر لجعل الطفل يفرغ تكدس البول داخل بطنه: ورق بردى مستعمل. يتم غليه فى الزيت ويدهن جسده (به) حتى يصبح تبوله طبيعياً".

وإضافة للمستحضر نفسه، الذى يوضع على بطن المريض الشاب، لا شك أن تدليك البطن كان يحفز تسبيب البول عن طريق التنشيط الميكانيكى. ولكن علاج الطفل لا يكفى، إذ كان يجب أيضاً الاعتناء بالأم، التى تعتبر مسئولة عن متاعب التبول لدى سليلها : "(علاج) آخر، لجعل بول الطفل طبيعياً : اللب الذى فى البوص. يتم سحقه فى إناء (خاو) من البيرة الخفيفة، حتى تصبح سميكة. وتشربه المرأة (المرضعة)، ويعطى (منه) أيضا للطفل فى إناء (حنو)"[٤١].

وهناك شاغل آخر: هو ظهور الأسنان الأولى. ففى مصر أيضاً، تلعب "الفأرة الصغيرة" دورها، لكنه دور بعيد عن أن يكون رمزياً محضاً، وهذا على الأقل ما يفترضه ليفبر الذى يردد فى الوصفة التالية ما كان يخفف عن صغار المصريين القدماء عندما تبزغ أسنانهم الأولى : كانوا يطعمون الطفل وأمه فأرة مطبوخة. وتوضع عظام هذه فى عنقه فى قماشة من الكتان الرقيق وتعمل (فيها) سبع عقد"[٤٢].

والفئران شائعة فى الطب المصرى، فهى تظهر بصورة كلية أو جزئية، فى شكل عظام أو دهن، فى مراهم مقاومة الآلام الروماتيزمية أو لعلاج الجلد المشعر. ولكن يبدو أن هذا الدواء بصفة خاصة، قد حقق نجاحاً ما. ولإثبات هذا، نقول إن عظام حيوان قارض، وجدت فى القنوات الهضمية لعدد من أطفال مدفونين فى مقبرة من فترة ما قبل الأسر[٤٣]. وللغرابة، سنشهد من جديد تداول هذا العلاج الذى أساسه الفئران من القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين، فى شكل مستخلص بالغلى فى حالة عدم اتساق البول ومتاعب الأسنان والسعال الديكى[٤٤].

متاعب الأنف والأذن والحنجرة ، أو الفتحات السبع

إذا ما سلمنا بفقرة فى بردية إيبرز، فإن نظامنا للأنف والأذن والحنجرة كان يتفق مع ما كان لدى قدماء المصريين من رؤية شاملة للفتحات السبع فى الرأس: المنخارين، العينين، الأذنين، الفم. ومن بين مختلف الأمراض التى يمكن أن تحل بهذه المجموعة الجميلة، يصف النص أحدها، والذى كان جد قريبا من التهاب الجيوب الأنفية الحالى لدينا، وكان يتم الاعتناء به بفضل مستحضر أساسه الصمغ وترديد التعويذة السحرية التالية: "يا خدم رع وعبدة توت. انظروا! لقد جئت بالدواء الذى يخصك، ضدك، الجزء الذى يخصك وضدك، ضدك: لبن امرأة جاءت للعالم بطفل ذكر، وصمغ معطر. ذلك سيطردك ! ذلك سيجعلك تهرب! ذلك سيطردك! انزل حتى الأرض، تحلل (أنت)، تحلل (أنت). (تقال) أربع مرات كلام يقال أربع مرات على لبن امرأة جاءت للعالم بطفل ذكر (وعلى) صمغ معطر. ويوضع (هذا) فى "الأنف"[٤٥].

وتذكر هذه البردية نفسها الزكام، بأسمائه المختلفة: الرشح (خنت)، نتيجة تحلل مادة مسببة للمرض تسمى ستيت، رشح (ريش) له طبيعة مماثلة، ورشح (ينا) أصله غير معروف حتى الآن. وكان لدى الطبيب دواء لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة:

"للتخلص من الرشح (خنت) الذى يوجد فى الأنف: خام الرصاص : ١ ؛ خشب منتن : ١؛ لبان جاف : ١؛ عسل : ١؛ خضّب الأذن (بهذا)، أربعة أيام متوالية. افعل ذلك! وسترى! ذلك رائعًا حقًا.

"دواء للرشح (ريش): عرق بلح. املأ فتحة (الأنف)".

"(دواء) آخر للتخلص من الرشح (ينا) الذى يوجد فى الأنف : نبات (نيايا). يسحق (هذا) مع البلح ويوضع على الأنف"[٤٦].

وهناك أمر أكثر إثارة للاهتمام تجاه طفل يشكو من ألم فى الأذن وأصيب بلا ريب بالتهاب فى الأذن الوسطى، وردت حالته فى بردية برلين فى فصل "الأذنين" (٢٠٠ إلى ٢٠٠٤)، نشاهد تبدى موقف علاجي حقيقي، يتكيف مع مرحلتين من مراحل تطور المرض الثلاث، التى يمكن تشخيصها.

فى المرحلة الأولية، تعالج الأعراض الأولية لالتهاب الأذن الوسطى، المتسم "بإحساس بثقل الأذن"، حسب البروتوكول الذى يتضمن الخصائص المطهرة لمستخلصات التربنتين مع تأثير الكرفس المضاد للالتهاب.

وخلال المرحلة الثانية لالتهاب الأذن الوسطى، يمكن تخفيف آلام النخر بمستحضر أساسه الكمون، وهو بهار يحظى بتأثير مطهر وعمل مضاد للالتهاب:"[...] بذور نبتة حشيشة الحمى: ٦٤/١؛ كمون :٦٤/١؛ فاكهة (بيريت - شينى) :٦٤/١، بذرة شجرة (عرو) : ٨/١ ؛ نبات (عنخ - ايمى) : ٤/١؛ نبتة الحندقوق : ٣٢/١ ؛ أوراق السنط : ٣٢/١ ؛ [...] [...] جيا :٦٤/١ ؛ عسل : ٨/١ ؛ بيرة حلوة : ١٥ رو. تحول لرماد. ويشرب (هذا) الرجل (أو الطفل)"[٤٧].

وهناك مستحضرات أخرى موصوفة فى أماكن أخرى تتيح علاج سيلان الأذن الذى يميِّز المرحلة الثالثة، التهاب الأذن المتقيح. فى بعض الأحيان، يمكن تعقيم الأذن المصابة بمرض خفيف بدخان زبل التمساح، بيض الضفادع، أو حراشيف سلحفاة، أو فى حالة افتراض التهاب الأذن الخارجية، "بعلاج بارد (لأنه) يجب ألا يكون ساخنًا. وإذا كانت قناة ما ترتعش (ترتجف)، يجب أن تعد الدواء التالى: جزء (شيبا) من كربونات النحاس القاعدية (الملكيت)"[٤٨].

ربما كان المستهدف هنا هو إفراط إفراز صملاخ الأذن أو كتله: "إذا كانت (فتحة الأذن) ملطخة بالشحم (محتوية على مصل) بسبب من هذا، يتعين عليك أن تعد لها العلاج (التالى) المخصص لتجفيف المرض : رأس جرذ أو فأر؛ حويصلة مرارة ماعز؛ حراشيف سلحفاة؛ كونيز. رش هذا مراراً كثيرة..."

فإذا فشل الطبيب، أو إذا لم يعمل شيئًا لشفاء الطفل، فقد يثبت أن النتائج مأساوية، من الناحية الفسيولوجية وكذلك الاجتماعية[٤٩]، وإذا ما أخذنا برأى جاك فيلمو[٥٠]، فإن الأطفال العاجزين عن الكلام فى سن ٣ سنوات، ومن ثم يكونون صمّاً، كانوا يعتبرون ممسوسين، وبهذه الصفة يتم إغراقهم فى النيل. أما الخرس الأكبر سنا، فكانوا يردون إلى مرتبة العبيد. وذلك فرض يصعب التحقق منه، حتى لو كان من المحتمل أنهم كانوا يعاملون كمجرد حيوانات، بنفس صفة الطفل الذى يولد بدون عقل.

كحة خبيثة

كان المصريون يجمعون كل الأمراض الشعبية الرئوية تحت اسم نوع هو الكحة، التى كانوا يفسرونها باعتبارها "رجفات ترجع إلى إفرازات (سيريت)"، وهى النخامة (النفث) بلا ريب، ولكن كانت لديهم طرق مختلفة للاعتناء بهذا العرض الفريد : ٣٩ طريقة على وجه الدقة. وهناك كثير من المستحضرات العلاجية مقسمة بين برديات إيبرز وبرديات برلين، بعضها مخصص للأطفال والكبار فى نفس الوقت.

وكان يدخل فى تركيبها مكونات لا زلنا نعرف مزاياها حتى الوقت الحاضر: وهكذا، فإن العسل، وهو مهدئ شهير، ذكر ١٢ مرة، والقشدة، اللبن، أو المواد السكرية مثل الخروب أو لب البلح، الذى يهدئ التهيج، أو أيضا نبات الحندقوق (ويسمى أيضا عشب الذباب، أو الفصّة المستديرة)، وهو نبات عشبى له زهور عطرة جدًا يحتوى على الكومرين(*)، وهو مادة مقاومة للكحة وللتقلص ومدرة للبول[٥١]. والأغرب هو أن الحنظل، والذى يعرف عادة بمزاياه المطهرة، كان يوضع أحيانًا فى هذه الأدوية: وعند استخدامه، كان الطبيب يستهدف أن يطرد من الجسم أصل المرض الذى تقل سيطرته عليه وذلك بالتخلص من العرض.

وكدواء آخر يمكن استخدامه، وصف ديسقوريدس الكمون الذى ألحق به نظامًا غذائيًا مفرطًا فى السعرات الحرارية، لا يزال يوصف فى وقتنا الراهن لمواجهة أمراض الرئة الحادة، وكان يستخدم أيضا وبصفة خاصة أسلوب الاستنشاق[٥٢] لتخفيف الكحة المزمنة. والواقع، أن المصريين أسهموا إسهامًا كبيرًا فى تحديد فوائد هذا العلاج، مثلما يبرهن عليه المقطع التالى من البردية الذى يذكره للمرة الأولى فى تاريخ الطب: " يتعين عليك أن تأخذ سبعة أحجار، ويتعين عليك أن تسخنها فى النار. وعليك أن تأخذ حجرا من هذه الأحجار، وتضعه فوق هذا العلاج، عليك أن تغطيه بوعاء جديد، قاعه مثقوب، وعليك أن تدخل ساق بوصة (أنبوبة) فى الثقب. وعليك أن تضع فمك على فتحة هذه الساق لتستطيع استنشاق البخار المتصاعد منه..."[٥٣].

(*) مادة ملونة تدخل فى صناعة العطور . (المترجم)

كان الاستنشاق والتبخير ممارستين شائعتين، وقد قامت الأولى التى استخدمها على نطاق واسع أطباء آخرون فى العصور القديمة، حسبما قال وينتر[٥٤] بوظيفة علاجية ووقائية. وتسجل الثانية فى إطار تدابير الوقاية الصحية العامة[٥٥].

ولم تكن مدة الوصفات تتجاوز عادة أربعة أيام، وربما كان هذا الرقم يتمتع من الناحية الرمزية بقيمة سحرية وحسن الطالع، أساساً فى ظل الإمبراطورية القديمة.

هل كانت هذه هى الحصبة ؟

يتطلب تعريف مرض وصفه المصريون بمصطلحاتنا أحيانا حل ألغاز حقيقية. فعلى سبيل المثال، نجد فى إحدى البرديات أثرا لمرض للأطفال أساسًا، وهو طفح جلدى عنيف عزاه المصريون إلى تأثير مادة غامضة (تيميت) يتعين مكافحتها.

"دواء للتخلص من المادة (تيميت): فحم؛ سنديان، مختلط بسائل (عات) دقيق (؟) (يترك على) جرن درس القمح: معدن (ديدى)، قمح نشوى، شيرى بيديدو؛ ملح بحرى. ويتم طبخ (هذا). ضمّد بهذا"[٥٦]. و"دواء آخر: بذور الخروع، بذور نبات (نيشاو)؛ بلح، بازلاء، بذر حشيشة الحمى، سائل (تا) تبييض، عسل. يستخدم كالسابق"[٥٧].

ويقدم كتاب حماية الأم والطفل بعض التحديدات حول هذه المادة الرهيبة: "(وصفة علاجية) أخرى: انسحبى أيتها المادة (تيميت) التى تكسر العظم [...] والتى تدخل فى المسالك (مت) [...][٥٨] ومن جانب آخر، فإنها ترتبط بالشيطان (نيسيت): "تعزيمة على المادة (تيميت). حرارة تخرج من بوزيريس [...] (؟). إيزيس تظل تبكى، بعد أن هامت بجلد حورس (الذى كان) جلد هذا الابن لهذه. أيها الكبش النازل من السماء بدعوة من إيزيس (؟) لقد تكلم رع (؟). لقد تكلم أوزوريس (؟) ليرش المدّ الجسد السطحى لهذا الابن لهذه. انسحبى أيتها الحرارة! لقد تكلم أوزوريس: لقد سمع الرسالة (رسالة رع) والأرض فرحة. رع ينتظر فى المعبد [...](؟)

كلام يقال أربع مرات على: العسل، سائل (با-بور)، راتنج (ساوور)، دقيق (؟) (متروك على) جرن درس القمح"[٥٩].

وتتيح الرقيات الطويلة الواردة فى بردية لندن رقم ٢٥ مكافحة هاتين النكبتين مجتمعتين، اللتين تبرر خطورتهما، والتى كان يعتقد أنهما تعبير عن عقاب إلهى، اللجوء إلى سحر له طبيعة إلهية :

" [رقية] أخرى للتخلص من الشيطان (نيست)، والجوهر (تيمت) قامت بها إيزيس من أجل والدها، حسب ما أجرى من أجله [...] . بواسطة المجموعة التاسوعية العظمى التى توجد أمام طاقم اليوم، حيث ترفع التقدمة فى المعبد، فى الليل حيث يفتح أوزوريس فمه ليتحدث أمام الموضع الطاهر وهو يقول :

إن ابنى حورس هو الذى سينتقم لى

ولهذا فإنه ابنه حورس هو الذى سينتقم له."

وحسب الافتراض المثير للمشاعر لبسكال هنكين(٦٠)، يمكن ربط الشيطان (نيست) بالتشنجات، وهى ثمار متاعب عصبية عند الطفل. وفى هذه الحالة، فإن المرض الذى يربط الجوهر (تيمت) بالشيطان (نيست) يمكن أن يكون هو الحصبة، التى ترتبط هى نفسها بعلامات جلدية لها ظواهر عصبية ملحوظة(٦١).

مرض بعاع غير المعروف

لكن هذه التحليلات لا تفضى أحيانًا إلى صياغة افتراضات محددة جيداً، وعلى النقيض من ذلك المرض الذى يعد الجوهر الشهير (تيمت) مسئولاً عنه، فإن المرض المسمى بعاع، الذى ذكر مرات كثيرة فى نصوص عن أمراض الأطفال، يظل حقًا مرضًا غير محدد: "للتخلص من بعاع، قل كصيغة سحرية [...] السنط. يتم لف (هذا) إلى اليسار ووضعه على عنق الطفل. تلك وسيلة للتخلص من بعاع"(٦٢).

"لطرد بعاع: أجزاء (تيباوت) من الجميز: بلح طازج؛ جزء (حيمو) من الخروع؛ القنب، سدادة نباتية (تصنع من ألياف النبات) (ديبت)؛ سائل (ميستا). وتشرب المرأة (هذا)"(٦٣).

وفيما يلى الدلائل التى يمكن استخلاصها من قراءة برديات مختلفة: نعرف أن الأم "حاملة سليمة" لجوهر بعاع، ويمكن أن تعدى طفلها عن طريق لبنها، ومن ثمَّ فهى التى ينبغى أن تتناول الدواء للعناية بالطفل، مثلما أن لبن الأم ينقل السم والترياق. وعند العدوى، ينتشر بعاع فى جسد الطفل كله ليدمر أحشاءه. لقد كان هذا المرض خطيراً بدرجة جعلت تعاويذ إيزيس، والتى ربما كانت تعتبر من قوة الآلهة، تفشل فى علاجه. ومن ثم تم اللجوء لتأثير السحر، الذى رؤى أنه يدفع بعاع نحو طائر عصفور الجنة، وهو عصفور اتخذت إيزيس شكله عندما كان جسد أوزوريس لا يزال مدفوناً فى العمود.

وبغية التحديد على وجه اليقين لهذا الجوهر المتعلق بتصنيف الأمراض، وضع كثيرون من علماء المصريات فروضا، دون نجاح. فهو مرض له أصل غذائى حسب رأى و. ر. داوسون(٦٤)؛ وهو مرض تصاب به الأم حسب رأى هيرمان جرابو(٦٥)، وبعد ذلك تعدى به الطفل. كيف نتحقق من ذلك؟ لا ريب أن تيرى بارديني(٦٦) قدم أفضل تفسير لهذا المرض: "إنه يتعلق بدرجة أكبر بمادة خاصة تسبب مرضا محددا، يحركه نفس ضار وله القدرة على تدمير من يصاب به." ومن ثم، فإنه حتى يثبت العكس وفى انتظار تحديد أكثر دقة، يتعين استنتاج أن المصريين كانوا يعتبرون هذا العنصر الفاعل مسئولاً عن أمراض كثيرة مختلفة تصيب الأطفال، وكانوا يجمعونها تحت نفس المصطلح بسبب أصلها المشترك.

المراهقون فى أزمة بالفعل

لم يصور أى نص ولا أى مشهد للحياة اليومية الاضطرابات والتقلبات الفسيولوجية لفترة المراهقة، وهناك فقط رسم لجعران، رمز الإله خيبرى والتحول، يصور بحذر عن قرب شخصاً أو على الخرطوشة، يميز صور المراهقين على جدران المعابد والمقابر. وكانت تقام احتفالات بانتهاء مرحلة الطفولة عند الطفل، يتم فيها قص خصلة شعر الطفولة، ويوضع عليه لباس الكبار (الوزرة) ويتم ختانه.

الطقوس والعبور: الختان وبداية الدورة الشهرية

ومن ثم، كان الختان أحد طقوس العبور إلى سن البلوغ التى تمارس على الشبان، فى نحو سن السادسة عشرة، أو السابعة عشرة. ومع أن البرديات الطبية لا تذكر هذا التدخل فى أى لحظة، فإن عدداً معيناً من الشواهد يبين أن المصريين كانوا يجرون الختان منذ الألف الثالثة قبل عصرنا(٦٧). وكانت علامة قضيب الذكر (التى كانت تترجم حسب الحالة إلى "قضيب الذكر"، "الذكر"، "يتزوج"، أو "يتبول") فى الكتابة الهيروغليفية تمثل دائماً هذا العضو بدون جلدة القضيب، ولهذا لا يمكن أن نستنتج من هذا أن هذه العادة كانت حتمية ومنتظمة حيث إننا نجد مومياوات لرجال لم يتم ختانهم من الإمبراطورية الحديثة. فأحمس الأول نفسه، وهو فرعون من الأسرة الثامنة عشرة، لم يكن قد تم ختانه، على خلاف أبيه وأشقائه، وقد أثار هذا عدداً كبيراً من التساؤلات عند علماء المصريات. وحسبما يقول أرنولد بيلوارد، فإن التهابا شائعا فى المفاصل، يصيب ركبه أساساً، يجعلنا نعتقد بوجود شكل وسيط من النزعة للنزف عند هذا الفرعون: وهو مرض ربما يفسر تكوينه الضعيف وضمور عضوه التناسلى وترهله(٦٨).

أيا كان الأمر، فإن أهمية الختان عند المصريين تظل غير واضحة(٦٩). فالبعض يؤكد، وهو ما يدعمه كتاب الموتى، أن الأمر ربما كان يتعلق بطقس دينى يذكر بحركة رع: "دم سقط على قضيب رع، بعد أن انتهى من قطعه بنفسه"(٧٠). وبالنسبة لمؤلفين آخرين، فإن الأمر يتعلق بإجراء للصحة الوقائية(٧١) مثلما أورده هيرودوت بشأن الكهنة: "كانوا يمارسون الختان لأسباب تتعلق بالصحة الوقائية لأنهم كانوا يفضلون النظافة على الجمال"(٧٢).

ويروى نقش قليل البروز يرجع تاريخه إلى الأسرة السادسة، حوالى من ٢٤٢٣-٢٢٦٢(٧٣) ق.م.، موجود على حائط مصطبة عنخ - ماهور فى سقارة، لحظات هذا التدخل المختلفة. ففى خلال المرحلة الأولى، يقف الشاب، ووجهه إلى شخص يجلس القرفصاء يعد الأدوات. ويشير التعليق: "ادعك جيدا الذى سوف" ويرد المحتفل: "سأجعله مقبولا لك"، مما يشير إلى استخدام شكل من المخدر، والذى قد يكون حجر ممفيس(٧٤). وخلال المرحلة الثانية، يخفى الشاب، الممسوك من الخلف،

عينيه بيديه وتفسر المشهد الكلمات التالية : "امسكه حتى لا يغمى عليه". وخلال المرحلة الثالثة، يمسك الجراح القضيب ويجرى الختان بقطعة من زجاج بركانى داكن(٧٥).

وماذا عن البنات الصغيرات؟ تتضمن المصادر مفارقات فى الحديث عن عبورهن لسن النساء. ولم يحل عدم وجود أى وثيقة ذات طابع طبى توضح بداية تطبيق القواعد، دون أن تذكر بردية إيبرز علاجًا يتم تناوله بعد عدة سنوات من انقطاع الطمث :

"إذا شرعت فى فحص امرأة مضت عليها سنوات كثيرة دون أن تأتيها الدورة الشهرية، وكانت تتقيأ شيئا شبيها بالسائل (حيبيت)، وكان باطن جسدها مثل باطن جسد طالته النار، فإن هذا سيتوقف بمجرد أن تتقيأ.

وما يتعين عليك أن تقوله بشأنها : " إن هذا فورة دم فى فرجها لأن سحرا ألقى عليها، ويتعين عليك أن تصنع مستحضراً لذلك : ثمار العرعر : ٣٢/١ ؛ كمون : ٦٤/١؛ رانتج تربتين : ٦٤/١؛ سوق أرضية لنبات السعد الصالح للأكل : ١٦/١. يجب أن تضع لبن بقرة، ٨٠ رو على نار مع نخاع العظام (خيند) (المأخوذة من ثور). ويوضع هذا فى ذلك اللبن ويتم شربه أربعة أيام متوالية(٧٦)".

وجع القلب ، والاضطرابات الأولى

يجب أن يضاف إلى هذه التحولات الفسيولوجية والعلامات الجسدية، تغيرات أخرى. فقد كان المصريون، هم أيضًا يشعرون باضطرابات الحب الأولى ويعانون من "وجع القلب". وهكذا كانت الشابات المصريات يسعين لكى يصبحن مرغوبات لدى من يحتمل أن يصبحوا أزواجًا لهن :

"المحبوب يعرف تمامًا كيف يلقى أنشوطة اقتناص الحيوانات، دون أن يبالى بعدد القطيع

ومن شعره، يلقى إليك بشباكه،

وبزينته يسيطر علىّ،

وبلسانه، يسمنى بالنار الحمراء"(٧٧)

وكن يعبرن أحيانًا عن المشاعر تجاه المحبوب:

"عندما آخذه بين ذراعى

وتضمنى ذراعاه،

فإن ذلك يكون مثل بلاد بنت،

مثل غمس الجسد فى زيت معطر

عندما أعانقه

وتنفرج شفتاه

أشعر أنى سكرانة

دون أن أشرب بيرة(٧٨)"

ولكن كان يحدث أحيانًا أن تتحول عاطفة الحب إلى مأساة. ففى بعض الأحيان كان الشاب يصاب بمرض لا شفاء منه، وكان "مرض الحب" يعتبر اكتئابًا حقيقيًا، ذلك ما حكم به عليه وصف يقدمه مقطع من بردية تشستر بيتى الأول:

"لو جاء إلىَّ كبار الأطباء، فلن يستجيب قلبى لدوائهم.

القائمون بالرقية، ليس هناك خلاص يمكن الحصول عليه منهم، (وهذا بسبب) أن مرضى لم يتم تحديده.

لكن يتعين القول: ها هو، الذى يهبنى الحياة من جديد خلاصى، إنها من تدخل هنا.

عندما أراها سأتعافى.

ستفتح عينيها وتستعيد ساقاى شبابهما.

ستتحدث إلىَّ وسأصبح شديداً.

سأعانقها وعندئذ ستزيل عنى الألم..."

وهناك بلاء آخر، للنساء هذه المرة: أن تواجه منافسة لها، وفى هذه الحالة، يمكن أن تستعين بالسحر لتسقط شعر "امرأة بغيضة"، على أساس "فير-عنعرت" مطبوخ، مغلى فى الدهن (بردية إيبرز رقم ٤٧٤). ويتكون الترياق، المغرى قليلا، من بين أشياء أخرى من "الساق السفلى لفرس النهر وحراشيف سلحفاة" (بردية إيبرز رقم ٤٧٦).

سُكر الشباب : الإفراط فى الشرب

لكن، هل كان الشبان والشابات المصريون عندئذ يغرقون أحزانهم الخاصة بالحب فى الكحول؟ لقد كان الأمر دومًا فى هذا المجال وكأنهم يأخذون من مياه النيل، فقد كانوا يستهلكون كميات كبيرة من لبن الماعز والنعاج والبقر، ولكنهم كانوا يستهلكون أيضا كميات كبيرة من البيرة المصنوعة من الشعير، وكان الأكثر ثراء من بينهم هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يتناولوا النبيذ، وكان منتجًا ترفيًا حقًا. وفى ظل الإمبراطورية القديمة، كانت هناك عشرة أنواع منه، منها الأبيض والأحمر والأسود ونبيذ مصر السفلى، ناهيك عن شراب آخر، هو الشيدح، وكان بلا ريب مشروبا كحوليا ذُكر فى عدد من النصوص. وكان المراهقون يسكرون دون اعتدال فى الحانات، كما يشهد على ذلك هذا المقطع المطول عن أم توبخ بشدة ابنها المنكب على الشراب بصورة واضحة(٧٩):

"لقد قالوا لى إنك تهمل ممارسة الكتابة،

وإنك تركت نفسك للذات،

وإنك تتسكع من حانة إلى حانة،

لقد نزعت البيرة عنك احترام كل الناس،

إنك تضيّع روحك،

إنك مثل دفّة محطمة،

لا تصلح لشىء.

إنك مثل معبد محروم من إله،
شبيه بمسكن بلا خبز،
ويجدونك مشغولا بالقفز على الحيطان،
ويهرب الناس أمام الضربات الخطرة،
آه ! إذا أردت أن تفهم ما هو النبيذ
إنه النفور
ستلعن النبيذ الحلو،
لن تفكر فى البيرة
وستنسى نبيذ الغريب.

وما يأتى بعد ذلك هو تعاليم آنى، التى تحث على الاعتدال فى استهلاك الكحول: "لا تفرط فى شرب إبريق كبير من البيرة! فعندما ستتكلم، ستخرج من فمك جمل غير مفهومة. وستسقط، وستكسر أعضاءك ولن يمد إليك أحد يده. سينهض زملاؤك فى الشرب قائلين : من الذى يخلصنا من ذلك السكير! وعندما يأتون لك بعد ذلك، ويطلبون منك النصيحة، سيجدونك نائمًا على الأرض، وتكون مثل طفل صغير"(٨٠). ولم تفلت حتى النساء من هذا المنحدر السيئ. إذ نرى فى مقبرة بحيرى فى الكاب، واحدة تطالب بالشراب بصرخة قوية : "أعطنى ثمانية عشر قدحًا من النبيذ. ألا ترى أننى أريد أن أسكر؟ إنى جوفى ظمآن وجاف مثل التبن"(٨١). ولكن احترس من صبيحة اليوم التالى للسكر..." بقدر ما تزيد كؤوس النبيذ التى تترعها، سيستمر ألم الكرب والضيق". (بردية إنسنجر)(٨٢).

هل هناك سن مقبولة ؟

مثلما نفعل جميعًا، حاول المصريون حل مسألة تربيع الدائرة : الكبر فى السن مع الحفاظ على الملكات سليمة. وكان يبدو أن ١١٠ سنين هى السن المقبولة التى يمكن أن يتطلع إليها مصرى حياته مليئة تماما، والواقع أن هذا الرقم الذى ذكر كثيرا فى النصوص اشتهاه الجميع: ولكن دلالته تظل رمزية لدرجة الكمال وترتبط بصورة وثيقة بفكرة الحكمة[٨٣]. ومن ثم، كانت الأمانى بتحقيق الازدهار وطول العمر يتم التعبير عنها بطريقة غير مباشرة بهذا الرقم الأسطورى، مثلما توضح تلك الرسالة الموجهة إلى الحكيم أمينيموبى من أحد تلاميذه: "لتوهب لك الصحة وطول العمر، دون أن تشعر بالهرم ودون أن تمرض. لتستطيع أن تكمل ١١٠ أعوام على الأرض، ولتظل أعضاؤك سليمة، ذلك ما ينبغى لمبارك مثلك عندما يثيبه ربه"[٨٤]. وقد بلغ هذا السن، بعض المصريين، مثل المجوسى ديدى، "وهو شخص بلغ ١١٠ أعوام"[٨٥]. واقترب منه آخرون: بيبى الثالث، ولكن بصفة خاصة رمسيس الثانى، أكثر المسنين شهرة فى مصر القديمة[٨٦]، الذى مات فى سن السادسة والتسعين دون تدابير خاصة. كان محاربًا ذائع الصيت، تزوج ٢٠٠ امرأة أنجب منهن ٩٥ ابنًا و ٦٠ ابنة. كما بلغ هذه السن الشهيرة، نيبنتيرو، الكاهن الأعظم للأسرة الحادية والعشرين، ويمكن أن نقرأ منقوشًا على النصب المكرس له كشاهد على قبره: "لقد أمضيت حياتى فى سعادة، دون هموم، ولا مرض... وهكذا تجاوزت السنوات التى عاشها كل معاصرىَّ. اجتهد أن يحدث لك شىء مماثل"[٨٧].

والواقع، أنه ندر من أتيحت لهم مثل هذه الفرصة. فلم يبلغ هذه السن المتقدمة سوى قليل من المصريين، وهو ما يجعلنا نعتقده بقاء الغضاريف الرابطة الملحوظ فى المتوفين من هذا العصر. وكان العمر المتوسط يتراوح بين ٣٠ و ٥٣ سنة، وهو رقم مستخلص من واقع عدد وفيات الأطفال الرضع، ويستحيل تقديره ولكنه مرتفع بالتأكيد. وعلى نحو أكثر تحديدا، فإن مجموعة تورينو التى تضم ٩٠٧ جماجم لراشدين، تحدد العمر المتوسط للمتوفين – بعد الدراسة – بثلاثين عامًا فى عصر ما قبل الأسر

و ٣٦ عامًا خلال عصر الأسر[٨٨]، ولا ريب أن هذا العمر المتوسط القليل هو الذى يعزى إليه العدد القليل من حالات السرطان التى اكتشفت، بأكثر مما يعزى إلى التوازن الغذائى، أو أى ميراث متعلق بالجينات : إذ يمكن القول، إن الأورام الخبيثة أو تكونها، التى كانت تحل فجأة، لم يتوافر لها الوقت لتتطور.

لتحويل شخص هرم إلى شاب

فى مصر القديمة، لم يكونوا يخشون من أضرار كبر السن بأقل مما نخشاه، وتشهد على هذه الخشية الكتابات الهيروغليفية، والتى كانت ترمز للمسن برجل محنى الظهر يستند إلى عصاه، وقد وصف بتاح حوتب[٨٩] نفسه بفصاحة فى مأثوراته ، أوجه العجز التى تتهدده فى أواخر عمره :

"يا مولاى، وسيدى، إن كبر السن موجود هنا، لقد حل بى الهرم، لقد جاء الذبول، وتجدد ضعف الطفولة، لقد فعل مثلما يجعل الطفل ينام بدون توقف، وأصبحت الذراعان ضعيفتين، وأقلعت الساقان عن أن تتبعا القلب الذى أصبح متعبا. لقد صمت الفم، لم يعد يستطيع التحدث، وغدت العينان متعبتين، وأصيبت الأذنان بالصمم، وغدا الأنف مسدوداً، لم يعد يستطيع التنفس، وذهب التذوق تماما. وغدت الروح كثيرة النسيان، لم تعد تستطع تذكر الأمس، والعظام تغدو مؤلمة فى الكبر، وأصبح من الصعب القيام والجلوس كلاهما. وما كان طيبًا أصبح رديئًا. ذلك ما يفعله الكبر للرجال من سوء فى كل شىء".

وهناك حقيقة بارزة لدى قدماء المصريين، هى أن الآلهة أنفسهم لم يكونوا معصومين من هذا السقوط: "يظهر رع كل يوم على رأس طاقم قارب الشمس جالسًا على عرش الأفقين. لقد جعل السن فمه يرتعش وجعل لعابه يتساقط على الأرض".

ومن ثم، فمنذ أقدم الأزمنة، كانت هناك رغبة فى علاج هذا الدنو من الزوال العام، مثلما تشهد عليه الوصفة القديمة الواردة على ظهر بردية إدوين سميث "لتحويل شخص هرم إلى شاب"، وتذكر فى المحل الأول كل مزيلات التجاعيد ومستحضرات التجميل الأخرى "لتغيير الجلد" (بردية إيبرز ٧١٤)، "لفتح الجلد السطحى" (بردية إيبرز ٧١٣)،

"لجعل الوجه مشدودا" (بردية إيبرز ٦١٧)، أو "للتخلص من تجاعيد الوجه" (بردية إيبرز ٧١٦)، مثلاً بطلاء الوجه والرقبة الأصلى لإكسابهما لونًا مرغوبًا، "لجعل الجلد كاملاً" والحصول على شحوب على المودة: "(علاج) آخر لجعل الجلد السطحى كاملا: بودرة المرمر، ١؛ بودرة النطرون، ١؛ ملح بحرى، ١؛ عسل، ١. ويخلط هذا فى كتلة متجانسة مع هذا العسل. ادهن الجلد (بهذا) (بردية إيبرز ٧١٥).

ومع تقدم السن، كان المصريون يعانون من مشاكل للجلد أشد خطورة، يتيح فحص المومياوات تشخيصها[٩٠]، مما يعوض صمت البرديات عن هذا الموضوع، باستثناء ذكر "المادة التى تنخر"، أو أنواع الحكة المحتملة المذكورة فى بردية إيبرز ٦١٥ . فعلى سبيل المثال، فإن وجود حب الشيخوخة[٩١] تشهد عليه البثور التى وجدت على مومياوات مسنين معينين: فمن الواضح أن رمسيس الثانى نفسه أصيب فى جبهته بأورام صغيرة حارقة حمراء، وقد خضعت هذه العلامات المزعجة لعملية تجميل حتى بعد موته. كما حاول المحنطون فى جثة كاهنة لآمون ماتت فى ظل الأسرة الحادية عشرة إخفاء ندوب فى الردفين والظهر، لا ريب أنها كانت ناجمة عن ملازمة الفراش قبل الوفاة، بقطعة من جلد الغزال.

وهناك حلية طبيعية أخرى يقسو عليها طول العمر: الشعر، الذى كان يتم الاعتناء به طوال العمر. ومن باب الغندرة، كانت النساء عادة تحتفظن بشعر طويل ومتموج، ويتركن خصلة مجعدة تنمو على جانب رأس أطفالهن. لكن غالبية المصريين – فيما خلا الكهنة – كانوا يحلقون الرأس والجسد، وكانوا فى الدوائر العليا من المجتمع يضعون الباروكة. وفيما يبدو أن الحلق كان أكثر فاعلية لمقاومة سقوط الشعر، وكانت عظام جماجمهم تغدو أكثر سمكا تحت تأثير الشمس، وللسبب نفسه، لم يعرفوا الصلع. والواقع أننا نشاهد فى مصر أقل عدد من الناس المصابين بالصلع"[٩٢].

ورغم هذه الاحتياطات، ربما كان الصلع يحل أحيانا فى مرحلة متأخرة، مثلما يبين فحص بعض المومياوات، وإذا كان رمسيس الثانى عند موته، لا يزال يحتفظ بصدغين ورقبة كثين نسبيًا، فإن أمينوفيس الثالث[٩٣] وسيتى الأول، كانا قد أصبحا أصلعين عمليًا. ولم تفلت النساء من هذا: فلكى تخفى الملكة نفرتارى التى كانت تعانى

من الصلع رأسها المجردة من الشعر، أسرفت فى الغندرة لحد وضع باروكة من شعر مستعار. وخوفا من الصلع، كان المصريون يستخدمون وصفات سحرية عديدة لإعادة إنبات الشعر، وكانت كلها وصفات غريبة سواء هذه أو تلك: "(علاج) آخر لإعادة إنبات شعر أصلع: دهن أسد،١ ؛ دهن فرس النهر، ١؛ دهن تمساح، ١؛ دهن قط، ١؛ دهن ثعبان، ١؛ دهن وعسل، ١ . ويعد (هذا) فى كتلة متجانسة. ادهن رأس الأصلع (بهذا) (بردية إيبرز ٤٦٥).

وهنا يتدخل مبدأ القياس، الذى يعرفه السحرة جيدا، والذى كان يسمح باغتصاب الحيوية عن طريق شعر بدن هذه الحيوانات، وبصفة خاصة الأسد زى اللبدة الجميلة. لكن كان يمكن أيضًا التزود "بحافر حمار" (بردية إيبرز رقم ٤٦٨)، "سلخ الذباب" (بردية إيبرز ٤٧٤) و"(دم) من فرج كلبة" و"دهن فرس النهر" (بردية إيبرز ٤٧٥).

وأخيرًا، كان فى مقدور المسنين المهتمين بأناقتهم أن يقاوموا ابيضاض الشعر بهذا السائل المعطر لغسيل الشعر الأكثر إثارة للاهتمام: "(علاج) آخر للتخلص حقًا من المادة التى تدمر (الشعر) وللعناية بالشعر: دم ثور أسود. يوضع هذا فى دهن زيت. ادهن بهذا"(٩٤).

قدم ممتازة وعين ممتازة

أتاحت دراسة المومياوات الفرصة لتعميق معارفنا عن المتاعب الروماتيزمية التى كان المصريون يعانون منها(٩٥)، بمساعدة من الفحوص التى تتم عن طريق التصوير بالأشعة. وهكذا تبين وجود التهاب المفاصل عند فراعنة كثيرين: فى العمود الفقرى عند أمينوفيس الأول وفى العنق فى حالة منفتاح، وقد أتاح فحص رمسيس الثانى بالأشعة وضع تشخيص أكثر اكتمالاً على مستوى العمود الفقرى والحوض، مع إثبات وجود محو فى المفاصل العجزية الحرقفية، وتوسع غريب فى الفراغات الموجودة بين الفقرات وتكلس شامل فى الأربطة الفقرية المشتركة، وندرك على نحو جيد السبب فى أن الروماتيزم كان يقلق المصريين بشكل خاص مثلما تبين العشرن وصفة المودعة فى بردية الرامسيوم وبردية إيبرز. ومن ثم كانت المسألة تتعلق بأدوية مخصصة "لتليين

الأربطة بين جزئين من الجسم"، "تليين جزء متصلب"، أو "علاج عظام تقع فى أى مكان فى جسم الإنسان"، أو "فكّ الأجزاء المتيبسة الواقعة فى أى مكان من الجسم". وكانت هذه المراهم التى تقوم بصفة رئيسية على أساس من الأجسام الدهنية والدهون الحيوانية، والتى كان عليها أن تقوم بوظيفة مرهم البلسم المسبب للارتخاء، تشمل أيضًا نخاع العظم، والدقيق والنطرون، وطحال عجل، وصمغ، ولبان، وكرفس، وبصل، وكمون، وعرعر، وعصير سنط، أو حتى ببساطة طين، ويتم دعك الأعضاء المصابة بها.

ومع تقدم العمر، لم تكن القدرة على الحركة هى الملكة الوحيدة التى تتدهور بل كان البصر يتأثر هو أيضًا. وكانت هناك عوامل كثيرة قادرة على تنشيط أمراض العيون: الحرارة، الغبار، الحشرات، والظروف الصحية المؤسفة[٩٦]. وفى هذا المجال، فإن جثث القدماء المدفونة لم تقدم لنا أى عون فى تحديد التشخيص بأثر رجعى، فإن عملية التحنيط كانت تصطحب دوما بعملية تجفيف وانكماش مقلة العين. ومن ثم فإن قراءة بردية إيبرز كاهون هى التى توفر جوهر المعلومات، ومن بينها وصف حالة مؤسفة عن البقع الصفراء حول العيون حددت بأنها "دهن فى العين"[٩٧] وكذلك ما ورد فى بردية إيبرز من ذكر العلاجات المخصصة "للتخلص (من المواد التى تسبب) ظلمة العين" (أرقام ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٤)، وكذلك "المواد الخبيثة التى تسبب ضعف البصر" (رقم ٤١٥).

ويبدو أن إظلام عدسة العين (الكتاركت)، والذى يظهر عادة مع تقدم العمر، قد تم تشخيصه فى إحدى هذه البرديات باعتباره "تصاعد الإفرازات فى العين" حسبما قال ب. غليونجى[٩٨]. وهو تعبير سنجده بعد ذلك عند الإغريق (hypochisis) وعند الرومان (suffosio)[٩٩]. وحسبما يرى البعض، فإن هذا المرض كان له مثال بارز يصوره، يتعلق بالملكة الشهيرة نفرتيتى، التى كانت تخفى عينها اليمنى بالقماش الأبيض فى تمثالها النصفى الرائع المصنوع من حجر الكلس الذى وصل إلينا. وبالتسليم إنها حقًا أصيبت بهذا المرض، فإن شيئًا لم يكفل شفاءها: فإننا لا نعرف حقًا ما إذا كانت تمارس حينذاك تدخلات جراحية فيما يتعلق بالكتاركت. وقد استخدم جيران لمصر، هم الأكاديون سكان بلاد ما بين النهرين، التقنية المسماة "الخفض" والتى تتكون من إنزال مكان بلورة العين لأسفل بإبرة حتى يستعيد المريض بصره. ولكن الموضوع

لا يزال موضع جدل. وكريسيب وهو كاتب من القرن الثالث قبل الميلاد، هو وحده الذى يورد شهادة عند حدوث تدخل جراحى لعلاج الكتاركت تم إجراؤه بفاعلية فى مصر ويؤكد أن هذه كانت ممارسة شائعة فى مصر[١٠٠]؛ وهى عملية يبدو أن الجراح الإغريقى أنتيل من الإسكندرية قد أجراها فى فترة أكثر تأخراً.

عمر الشرايين

علاوة على الجلد والعظم، فإن الأعضاء أيضًا تبلى على مرّ الزمن. فمع الكبر تزداد مخاطر متاعب القلب والأوعية ، فالأطباء المصريون، الذين لم يحددوا أبداً سن مرضاهم تركوا دراسة متعمقة عن اختلال وظائف الأعضاء المختلفة فى مبحث عن القلب والأوعية، يشكل جزءا من بردية إيبرز ويكشف نطاق المعرفة المكتسبة فى هذا الموضوع. ونجد لكثير من الأمراض التى اكتشفناها بأثر رجعى وصفا فى هذه البرديات، وكانت مفصلة ببعد نظر مدهش، مثل متاعب اتساق دقات القلب، احتشاء عضلة القلب، تنفّخ جدران الشرايين.

وعلى سبيل المثال، حدد المصريون على نحو جيد العلاقة القائمة بين الكبد والدورة الدموية، وسمُّوا "القنوات الأربع" (مت) التى تزود القلب بالسوائل والنفس (فى تيار دينامى)"[١٠١]. وهذا هو على الأقل ما يكشفه تحليلهم لقصور القلب ونتائجه المتعلقة بالكبد، عن طريق زيادة الحمل على وحدة الحجم[١٠٢]. وهكذا، كان كل قصور عام فى القلب، يندرج تحت مصطلح خاصف "ضعف يوجد فى القلب"، يمكن أن تكون له انعكاسات "تصل حتى الرئتين والكبد" وتسبب حالة من الصدمات الناشئة عن القلب، حيث يصبح المريض "أصمًا"، وتغدو نبضات القلب غير مسموعة، وأحيانا "تنهار الأوعية الدموية، وتغدو أطراف المريض باردة جداً" بعد أن (تذهب عنها الحرارة)"[١٠٣]. وتذكر البردية أنه فى الحالات الخطيرة جدّا "فإن القلب (حاتى) لا يعود يتكلم"، وينهار توتر الشرايين، وتصبح النبضات السريعة جداً منسابة على نحو متواصل. وتضاف إلى هذه الأعراض، علامات عصبية مقلقة لهبوط نشاط الدماغ، والذى يتبدى فى شكل خدر والتراوح بين النوم واليقظة وهو ما ورد وصفه على النحو التالى: "إن القلب

(حاتى) لم يعد يتكلم، كما أن قنوات (مت) القلب (حاتى) تظل صامتة، فى حين لا تعكس أى إشارة عندما يتحسسها (الطبيب) بيده"[١٠٤].

أما المتاعب التى تؤثر على انتظام دقات القلب، فإن تحليلها يؤكد نفس المعلومات، فقد أدرك الأطباء المصريون كما هو باد، العلاقة القائمة بين جودة الحالة الصحية العامة واستقرار القلب فى مكانه وتحديده. والواقع أن تفسيرات عديدة لأوراق البردى تؤكد أن الوضع غير الطبيعى للقلب هو مرادف للمرض، مع افتراض أن إصابة تحل بالجسم كله عندما "يبتعد (هذا العضو) عن مكانه"[١٠٥]. وهكذا لاحظ الأطباء المصريون أنه فى "رقص قلب" المرضى المصريين[١٠٦]، كان قلب المريض "يبتعد على صدره الأيسر" وهو انتقال طرف القلب الذى يتم تشخيصه حاليا فى حالة سرعة ضربات القلب البسيطة، أو عدم الانتظام فيها عندما يزداد حجم القلب[١٠٧]. ولكن عندما "لا يخفق قلب (حاتى) المرء كثيراً"[١٠٨]، و"ينزل قليلا"، بعبارة أخرى عندما يترتب على تناقص نبض القلب ابتعاد القلب عن قاعدته، يغدو الوضع خطيرا فى نظر الطبيب المصرى : "ويتفاقم تلف (جسد) الإنسان".

وهناك موضوع آخر يثير القلق بالنسبة للمريض: عندما يحدث فجأة ألم مثير لذكرى أزمة ذبحة صدرية، أو حتى احتشاء عضلة القلب. وهكذا فإن "المريض الذى يعانى من الدخول للداخل (اب) عندما يكون لديه آلام فى ذراعه، وصدره، وناحية من معدته (رو اب[١٠٩])" تقل فرصته فى أن يستعيد عافيته من ذلك. "إن الموت هو الذى يهدده"[١١٠].

وأخيراً، وعلى نطاق أوسع، كانت شبكة الأوعية الدموية وأمراض الأوعية الدموية هى أيضا معروفة جيدا للمصريين، سواء كان ذلك الدوالى "ذات المظهر الملتوى أو الذى يتخذ شكل الثعبان"[١١١]، أو تنفُّخ جدار الشرايين وهو أكثر إثارة للرهبة[١١٢]. ومن جانب آخر، كان التحليل الأكلينيكى يتم بمهارة ويثبت جيدا الطابع المتسم بالخفقان والتمدد الذى يميزه عن المتاعب الأخرى: "إذا فحصت انتفاخا فى الأوعية فى عضو من أعضاء إنسان ما ووجدته نصف كروى، ويكبر تحت إصبعك فى كل خفقة قلب". وتمضى البردية إلى حد تقديم سبب هذا الاختلال فى وظيفة الشرايين:

"إنها الأوعية هي التي أحدثته، وهو يرجع إلى جرح في الأوعية"[١١٣] وتقترح علاجا عمليا عن طريق الساحمن[١١٤]، أو بعبارة أخرى إخصائي في استعمال المكواة، بالتزامن مع أداة معدنية، أو قصبة معدة بالنار كما يقول ليكا[١١٥].

ومن جانب آخر، ترسم البردية بطريقة دقيقة لوحة إكلينيكية لاستسقاء موضعي حاد في الرئة حيث "كل هذه الأجزاء من الجسم ضعيفة"، وهو يصطحب بتنخم وفير "من اللعاب (المفرط) وإحساس بالاختناق مماثل "إغراق القلب (اب)"[١١٦]. وكانت الثغرات أكثر في معلومات المصريين عن الأعضاء الحيوية الأخرى: وهكذا، كانوا يجهلون وظيفة الكلى[١١٧]، التي كان المحنطون يتركونها في مكانها في التجويف البطني، على عكس المثانة التي كانوا ينتزعونها. وقد كشفت دراسة كلى المومياوات قروحا إسفنجية أكثر منها تشريحية. ونظرا لندرة حصى الكلى[١١٨]، نفترض أن المتاعب المذكورة في بردية إيبرز[١١٩] تطابق احتباس البول الذي كان يسفر عن "تكدسه"[١٢٠]. ومن ثم كان ينبغي المساعدة على إفراغه "لجعله طبيعيًا" (إيبرز ٢٦٣). وللقيام بهذا، كان يستخدم بلا ريب دواء لمقاومة التهاب المثانة، أو أي متاعب في البروستاتا[١٢١] ذكرت في بردية إيبرز رقم ٢٦٥، المكرسة "للتخلص من انسداد مواد حارقة في المثانة عندما يصاب المرء باحتباس (حيبيدو) البول".

مرض باركنسون، وعته الشيخوخة

كان تدهور الملكات الفكرية أيضا من مساوئ التقدم في السن. وهكذا يذكر في نص بردية إيبرز فقد الوظائف العليا تحت التأثير المدمر لنَفَس مرضي ينتشر في الباطن (اب).

"فيما يتعلق بحقيقة أن الباطن (اب) يتلف (وفيما يتعلق) بفقد الذاكرة: هذا نفس خاص بمجال نشاط الكاهن – القارئ الذي يسبب هذا. وعندما يدخل في القصبة الهوائية للرئة عدة مرات، يسفر عن إصابة الباطن بالضرر[١٢٢]". ومن جانب آخر، فإن نفس تأثير النفس الضار قادر على تغيير القنوات (مت) ويمكن أن يتسبب فيما قد يصبح في الواقع خللاً في الأوعية[١٢٣].

وعلى نحو أخص، اعتقد القراء المحدثون أنهم تعرفوا فى وصف الارتعاش الذى يحدث على مستوى الأطراف العليا على أنه بداية لمرض باركنسون[١٢٤]: وفى الواقع يتبدى هذا المرض فى البداية فى ارتعاش أحادى الطرف يصيب بصفة خاصة أقصى نهايات الأطراف العليا[١٢٥]. وحسبما يقول المصريون، فإن المسئول الأول عن هذه المتاعب كائنات حية مسببة للمرض، هى الستيت، التى تكفل القنوات (مت) انتشارها ووصولها حتى الذراعين، وبذا تسبب ارتعاشا، سيداو: "(علاج) آخر للتخلص (من المادة التى تسبب) الارتعاش والذى يوجد فى الأصابع..." (بردية إيبرز رقم ٦٢٣).

"(علاج) آخر للتخلص من المادة (داوت) التى توجد فى أى مكان كان من جسم الإنسان..." (بردية إيبرز ٦٢٥).

ما هى منزلة المعوقين ؟

المشوهون: القزم ، والأحدب، إلخ

ربما كانت التشوهات تظهر منذ الطفولة. فماذا كانت ردود أفعال المحيطين؟ إن الآراء متباينة فى هذا. فحسبما يقول ديروسن - نوبلكورت[١٢٦]، كان وجود تشوه أو عاهة فى السنوات الأولى من العمر يعتبر دليلا على نعمة إلهية ويوحى بالاحترام. ومن جانب آخر يبرز ديودور الالتزام الواقع على الأبوين بتغذية كل الأطفال الذين كانوا يولدون[١٢٧]. ولكن حسب رأى جويلميت أندرو[١٢٨]: "كان الأطفال المعاقون والمشوهون يهجرون، ويرون أن الآلهة نبذتهم، وكانت هذه الكائنات غير الطبيعية يقارنون بالخشبة الملوية التى لا تصلح لشىء[١٢٩]".

وهكذا، كان الطفل قد يشب وهو أحدب. وقد خضع هذا التشوه العظمى لعمليات تصوير عديدة، منها تمثال صغير من عصر ما قبل الأسر، محفوظ حاليًا فى متحف بروكسل، يمثل رجلاً مصابًا بتشوه فى العمود الفقرى العلوى، بصدر شديد البروز ويمكن أن نجمعه مع الجنايني الأحدب المصور فى مقبرة ايبى، المحفوظ حاليًا فى متحف متروبوليتان للفنون فى نيويورك، وعازف الهارب الذى تظهر صورته على حطام

وعاء فخارى، والمصاب بتشوه فى العمود الفقرى، لا شك أنه ناتج عن مهنته. وتؤكد المومياوات وجود هذه الأورام العظمية. وهكذا اكتشف سميث وداوسون ثلاث حالات لسرطان العظم فى مومياوات من الأسرة الخامسة، اثنتان منها فى الطرف العلوى لعظم العضد وواحدة فى عظم الفخذ(١٣٠). كما وردت تقارير عن أمراض أكثر ندرة فى العمود الفقرى، مثل ذلك الذى كان يعانى منه طفل من الأسرة الثانية عشرة، مصاب بمرض لوبستين (مرض العظام الزجاجية).

وهناك تشوه آخر هو التقزّم لكن من الصعب لأقصى حد أن نجد انطلاقًا من قراءة البرديات الطبية، وصفا يمكن أن يتطابق مع الاضطرابات الأيضية والمتعلقة بالغدد الصماء. ومع ذلك، يتيح التصوير الفنى، والنقوش قليلة البروز والتماثيل التوصل لعدد من الاضطرابات الأيضية التى قد تسبب التقزم. وتبين رسالة الشكر الموجهة من بيبى الثانى إلى حيرخوف لأنه جلب إليه قزما (دينج كما كان يسميه المصريون) إن صحبتهم كانت مطلوبة وتحظى بالتقدير. وكان الأقزام المصابون بنقص التعظم الغضروفى، أو النيمو، يكلفون بأعمال محددة، مثل الإشراف على خزانة الملابس الخاصة بسادتهم وحمايتها وأعمال الصياغ، وكان يتعين عليهم أن يضموا إلى هذه الأنشطة دور المهرج والنديم بدءا من الإمبراطورية الوسطى. وإذا كانوا مندمجين جيدا فى المجتمع المصرى، فقد شغلوا أحيانًا مواقع يحسدون عليها مثلما فعل سينب، وهو كاهن جنائزى لقبر سيد كبير فى الأسرة الخامسة الذى صور جالسا إلى جوار زوجته وخنمحوتب(١٣١).

وهناك تشوه أخير مشهور ذلك الذى يترك آثار شلل الأطفال. وهكذا، فإن نصبا جنائزيا يرجع تاريخه إلى الأسرة التاسعة عشرة يصور راما وهو بواب سورى وهو يقدم قربانا للإلهة عشتارت(١٣٢) فى صحبة زوجته وابنه، وعصا فى يده، تستخدم بلا ريب كعكاز لتعويض طرفه الأسفل الأيمن الضامر وقدمه الفجحاء المشوهة من جراء شلل الأطفال(١٣٣). ويمكن أن تكون مومياء الفرعون رمسيس سبتاح، الذى مات فى نحو الخامسة والعشرين، حالة أخرى، بقدمه اليسرى المنقبضة الفجحاء وساقه القصيرة والتى تم تعويض قصرها بإطالة مفرطة للعقب والقدم(١٣٤). هل كان ذلك يتعلق بشلل الأطفال أو تشوه وراثى؟ يصعب الاستنتاج(١٣٥).

حالات مصورة

يقدم الملوك والملكات أمثلة مصورة لهذه التشوهات. وفيما يلى اثنان كانا موضع تعليقات وفيرة ويستثيران المشاعر.

وهكذا، فإن النقوش قليلة البروز للملكة حتشبسوت فى الدير البحرى، التى تصور ملكة بلاد بنت، تثير كثيراً من التساؤلات. فإضافة إلى ثنيات من الشحوم على البطن، وثديين كبيرين ومتهدلين، نجد أن هذه السيدة ذات القامة العادية كانت مشوهة بانتفاخات شحمية ضخمة تغمر ذراعيها وفخذيها وتمتد إلى قرب الركبة، تاركة الأطراف سليمة نسبيا. وأخيراً، كانت تعانى من فرط انحناء العمود الفقرى للأمام، فى حين كان الحوض محدوفا تماماً للوراء. والفرض الأول: هو أن ملكة بلاد بنت كانت من قبائل هوتنتوت فى جنوب أفريقيا؛ وهو تفسير يمكن قبوله، لأننا نجهل أين تقع بلاد بنت تحديداً : فى أريتريا، فى اليمن، فى جنوب السودان أو فى جنوب أفريقيا. لكن أرداف نساء الهوتنتوت، صغار القامة، كانت بمثابة كتلة شحمية كبيرة، تسمى فى لغة الطب تشحم الردف. لكن الملكة، وهى أكبر، لا تعطى هذا الانطباع إلا بسبب انحناء مفرط للعمود الفقرى للأمام.

وهناك فرض آخر: قصور الغدة الدرقية وأمراض الجلد ونقص النشاط الناجمة عنه أو أيضا نقص التعظم الغضروفى؛ ولكن الفرض الأكثر أهمية يذكر مرض دركوم، بعبارة أخرى الورم الشحمى المؤلم الذى يرتبط بالسمنة، وهو كتل دهنية مؤلمة سائدة فى البطن وفى الجزء القريب من الأطراف والوهن العضلى. ومن جانب آخر، فقد صور الفنان الألم الذى كانت تعانيه ملكة بلاد بنت، فقد اهتم أن يصور وراءها حمارا مسرجا كركوبة.

ولننقل حالياً إلى سيد مهاب شريف، "حالة إخناتون". لقد أثار تنوع تشوه شكله كثيرا من الأسئلة خاصة وأن المومياء الخاصة به لم يتم العثور عليها حتى الآن[١٣٦]. ومما يثير الفضول، أن وجهه ذا الملامح المستطيلة، وذقنه البارزة، الناتئة والنحيلة على رقبة هزيلة وطويلة، وصدره النحيل، وبطنه المقببة، وحوضه الواسع وتضخم أثدائه بصورة كبيرة، ذلك هو ما نجده فى كل صور هذا الفرعون[١٣٧]: بل إن أعضاء التناسل

لم تكن ظاهرة فى تمثال له صوره عاريا. ومن ثم تساءل بعض المؤلفين عن هذا التصوير الخنثى لإخناتون، وربطوا ذلك بمختلف المقولات التى تؤكد احتمالات عقمه. والواقع أنه أثير الجدل حول قرابة الأطفال الستة الذين جمعوه بنفرتيتى، ولم يستفد أى منهم بلقب ابن. إنه لم يحتفظ بحريم مثل والده أمينوفيس الثالث، ولم يتزوج بأميرة أجنبية، وهى وسيلة دبلوماسية كانت جدّ شائعة. وأخيراً دعا أخاه ليشاركه فى الحكم، فى سن كان لا يزال فيه يستطيع أن يأمل فى إنجاب وريث ذكر.

وقد أشارت فروض(١٣٨) مختلفة نسجت حول موضوعه إلى إصابته بمرض العملقة، بسبب نتوء الفكين وانفتاح زاوية الفك وكبر حجم الأذنين، أو أيضًا أعراض كلينفلتر بسبب مظهر الخصيان البادى عليه وتضخم الثديين وهزال الخصيتين. وقد تم البحث عن أسباب أخرى للأمراض مثل ورم الخصيتين أو الغدة الكظرية أو الأعراض المتوازية مع السرطان والتى تختفى باجتثاثه (إفرازات LH-Like) ولكن عدم وجود المومياء، التى لا يزال اكتشافها غير محتمل، يقوض كل هذه الفروض، وتصوير لحية إخناتون على حطام فخارى يثير الشك فى كثير من التشخيصات. والأمر الأكثر احتمالا هو أن إخناتون كان يعانى من متاعب معقدة فى الغدد الصماء، يصعب تحديدها بأثر رجعى. ومن ثم لا جدوى من تأسيس فروض على التصاوير الفنية حيث تختلط الواقعية المتفاوتة الحدة مع الرمزية.

وعلى وجه القطع، فإن مفتاح اللغز يكمن احتمالا فى فحص أسرة إخناتون، وبصفة خاصة إخوته الأشقاء وغير الأشقاء، سمنخارع وتوت عنخ آمون، مع بقاء هوية الأم غير معروفة. وتبين مومياء سمنخارع الذى مات شابا (نحو ٢٥ سنة)، وبدون أولاد، رغم حالتها المؤسفة، هيكلا عظميا نقول بحذر إنه شبيه بالنساء وبروز فى الفكين يبدو أنه يؤكد التصوير الفنى، أو يظهر ببطن ووركين مدورين وثديين كبيرين. وتبين مومياء توت عنخ آمون، الذى مات هو أيضًا فى سن الشباب (نحو ١٩ عامًا)، دون نسل أيضاً، أن قطر الكتفين يكاد يقارب قطر الفخذين. وهنا أيضا يظهر التصوير الفنى كبر حجم الثديين على نحو متحفظ. خلاصة القول، إن أوجه التشوه هذه فى حدها الأدنى لدى من يحتمل أنهم كانوا أشقاء لإخناتون تبين وجود مرض فى الأسرة.

ومع ذلك، يجب عدم تجاهل أن التصوير الفنى يمكن أن يعكس أسلوبا خاصا، كان يعيد إنتاج نفس المظهر المثالى، مظهر إخناتون. وهكذا، فإن آنى، خليفة توت عنخ آمون، والذى لم تربطه قرابة بالفراعنة السابقين، صور على النقوش قليلة البروز قبل وصوله للتاج ببطن بارزة وثديين كبيرين بتحفظ.

بعض التشوهات العصبية

وهنا أيضًا، لدينا بعض المعلومات المتناثرة عن هذه المعوقات والتشوهات العصبية، أساسًا انطلاقًا من دراسة المومياوات.

وهكذا، فإن الاستسقاء الدماغى المفترض من حالات معينة تم بحثها، أثار العديد من المناقشات. وقد وصف د. ى. ديرى حالة منه، اكتشفت فى مومياء لمراهق شاب من الفترة الرومانية: وكان حجم علبة الجمجمة ٢,٩ لتر ومن ثم كان الشاب يعانى من شلل نصفى أيسر، مثلما توضح عظام الأطراف والحوض، الأكثر نحولا فى اليسار عنها فى اليمين[١٣٩].

وفى أوضاع أخرى، استطاع هذا التشخيص أن يتقدم دون تحديد نهائى قاطع: فقد كانت مومياء سمنخارع، خليفة أمينوفيس الرابع، وتحديدا هيكله العظمى، والتى وجدها ج. إليوت سميث فى تابوت حجرى باسم تيى[١٤٠]، شبيهة بالنساء، بحوض كبير وإخصاء يزيد مداه على ١١ سم فى تمثاله. ويبين فحص الجمجمة بروزا فى الفكين مع نتوء الفك الأسفل وكبر حجم الصدغ وأقواس الحاجب وعظام الوجنات. وإزاء هذه الأعراض المختلفة، تحدث ى. سميث وفيرجسون عن الاستسقاء الدماغى دون أن يتمكنا من إثبات تشخيصهما، خاصة عن طريق التصوير بالأشعة[١٤١]. ولإثبات وجود تشوهات أخرى، يمكن أن نذكر بين أشياء أخرى اكتشافات بروثويل وأ.ت. سانديسو، اللذين وجدا فى هيرموبوليس جسدًا صغيرًا مصابًا باستسقاء دماغى بين مومياوات قرود[١٤٢]، أو أيضًا الدراسة التى أجراها جراى على المومياوات باستخدام الأشعة والتى كشفت عن عدة حالات من الصلّب الأشرم[١٤٣].

ومن جانب آخر، فإن جمجمتين وجدتا فى مكانين مختلفين فى ١٩٤٩، توضح كل منهما فرط التعظم الجمجمى: وكانت إحداهما ترجع إلى الأسرة الأولى، وتصور هيكلا عظميا به إصابة تشير إلى ورم سحائى تحتى، والأخرى ترجع للأسرة العشرين، ويبدو أنها تشير إلى وجود ورم وعائى فى الحنك[١٤٤].

العميان

توافرت للمصريين الذين كانوا عادة ما يستخدمون رسم الموسيقى الأعمى فى صناعة الأيقونات، معارف طبية حول هذه المسألة، كما حددوا العمى النهارى، وفقد الرؤية ليلاً، باسم شارو وعالجوه بتناول الكبد وهو غذاء معروف بغنائه بفيتامين أ[١٤٥].
"(علاج) آخر (للمادة الخبيثة التى تسبب) الشارو الذى يوجد فى العينين: كبدة ثور محمرة مستنزفة. ويوضع (هذا) عليها (العين). وهو علاج فعال حقًا" (بردية إيبرز ٣٥١)[١٤٦].
"(علاج) آخر: كبدة عجل، توضع على نار تبن القمح النشوى أو الشعير، يدخن بدخانه، ويضغط على عصيره ليقطر فى العينين" (بردية لندن ٣٥)[١٤٧].

الهوامش

(1) C. Desroches-Noblecourt, Lafemme au temps des pharaons..., op. cit, p. 221.
(2) P. Grandet, Lafemme au temps des pharaons, Seuil, p. 149.
(3) G. Rachet, Dictionnairc..., op. cit., p. 156.
(4) P. Martinez, Egypte..., op. cit., p. 92.
(5) P. Morice, La gynecologic..., op. cit., p. 66.
(6) Sur une stele du temple Philae, dedie en partie a Khnoum, il est d'ailleurs mentionne: «C'est lui (Khnoum) quifait que la semence du roi soit liee dans le venire (de ses epouscs)»; voir a ce propos l'analyse de R. Sullivan, «Divine and rational: the reproductive health of women in ancient Egypt», Obstetrical & Gynecological Survey, oct. 1997, 52 (10), pp. 635-42.
(7) P. Martinez, Egypte..., op. cit., p. 92.
(8) Papyrus Berlin 199.
(9) H. Grapow (H. Von Deines et W. Westendorfcoll.), Grundriss der mede-un der alien Agypter, Berlin, Akademic Verlag, 1954-1962.
(10) J. Thorwald, Histoire ..., op. cit.
(11) P. Ghaliounghi, P. Khalil, AR. Ammar On an Ancient Egyptian ..., op. cit.
(12) S. Sauneron, Les dix mois precedents la naissance, BIFAO, 1959, 58, pp. 33-34.
(13) P. Morice, P.Josset.J.-G. Colau. «Gynecologic et obstetrique dans Fan-cienne Egypte», Journal de Gynecologic Obstetrique et Biologic de la reproduction, 1994, 23(2), pp. 131-136.
(14) P. Morice, La gynecologic..., op. cit., pp. 70-71.
(15) Le papyrus Berlin 196 (verso, 1,9-11) reprenant une partie du texte du papyrus Kahoun 26 (3,12-14).
(16) P. Morice, P.Josset.J.-C. Colau, art. cit., pp. 131-136.
(17) J. Guiart, L'obstetriquc dans Fancienne Egypte, Acte du 2*' congres international d'Histoire de la medecine, 1921, pp. 54-63.
(18) Il est represente sur la scene de Louxor et de Deir el- Bahari et est sous-entendu par le hieroglyphe qui date de cette periode.
(19) P. Hennequin, Sante..., op. cit., p. 100.
(20) Papyrus Ebers (94, 14-15, glose 800).
(21) Papyrus Ebers 789 (98, 18-20).
(22) P. Hennequin, Sante..., op. cit., p. 90.

(23) Papyrus Ebers 839 (97, 14-15).
(24) Papyrus Ramasseum IV C, pp. 17-24.
(25) Papyrus Ebers 838, 97, pp. 13-14.
(26) Papyrus Ramasseum IV C, pp. 15-16
(27) G. Posener, «L'attribution d'un nom a l'enfant», Revue d'Egyptologie, 1970, pp. 20-25.
(28) E. Suys, La sagesse d'Any: texte, traduction et commentaire, Pontificion Institute, Roma, 1935, pp. 1-59.
(29) R.Janssen, Growing up in Ancient Egypt, London, 1990.
(30) Papyrus Ebers 837 (97, 11-12).
(31) Papyrus Ebers 796 (94, 8-10).
(32) Papyrus Ebers 811 (95, 7-14).
(33) Papyrus Ebers 810 (95, 7-14). Cette recette, qui devait apporter un certain soulagement, figure aussi dans le papyrus Berlin 17 (2, 3-4).
(34) Papyrus Ramasseum III B.
(35) F. Jonckheere, Les medecins..., op. cit.
(36) B. Romant, La vie en Egypte aux temps antiques, Minerva, 1982, p. 13.
(37) Ibid.
(38) A notre connaissance, il existe peu de papyrus medicaux faisant mention de remedes expressement destines a soigner des enfants.
(39) Papyrus Ebers 782 (93, 3-5) Cette glose etant inseree dans des para-graphes du papyrus Ebers traitant des affections des oreilles (cf. infra), l'en-fant en question pourrait etre atteint d'une otalgie.
(40) Papyrus Ebers 273 (4, 21-50, 2). Cette incontinence urinaire correspond peut-etre a une enuresie.
(41) Papyrus Ebers 272 bis (49, 18-21).
(42) Papyrus Berlin 3027 (verso 82-3).
(43) E. G. Smith, W. R. Dawson, Egyptian mummies, Londres, Alien G and Unwin ed, 1924.
(44) P. Hennequin, Sante..., op. cit., p. 134.
(45) Papyrus Ebers 763 (90, 15-91).
(46) Papyrus Ebers 418 (63, 2-3), 761 bis (90,14) et Ebers 762 (90, 14-15).
(47) Papyrus Berlin 204 (verso, 3, 1-12).
(48) Papyrus Ebers 766 (91, 5-19).
(49) L'etude des momies a livre un certain nombre d'informations inte-ressantes sur ces lesions irreversibles: des manifestations d'otite et de mas-toidite ont etc retrouvees sur PUM II; par ailleurs, Fotoscopie d'une momie par W. E Pirsig a mis en evidence des perforations multiples du tympan, que le chercheur attribue a une tuberculose de la caisse. Un examen par scanner a en effet mis en evidence la presence de tumours benignes et malignes des sinus maxillaires.

(50) J. Willemot cite par Pascal Hennequin, op. cit., p. 137.

(51) Ibid,p.l33

(52) De Simpl. 11,35.

(53) Papyrus Ebers n°325.

(54) Winter L'hygiene dans l'Egypte Pharaonique, These de docteur en medecine, 1972, Paris Cochin-Port Royal, n°115.

(55) Dans «Ancient Egyptian Physicians», Brit Med Journal, 1926, 1, 706. E.M. Guest cite ainsi le nom d'un medecin qui portait le titre de «Directeur de la fumigation pour le Palais».

(56) Papyrus Hearst 168 (11, 10-11).

(57) Papyrus Hearst 169 (11, 11-12).

(58) Papyrus Berlin 3027 (1, 4-9).

(59) Papyrus Londres 6 (3, 1-5).

(60) P. Hennequin, op. at., p. 130.

(61) P. Belmondo, Nosologie Egyptienne, These de docteur en medecine, Aix Marseille, 1989, pp. 32-69.

(62) Papyrus Ramasseum III B 20-23

(63) Papyrus Berlin 3027, 7, 1-3.

(64) P. Hennequin. Sante..., op. cit., p. 127.

(65) H. Grapow, H. Von Deines, W. Westendorf, Grundriss der medezin der alien Agypter, Berlin, Akademic Verlag, 1954-1962.

(66) T. Bardinet, Les papyrus..., op. cit.

(67) Herodote, dans son Enquete, a etabli le fait que: «Les Pheniciens et les Syriens de Palestine reconnaissent qu 'ils tiennent cet usage (la circoncision) des Egyp-tiens». Diodore de Sicile et Strabon (XVI, 4,17) estimaient que les Hebreux avaient ramene cette pratique d'Egypte.

(68) Bellouard, Le dossier medical des pharaons de la Haute Epoque, These de docteur en medecine, Paris VI Broussais, 1986, n°41, p. 48.

(69) E. A. Grossman, N. A. Posner, The circumcision controversy: an update, Obstet-GynecolAnnu., 13, 1984, pp. 181-195.

(70) S.J. Waszak, «The historic significance of circumcision», Obstet Gynecoi, Avril 1978, 51(4), pp. 499-501.

(71) A. N. Ghanem. «The urology of Pharaonic Egypt». British Journal of Urology, mai 2000, 85 (7), p. 974.

(72) Herodote, Thucydide, op. cit.

(73) J. Thorwald, Histoire..., op. cit.. p. 53.

(74) J. F. Nunn. Ancient Egyptian medicine, 1996, University of Oklahoma Press, p. 169.

(75) Une deuxieme scene datant du Nouvel Empire (vers 1350 av.J.-C.) qui represente la circoncision de deux enfants de Ramses II a ete decouverte dans Fenceinte nord-est du temple de Mont a Karnak; cf. F. Chabas, «De la circoncision chez les Egyptiens», Revue d'Archeologie, 1861, III, 298-300.

(76) Papyrus Ebers 833 (97, 1-7).

(77) C. Desroches-Noblecourt, Lafemme..., op. cit., p. 269.

(78) Ibid.

(79) Ibid.

(80) G. Bontemps, La medecine..., op. cit, SI.

(81) Ibid.

(82) Ibid.

(83) La valeur magique accordee a ce chiffre explique peut-etre la nume-rotadon du papyrus Ebers jusqu'a 11. alors qu'il ne comporte que 108 pages.

(84) Papyrus Anastasi III.

(85) G. Bontemps, La medecine..., op. cit.

(86) L. Balout, La momie de Ramses II..., op. cit.

(87) E Jonckheere, «Le monde des malades dans les textes non medi-caux», Chronique d'Egypte, 1950, 25, pp. 212-232.

(88) M. Masali, B. Chiarelli, «Demographic data on the remains of Ancient Egyptians», Journal of Human Evolution, 1972, 1, pp. 161-169.

(89) A. P. Leca, La medecine egyptienne..., op. cit., p. 407.

(90) Quoique l'epiderme fasse defaut et malgre les produits d'embaume-ments qui colorent et durcissent la peau, le diagnostic macroscopique des lesions cutanees, meme difficile, reste interessant.

(91) G. Bontemps, La medecine..., op. cit., p. 152.

(92) Herodote, Thucydide..., op. at.

(93) L. Balout, La momie de Ramses II..., op. cit..

(94) Papyrus Ebers, n°459.

(95) Ainsi, PH Gray («Radiography of ancient Egyptian mummies», Med Radiogr Ph togr.,1967, 43(2), pp. 34-44) a mis en evidence de nombreux cas d'arthrose aux hanches et meme aux epaules sur les momies dont il a realise les bilans radiologiques.

(96) S. R. Andersen, «The eye and its diseases in Ancient Egypt», Acta Ophthalmologica Scandinavica, Juin 1997, 75(3)m pp. 338-344.

(97) Papyrus Ebers n° 334 et n° 417.

(98) P. Ghalioungui, La medecine..., op. at.

(99) G. Lefebvre, Essai sur la medecine..., op. cit., p. 83.

(100) Riad Naguib, La medecine..., op. cit., p. 261.

(101) Glose Ebers n° 417.

(102) «Et ensuitefont quo se developpe centre lui toute alteration dufcdt qu'il est noye sous le sang» (papyrus Ebers n° 854 1).

(103) Glose Ebers n° 855d.

(104) Glose Ebers n° 855[e].

(105) Ebers n° 855 p: «Quant an fait quo le cceur (haty) de Uhomme soit a sa bonne place, cela signifie quo la masse du cceur (haty) se trouve dans le cote gauche de rhomme et qu i7 nepeut ni monter ni descendre pour la raison qu'il est fixe a sa bonne place.»; Papyrus du Louvre n° 3279: «faispour moi que mon interieur-ib soil fixe a sa bonne place».

(106) Glose Ebers n° 855.

(107) La glose Ebers n° 227 evoque un remede destine a «ecarter l'oubU du cceur, lafuite du cceur et la piqure du cceur» qui pourrait correspondre soit a des palpitations, soit a des precordialgies, voire a des extrasystoles symptoma-tiques. Elles se manifestent en general par des sensations desagreables de siege thoracique a type de pincement, par des douleurs en eclair hemitho-raciques gauches tres localisees ou encore par l'interruption apparente du rythme cardiaque, suivie d'un ou deux battements plus forts.

(108) Glose Ebers n° 855q.

(109) Papyrus Ebers n° 191; on aura reconnu la description caracterisee de ce type de douleur, avec son siege medio-thoracique voire thoracique. Lateralisee a gauche, elle irradie sur le membre superieur.

(110) Autres effets des troubles cardiaques evoques: la constriction thoracique ou «l'interieur-ib de l'homme est etrangle» decrite dans la glose Ebers n° 855 k.

(111) Glose Ebers n° 278.

(112) J. T. Willerson. R. Teaff, «Egyptian contributions to cardiovascular medicine», Tex Heart InstJ., 1996, 23(3), pp. 191-200,

(113) Papyrus Ebers n° 880 IH.

(114) G.P.Menard. op. cit.

(115) qA. P. Leca .La medecine..., op. cit

(116) Glose Ebers 855b

(117) M. E. Salem, G Eknoyan, «The kidnev in ancient Egyptian medicine:where does it stand?», A.J. NephroL, 1999, 19(2), pp. 140-147.

(118) Les calculs urinaires ne semblent pas frequents, comme le suggere une etude de EG Smith et WR Dawson (Egyptian mummies, Londres, G. Alien and LJnwin, 1924) realisee sur 30 000 momies examinees, qui a mis en evidence seulement 3 calculs renaux et deux vesicaux. M.A. Ruffer, de son cote, (Studies in the paleopathology of Egypt, edite par R. L. Moodie Chicago, University of Chicago Press, 1921) en a retrouve trois dans une momie dont F analyse a permis de detector la presence de phosphates et d'acide urique en peripherie.

(119) Ebers 261, 262, 263, 270, 271 et 283.

(120) A. N. Ghanem, «The urology of Pharaonic Egypt», BJV International mai 2000, 85(7), p. 974.

(121) C'est Fhypothese soulevee parJ. F. Nunn..., op. at.

(122) Papyrus Ebers n° 855u.

(123) Papyrus Ebers n° 855h; voir a ce propos E Boiler , M. M. Forbes. «History of dementia and dementia in history: an over vievf». Journal of the Neurological Sciences, Juin 1998, 58(2), pp. 125-33.

(124) Il est evoque a plusieurs reprises dans le traite des oukhedous (papyrus Ebers n° 856 a-h): «S'il est atteint a son epaule et que ses doigts tremblent» (Papyrus Ebers n° 856f)

(125) S. Alamovitch et N. Danziger. Estem- Medline, Paris 1995, p. 88.

(126) C. Desroches-Noblecourt, Lafemme..., op. dL.

(127) Diodore de Sicile..., op. cit.

(128) G. Andreu, Images..., op. cit., pp. 8-23.

(129) G. Saint-Hilaire, «Note sur un monstre humain trouve dans les ruines de Thebes». Bulletin des sciences medicates et archives generates de Medecine, 1826, tome 8,105.

(130) E. G. Smith et W. R. Dawson, Egyptian mummies, Londres, G. Alien and Unwin, 1924.

(131) V. Dasen, Dwarfs in Ancien Egypt and Greece, Clarendon Press, Oxford, 1993.

(132) J. E Nunn, Ancient Egyptian ..., op. cit., p. 77.

(133) Un autre cas de poliomyelite a etc evoque devant F aspect de Semenkhkare.

(134) G. Bontemps ..., op. cit., p. 165.

(135) A noter aussi une vieille momie datant de 3700 av.J.-C. decouverte a Deshasheh par Sir Flinders Petrie au debut du siecle, qui presente au niveau du femur gauche un raccourcissement de 8 cm et un amincissement par rapport au femur droit

(136) J. H. Leavesley, «Akhenaton», ModJournal ofAustralia, Avril 1985, 15, 142 (8), pp. 475-64.

(137) A. Weigall, «The mummy of Akhensiton», Journal ofegyptian Archeology, London 8, p 193-199.

(138) G. B. Risse, «Pharaon Akhenaton of ancient Egypt: controversies among Egyptologists andphysicians regarding his postulated illne&s»,J Htst,Med Allied 5c?., Janvier 1971, 26(1), pp. 3-17.

(139) W. Wreszinski, Der papyrus Ebers; Umschrift, Ubersetzung und Kommentar, Leipzig, J.C. Hinrichs, 1913.

(140) Cette momie a etc prise au debut pour celle de Tiyi. Cependant, Fage osseux d'environ 25 ans fait quo la plupart des auteurs considerent qu'il s'agit bien de celle de Semenekhore.

(141) A. Bellouard, Le dossier medical des pharaons de la Haute Epoque. These de docteur en medecine, Paris VI Broussais. 1986. n° 41 p 63.

(142) D. Brothwell, A. T. Sandison, op. cit.

(143) P. H. Gray, «Radiography of ancient Egyptian mummies.» Medical radiography and photography, 1967, 43, pp. 34-44.

(144) A. P. Leca ,La medecine..., op. cit., p. 322.

(145) G.Wolf, «A historical note on the mode of administration of vitamin A for the cure of night blindness», American Journal of Clinical Nutrition, Fevrier 1978, 31(2), pp. 290-292.

(146) T. Bardinet, Les papyrus medicaux... op. cit., p. 304.

(147) Ibid.

٤ - مخاطر المهنة

ماذا تفعل فى الحياة؟

لفهم مشاكل الصحة لدى المصريين، يبدو لنا من الملائم أن نسترجع الأسلوب الحالى لكل الأطباء فى ممارساتهم اليومية. وهذا الأسلوب يتمثل فى سؤال مرضاهم عن المهنة التى يمارسونها حيث إنها تحدد المخاطر التى يتعرضون لها وتشكل البيئة الأساسية لهم.

صيد الأسماك على ضفاف النيل

فيما عدا الملوك والكهنة، الذين كانوا يعتبرون تناول السمك من المحظورات، كان المصريون يقدرون السمك ويمارسون الصيد كنشاط شائع، خاصة على ضفاف النيل، أو فى مستنقعات الدلتا[١]، فى مياه قليلة العمق، بين أبسطة اللوتس والأدغال، أو على نطاق أوسع، فى زوارق من البردى[٢].

وشيئًا فشيئًا، أقامت السلطة المركزية مصائد أسماك عملاقة، حيث حلت الشباك الواسعة محل خطاف صيد الأسماك الكبيرة والشص المصنوع من العظم أو الأصداف. وبدلا من أن تسلم الأسماك مباشرة على عصا طويلة أو قفف لرؤساء العمال الزراعيين، مثلما كان يحدث قبلا، أصبحت تجفف وتعبأ فى علب[٣]. لكن هذا التقدم لم يغير أبدا ظروف حياة الصيادين، القاسية دوما، مثلما يوضح جويلميت أندرو[٤] : "إنهم صغار الناس الذين يعملون فى أطقم ويتلقون أجرًا عبارة عن حصة من إنتاج صيدهم كجراية. لا شىء يميز الصياد. فهو مثل راعى الثيران، يمضى عاريًا، يحمل وزرته، ملفوفة حول كتفيه."

عضة التمساح

كانت التماسيح التى تتكاثر على ضفاف النيل، تسبب الرعب للصيادين، رغم أنهم كانوا يحملون تمائم تحميهم[٥]، وتجعل هذه المهنة خطيرة بشكل خاص، إذا ما أخذنا بأهجية المهن: "سأذكر لك الصياد بالمثل، وهو الأشد تعاسة بين كل المهن. فالنهر هو المكان الذى يعمل فيه، بين التماسيح..."[٦].

وعلى سبيل الوقاية، كان هناك حلّ واحد: اصطياد هذه الوحوش الضارية. "وكان للمصريين طرق كثيرة لاصطيادها، وسأصف تلك الطريقة التى تبدو لى الأكثر كفاءة. فبعد أن كان الصياد يزود الشص بالطعم المأخوذ من العمود الفقرى لخنزير، كان يتركه يذهب فى وسط النهر؛ ويقف هو على الشاطئ ممسكا خنزيرا صغيرا حيا ويضربه. وعندما يسمع التمساح صراخه يسرع نحو المكان الذى يأتى منه، وعندما يقابل الطعم يبلعه، وعندئذ يسحبه الرجال من الماء..."[٧] ولا ريب أنه فى حالة عضة التمساح، كان الضحية يعالج بالدواء التالى[٨] : "هذا ما ينبغى عمله لعضة التمساح. إذا شرعت فى فحص عضة التمساح ووجدتها، ولحمها، ممزق (حرفيا: "ملقى به")، فى حين أن جانبيها (الجرح) متباعدان، يتعين عليك أن تنظفه وتضمده باللحم الطازج فى المحل الأول مثل أى جرح".

وإضافة للمستحضرات، كان فى مقدور الطبيب والضحية أن يتوجها إلى سبيك، الإله الذى له رأس تمساح، بالصلاة طلبًا للشفاء.

البول المدمم

إن بلهارسيا المجارى البولية مرض من أمراض الطفيليات تسببه المنشقة الدموية، التى لا تزال تعيش فى حالة متوطنة فى مصر حاليًا حيث تصيب ١٢ فى المائة من السكان[٩]. وكان لابد أن يكون الصيادون هم الضحايا الأول لهذا المرض. وكل الشواهد تجعلنا نعتقد أن المصريين المنحدرين من طبقات اجتماعية اقتصادية ميسورة الذين كانوا يحظون بالتحنيط، كانوا أقل تعرضًا للإصابة ببلهارسيا المجارى البولية : وذلك يفسر ندرة الإصابة بها بين المومياوات التى جرى فحصها. لكن الرسوم البارزة

على مقبرة بتاح - حوتب ومقبرة عنخا - ماهو فى سقارة[١٠]، تصور أشخاصاً مصابين بزوال ثنيات السرة أو تمدد البطن، الذى يمكن عزوه إلى ارتفاع ضغط دم بابى يرجع لأعراض متأخرة للإصابة بالبلهارسيا.

وكان وجود الدم فى البول هو العرض الأول لهذا المرض، وهناك عدد معين من المقاطع التى تعالج هذه المتاعب البولية، وردت تحت مصطلح "تركز "حنياو" التى ترجمت أحياناً إلى "الدم"[١١]. وإذا كان هذا المرادف اللغوى دقيقا، فإن الفقرة التالية تبين لنا علاجا لوجود الدم فى البول "(علاج) آخر يتم تحضيره لمن أصيب بالتركزات-حنياو (الدم؟) فى بوله: كبد ثور: ١ ؛ نبات (إينست) : ١. ويوضع هذا فى شكل قالب معجنات (بات)، ثم يؤكل." إيبرز ٢٦٧ (٤٩، ١٠ - ١١).

ويبين هذا النص الثانى أن وجود البول فى الدم علامة على فرط الدم : "دواء آخر لعلاج بول الرجل الذى يوجد به (دم) زائد: نبات السعد القابل للأكل : ١؛ فاكهة (بيريت - شينى) : ١؛ جذر نبات (بيحيح) : ١، يتم جرش (هذا) فى كتلة متجانسة، تترك لتستقر فى بيرة حلوة، ثم تشرب حالما يرتفع ما فى القاع"[١٢].

وإذا كنا نجد قليلاً من النصوص تتحدث عن وجود البول فى الدم فى البرديات الطبية، فربما يعنى هذا أن المصريين لم يعتبروا هذه العلامة دوما دليل مرض. وكان هذا العرض، الذى يصيب الشبان بصفة خاصة، يعتبر نوعا من "الدورة الشهرية للرجال" تميز الانتقال من الطفولة لسن الرشد، خاصة بالنسبة لسكان الريف.

مرض عاع

كل شىء يجعلنا نعتقد أن مرض (عاع) الذى ذكر مرات عديدة فى البرديات الطبية[١٣]، والذى ترجمه عالم المصريات الألمانى الشهير بروجسن "بالمرض الإلهى المميت"، يتطابق مع عنصر ممرض قادر، بتأثير أحد الآلهة أو أحد الموتى، على التسبب فى، أو تنشيط، أمراض طفيلية، منها البلهارسيا[١٤]. وقد ربط عدد معين من النصوص التى وردت فى بردية إيبرز ذلك بالمتاعب القلبية : "(علاج آخر للتخلص من السائل (عاع)

الذى يوجد فى القلب (حاتى)، وللتخلص من فقد الذاكرة، فاكهة الباطن (حاتى)، درزة الداخل (آيب): نبات (إنيست): ١/٨؛ تين: ١/٨؛ كرفس: ١/١٦؛ طين أحمر: ١/٣٢؛ ناردين: (؟)، ١/٨؛ عسل: ١/٣٢ ؛ ماء: ١٠ رو..."(١٥).

و"فاكهة الباطن" (آيب) هذه يمكن أن تكون تسارع ضربات القلب، ألم فى منطقة القلب الأمامى ناجم عن الأنيميا(١٦). ولفهم العلاقة التى تحددت على هذا النحو بين القلب (حاتى) والبول، يجب استعادة المفهوم الفسيولوجى المصرى: فى منظور القدماء، كانت الأوعية السميكة تحمل الدم من القلب لتنتهى مباشرة فى المثانة، ولهذا السبب، كما قال جونكير(١٧)، كان الأطباء المصريون يفسرون هذا المرض باعتباره مرضًا طفيليًا يحتوى الماء على جراثيمه، وفى مقدوره أن يعدى الجسم الإنسانى عن طريق الحالب.

مصير الفلاحين

حتى لو كانت الزراعة تمثل الثروة الكبرى لمصر، وعلى الرغم من الجهود الواعية من جانب السلطة المركزية لتطوير نظام الرى وضمان تخزين المحاصيل احتياطًا للسنوات غير المواتية، لم يكن مصير الفلاحين مما يحسدون عليه فى مصر القديمة. ورغم كل شىء ، نلاحظ تحولات مرموقة على مرّ العصور.

ففى ظل الإمبراطورية القديمة، كان المرتو الذين ينتمون لوضع الأقنان يقومون بوظيفة المزارعين : إذ كانوا مقيدين بالأرض، وكانوا مكرهين على السخرة، وعلى دفع الضرائب وإعالة الموظفين تحت إشراف مستمر من الكتبة الملكيين ومراقبى العمال. وقد شهدت نهاية الأسرة الرابعة، تغيرًا فى ظروف الفلاحين، بإصدار امتيازات الحصانة. وتمتعوا خلال الإمبراطوريتين الوسيطة والحديثة باستقلال نسبى أتاح لهم الاستقرار فى الأراضى الخالية، مما قرّب وضعهم من وضع المزارعين. وكانت قطع الأراضى الخاصة بهم، الموضوعة تحت تبعية الممتلكات الملكية، الدينية أو الخاصة، مصنفة على نحو سليم فى سجل مساحى يحدد لكل منها الضريبة المفروضة: وكان رب كل أسرة مسئولاً عن قطعة الأرض الخاصة بها ومن ثم يلتزم بدفع رسم الانتفاع

ويقوم بما هو مفروض عليه من السخرة الإلزامية، لكنه كان يستطيع أن ينقل ممتلكاته إلى زوجته، أو أبنائه. ولكى نجد أفضل تصوير لهذه الحياة اليومية للفلاحين فى مصر القديمة، ينبغى قراءة المقطع المتعلـق بذلك فى كتاب أهجيـة المهن: "إن الفلاح يشكو بلا توقف، وصوته مبحوح مثل نعيب الغراب. وتتقيح وتتعفن أصابعه وذراعاه بصورة مفرطة. إنه متعب من كونه يظل واقفا فى الوحل السميك، مرتديا أسمالا بالية وثيابا رثة... وعندما يترك حقله ويعود لبيته فى المساء، يصل منهكا تماما من جراء السير"(١٨).

وإذا كان يلح هذا النص على صعوبات الحياة اليومية للفلاحين، فإنه يثير إجمالا أصداء ما تتعرض له صحتهم. لكن كيف كان يتم الاعتناء بالفلاحين؟ من كان مسئولاً عنهم فى حالة المرض والحوادث؟ إن الشهادات المتوافرة لنا تبين أنه كان هناك أطباء مكلفون بتقديم الرعاية الطبية داخل مجتمعات المزارعين. وهكذا فى ظل الأسرة الرابعة نجد أثر شخص معين اسمه متين، كان معروفًا بلقب سونوجيرجيت، كان يعتنى بالفلاحين العاملين فى أملاك عامة زراعية (جيرجيت)، مملوكة لأحد سادة الأبعديات.

الحيوانات ، بلاء حقيقى

ربما كان الفلاحون، مثلهم مثل الصيادين، يروحون ضحايا لبيئة معادية. وتصف أهجية المهن السابق ذكرها المخاطر التى كانت تتربص بالفلاحين خلال نهارهم الطويل والصعب. إذ كان يتعين عليهم أن يخشوا الحيوانات المتوحشة، خاصة الثعابين، التى كانت متكاثرة: "إن زراعة القمح تأخذ منه وقتا طويلا، لكن الثعبان كان يتعقبه ويأكل البذور فور أن يلقيها فى التربة..." والأكثر إثارة للفزع، الأسود، التى كان يتم الاعتناء بعضتها ببذل عناية موضعية ذكرت فى بردية هيرست (رقم ٢٤). لكن الفلاحين كانوا يتعرضون أيضا لهجوم الحيوانات المنزلية مثل الكلاب، الضالة وغير الضالة، أو أيضًا...الخنازير التى انتشرت تربيتها ابتداء من الإمبراطورية الحديثة. ولعلاج هذه العضات، والتى من المعروف أنها قد تسبب أمراضًا معدية خطيرة بسبب طبيعتها الملوثة "ينبغى عليك تضميدها باللحم الطازج [فى اليوم الأول]"(١٩).

أو أن تستخدم هذا "العلاج الآخر : الطين الأحمر الندى: ١ ؛ نبات (إبسا) : ١ ؛ دهن (ثور): ١؛ شحم / زيت: ١. ويتم طبخ هذا. نظف به وضمد"(٢٠).

وفى حالة عضة الكلب، يمكن أيضا ترديد صيغة سحرية، مثل تلك التى ترد فى كتاب السحر الديموطيقى المحفوظ فى لندن ولير (١٩ ، ١ - ١٩ ، ٩ : ٩) :

"جئت من مدينة الموتى إيبوت، والفم مملوء بدم كلب أسود وبحثت عن... الكلب.

أنت أيها الكلب الذى يعد واحداً من عشرة كلاب تخص أنوبيس، ابنه خاصته، ارفع سُمّك عن طريق السحر، ابعد عنى الآن لعابك. فإن لم ترفع بالسحر سُمّك. وإذا لم تبعد عنى الآن لعابك، سأنتزعك بقوة مثل [...] حسب رغبة إيسيت، الساحرة، سيدة الفضيلة السحرية التى تعرف كيف تسحر كل شىء دون أن يمكن السحر باسمها: إيسيت الساحرة. اسحق الثوم و [...] ضع هذا على مكان الجرح (الذى تسبب فيه الكلب) الذى تم عضه، وردد عليه (الصيغة) حتى يشفى"(٢١).

هل هذا هو وصف السعار الذى انتشر فى مصر القديمة، مثلما أورده مؤرخ الطب ثيودوريدس(٢٢)؟ إن هذا النص دوما هو الذى أثبت العلاقة التى حددها الأطباء المصريون بين تطور مرض خطير وتسلل لعاب الكلب داخل الجسم.

لم تكن لدغات البعوض، والذى كان كثيراً بصفة خاصة فى مصر القديمة، أقل ترويعاً من عضات الحيوانات الأخرى. ونحن نعرف حالياً أن البعوض قادر على أن ينقل عدداً معيناً من أنواع العدوى الطبية، وبصفة خاصة الملاريا، التى ترجع إلى لدغة بعوضة الملاريا الأنثى، وحتى وإن لم يكن هذا المرض موضع تمييز فى البرديات الطبية القديمة، فإن أدوات اكتشافه الميكروبيولوجية التى توفرت منذ عام ١٩٩٤ بينت أن المصريين كانوا ضحية له. وقد أمكن فى الواقع اكتشاف وجود مولد المضاد PEHRP-2 الذى يميز البلسمود المنجلى فى الجلد والعضلات والرئتين فى المومياوات التى ترجع لعصر ما قبل الأسر(٢٣)، والإمبراطورية الحديثة والأسرة الخامسة والعشرين. وبذا وضع حد للجدل الذى كان يدور حتى ذلك الحين فى المجتمع الطبى(٢٤). وعلى أى حال، فإن المصريين وقد أدركوا الخطر والهموم الناتجة عنه، لجأوا إلى ناموسيات مرتجلة مثلما تبين شهادة هيرودوت: "لمكافحة البعوض الذى كان وفيرا عندهم، نجد هذه الدفاعات:

أعلى منطقة المستنقعات، كانت تحميهم أبراج يصعدون إليها ليناموا، لأن الرياح كانت تمنع البعوض من أن يطير عاليًا، وكانت لديهم وسيلة أخرى فى منطقة المستنقعات: كان كل منهم يملك شبكة يستخدمها فى الصيد نهارا لكن كان لها فى الليل استخدام آخر: يلف المرء بها السرير حيث يرتاح أو يندس تحتها لينام. لأنه إذا نام ملتفا بمعطف أو غطاء، فإن البعوض سيلدغه من خلال القماش، لكنه لن يحاول حتى ذلك من خلال الشبكة"(٢٥).

لكن فاعلية هذا النوع من الحماية لم تكن جديرة بالصمود فى كل الأحوال. ومن هنا جاءت وصفة لمبيد حشرى يدهن به الجلد : "لمنع عض البعوض (لتجنب لدغاته) : زيت مورينجا طازج. ادهن نفسك بهذا"(٢٦).

وكان الذباب منفراً مثله مثل البعوض، وكان يتم إبعاده بفضل الوصفة التالية: "علاج آخر لمنع عض الذباب : دهن عصفور (جينو). ادهن نفسك (بهذا)" (بردية إيبرز ٨٤٥).

وإضافة للضيق الذى كان الذباب يثيره، كان أيضا مصدر مرض مخيف، هو التراكوما (تحبب الأجفان)، وهو مرض فى العين يمكن أن يؤدى إلى العمى. وكان المصريون يعرفونه باسم " أواحوت والذى يصيب العينين" (بردية إيبرز ٣٤٦). وكان يعالجونه باللودانوم(*)، الذى كان تأثيره المهدئ معروفًا جيداً. ويمكن أن تكون هذه التراكوما مسئولة عن الانغراز الشعرى ("انفتال الأهداب فى إحدى العينين") (بردية إيبرز ٤٢٤)(٢٧)، ويتم العلاج إما بمستحضر طبى، أو استئصال الأهداب، متبوعا بطلى الجفن بنوع من اللصقة (بردية إيبرز ٤٢٥). ولإجراء هذه العملية بطريقة جيدة، كان يستخدم نوع من الملاقيط لنزع الشعر ، وجدت نماذج منها فى عمليات التنقيب عن الآثار القديمة.

وهناك نكبة أخيرة تعزى إلى الحيوانات : تدهور النظافة العامة المنزلية، وكانت القوارض هى المسئولة الرئيسية عنه. إننا نعرف أن المصريين كانوا يجاهدون

(*) عقار من روح الأفيون . (المترجم)

دوما لإبعاد الفئران عن منازلهم وعن الذخيرة التى يدخرونها، وأنه كانت توجد لديهم صيغ كثيرة لإبعادها ولها طابع سحرى، منها ما يلى: "علاج آخر لمنع الفئران من الوصول لأى شيء: دهن قط. ويوضع (هذا) تحت كل شيء"(٢٨). وفيما يلى ما قد يمثل علاجا غانطيا: "وسيلة أخرى لمنع (الحيوانات المسماة) كيكى من أكل القمح فى المخازن: غائط غزال. يوضع هذا على النار فى المخزن وحوائطه ويتم طلاء أرضيته برماد مخلوط بماء. تلك وسيلة لمنع الحدأة من الاستيلاء على أى شيء"(٢٩).

ومع ذلك فإننا لا نعرف دوما على وجه التأكيد ما إذا كان الطاعون، الذى ينتقل بواسطة الفئران، قد وجد فى مصر القديمة أم لا. فربما كان هذا المرض المعدى الذى أثار أكثر الافتراضات حول قدمه: فإضافة إلى العصيات (جراثيم الباسيل) الشبيهة بالعامل المسئول عن الطاعون التى اكتشفها روفر فى رئة وكبد مومياء من العصر البطلمى، لا يتوافر أى دليل رسمى على هذا الموضوع(٣٠).

نهمة عادة

تفسر مطاردة القوارض التى كانت تهاجم المخازن ندرة الغذاء، على الرغم من الوفرة التى كان يبينها تصوير المؤن فى الآثار الجنائزية. وقد ورد وصف لتلك المجاعات، التى كانت ترجع إلى عدم كفاية فيضان النيل أو زيادته عن الحد(٣١) فى نصوص كثيرة. ويكشف واحد منها عن حالات لأكل لحم البشر خلال القحط الأشد قسوة فى الفترة الوسيطة الأولى: "فى حين كانت مصر العليا تموت جوعا ووصل كل السكان منها إلى حد أكل أطفالهم، سعيت إلى أن أصل إلى أن الموت الناجم عن المجاعة لا يقع أبدا بهذا الإسم"(٣٢).

ويروى نصب من العصر البطلمى الآثار المدمرة لمجاعة دامت سبع سنوات على الصحة الجسدية والمعنوية للسكان، فى ظل حكم الملك جسر خلال الإمبراطورية القديمة: "أخفقت الحبوب، وجفت الخلجان الصغيرة، ونقص كل ما يمكن أكله وأصيب كل الناس بالإحباط من جراء دخولهم. ووصل بهم الأمر إلى أنهم لم يعودوا يمشون. وكان أطفالهم ينتحبون، والراشدون يترنحون. أما المسنون، فكانت أفئدتهم حزينة. وركبهم ملوية يجلسون أرضا، وأذرعهم تترنح"(٣٣).

ومن جانب آخر، هناك نقش بارز جاء من طريق أناس فى سقارة، جزء منه محفوظ فى متحف اللوفر، يقدم تصويراً واقعيًا لأفراد جالسين، ناحلين وضلوعهم ناتئة، غير قادرين على الحركة، بل وأحيانًا على وشك أن يقضوا نحبهم، ونجد من بينهم طفلا هزيلا هزالا شديداً يمثل بداية تمدد البطن(٣٤). وتقدم مصادر أخرى تفاصيل عن التشوهات فى العظام تسببت فيها المجاعة وسوء التغذية. كما وجد أشخاص فى بنى حسن يبدو أن أطرافهم كانت أقصر مما هو طبيعى، ولديهم تشوهات فى الظهر مما يجعلنا نعتقد أنهم مصابون بالكساح(٣٥) ويجعلنا تصوير امرأة لها سحنة غليظة على قارب من المرمر من كنز توت عنخ آمون، نفترض حتى تباعد الركبتين وتقوس الساقين للخارج مع التواء العظام الطويلة للداخل، وهو واضح بصفة خاصة على مستوى الساقين . وأخيراً، لاحظ جراى فى ٣٠٪ من المومياوات التى جرى فحصها أن توقف نمو العظام الطويلة، ربما يكون سببه نقص الغذاء أو أمراض معدية فى الطفولة(٣٦).

الجذام وأمراض أخرى

هل كان الفلاحون فى مصر القديمة يعانون من الجذام؟ نعم، حسبما قال مؤلفون معينون، أكدوا أن هذا المرض كان يختفى خلف الأمراض الجلدية المذكورة فى بردية قديمة، حيث ذكرت مظاهر "تورم (عنوت) فى (ناتجا عن) مذابح الإله خونسو"(٣٧). ويبدو على كل الأحوال أن الجذام، وموطنه الأصلى آسيا، هاجر إلى مصر حوالى عام ٣٥٠ ق.م. عن طريق جيوش الإسكندر الأكبر(٣٨). وقد أكد هذا الفرض اكتشاف مظاهر هذا المرض على مومياوات يرجع تاريخها إلى الفترة الإغريقية أو المسيحية(٣٩). وهكذا، أوضح إليوت سميث(٤٠) وديرى داوسون وجود عمليات بتر مميزة للجذام فى أيدى وأقدام مومياء من العصر المسيحى وجدت فى النوبة، قرب أسوان. وإضافة إلى جمجمتين من نفس العصر أوضح الفحص الإشعاعى أن لهما هيئة المصاب بالجذام(٤١)، أظهرت أربعة هياكل عظمية اكتشفت فى ١٩٨٠ ، أيضًا وجود ندبات الجذام ويرجع تاريخها إلى العصر اليونانى(٤٢).

وبالنسبة للأمراض الحميدة بدرجة أكبر، يمكن دون عناء تخيل أن أحوال النظافة العامة السيئة وعواصف الرمال، كانت تعرض الفلاحين لأمراض الرموش والجفون. وكان التهاب الجفون، وهو أكثرها انتشاراً بلا ريب، يعالج باستخدام خليط من النباتات تعد فى "كتلة متجانسة" توضع فى شكل عجينة تجفف، ثم تبلل بالماء وتوضع على الجفون"[٤٣]. كما كانت هذه أيضا تعمل لصقة تتيح علاج مرض الشعيرة الذى وصف تحت اسم "التكوين (بيديت) الذى يوجد فى العين"[٤٤].

وهناك مرض طفيلى، عرف باسم الدودة الخيطية أصاب مومياء[٤٥] فى مانشستر (رقم ١٧٧٠ فى مشروع مومياوات متحف مانشستر)، وكذلك مومياء فى مقبرة بارنفر[٤٦]. ويتفق المرض الموصوف فى بردية إيبرز ٨٧٥ مع "جيوب (متعددة) (جيوب بينها حواجز) فى أى مكان من جسم الإنسان" (بردية إيبرز ٥٧٨)[٤٧] حسب بعض المؤلفين مع الدودة الخيطية.

فى مواقع العمل

كان الفراعنة يستخدمون فى مواقع البناء الكبيرة، يدا عاملة وفيرة، تتشكل أساسا من فلاحين مستدعين على أساس نظام التجنيد الإجبارى، وأسرى الحرب والعبيد. ولم يكن العمل أبداً مريحًا لمختلف الفرق المهنية التى وصفت أهجية المهن نظامها اليومى كالتالى: "إن قاطع الأحجار يقطع كل أنواع الحجارة الصلبة باستخدام أزميل. وعندما ينتهى من عمله، تكون ذراعاه قد تكسرتا ويكون قد أنهك تمامًا. وعندما يجلس فى الغسق، تتيبس ركبتاه وظهره من الألم [...] وأحدثك أيضًا عن البناء الذى يبنى الجدران. إنه يتحمل ألم السوط، ويقوم بالبناء دائمًا فى الخلاء وهو معرض للرياح ويرتدى وزرة بسيطة. وفى موقع العمل، ليس لديه سوى حزام من اللوتس يترك ظهره مكشوفا. وتغرق ذراعاه فى الصلصال وكل ملابسه ملطخة، ويأكل خبزه بأصابعه القذرة، لأنه لا يستطيع أن يغتسل سوى مرة واحدة فى اليوم"[٤٨].

وفى ظل عدم وجود أى حماية فردية أو جماعية، كان لابد وأن يقع العمال المصريون ضحية لعديد من الأمراض والحوادث المرتبطة بممارستهم لمهامهم بصورة مباشرة.

يضاف إلى ذلك الأبخرة السامة والغبار والضوضاء وغيرها من الأضرار الشائعة فى مواقع العمل: إذ كان هناك كثير من العوامل القمينة بتدمير الصحة، ومن ثم الإنتاجية بالنسبة لليد العاملة. كما نعرف أيضًا أن مثابرة أطقم العمل، المكلفة بإعداد وتزيين مقابر الملوك والنبلاء وأسرهم فى مدينة الموتى الكبيرة فى طيبة والذين كانوا يخضعون لرقابة مستمرة من قبل مشرف للعمال، "كبير الطاقم"(٤٩). وإلى جانب العمال المثابرين، كان يوجد فى سجل العمال "الكسالى" وأيضًا المتغيبين بسبب مرض أو حادث احتجزهم بعيدا عن موقع العمل. والواقع أن إعطاء المرضى راحة يبدو أنه كان مبدأ تسجله مراسلات الكتبة "إن الرئيس لا يأمر مريضًا أن يرفع حجرًا"(٥٠). وتؤكد أجزاء من يوميات الورش وجدت على حطام قطع الفخار وجود هذه "الإجازات المرضية"، التى كان العمال يأخذونها أيضا ليعودوا إلى أسرهم.

أطباء العمل الأول

لا ريب أن تواتر المشكلات الصحية برر توظيف طبيب ملحق بالعاملين فى مدينة الموتى الكبيرة فى طيبة. لكن فى حدود علمنا، فإنه لم يكن الشخص الوحيد الذى يمارس وظيفة "طبيب العمل" هذه. فقد كان نيفر ماعت وبوير على التوالى طبيباً ورئيس أطباء فى "مكان الحقيقة" وهو تعبير يشمل أى مكان له علاقة بالموت، ولكنه يشير بصفة خاصة لمدينة الموتى الملكية(٥١). كذلك يظهر طبيب آخر اسمه خاى-مين فى بردية فى متحف تورينو يرجع تاريخها إلى السنوات ٨ - ١٠ لحكم رمسيس الحادى عشر (نهاية الأسرة العشرين): ونرى فيها أنه كان يأخذ جانب العمال عند توزيع الزاد المخصص لعمال المقبرة الملكية(٥٢). ويصور المهام المختلفة التى كان هؤلاء الأطباء يقومون بها فى دير المدينة، مشهد مرسوم على نصب فى مقبرة النحات إيبى. وتظهر فيه مشاهد حوادث العمل المختلفة القمينة بأن تحدث فى مواقع العمل، طبيبان وهما يمارسان وظيفتهما: كان أحدهما، وهو إخصائى عيون على ما يبدو ينزع جسمًا غريبًا من عين أحد العمال، فى حين كان الآخر يعالج خلع كوع. ولمعاونته، كان أحد المساعدين يعد جبيرة لمنع حركة ذراع المريض(٥٣). ونظرًا لأننا نجد خارج الأطباء بالمعنى الدقيق لكلمة أطباء، مساعدين طبيين حقيقيين فى مواقع العمل، مثل

با-حيرى-باجت الشهير، وهو عامل فى مدينة الموتى الملكية فى وادى الملوك، يشير حطام قطعة فخارية موجود فى المتحف البريطانى (BM5634)، ويرجع تاريخها إلى السنة الأربعين لحكم رمسيس الثانى، إلى أنه حل محل طبيب[٥٤] وخصص وقتًا لزيارة مرضاه يوميا، دون أن يشتكى منه مشرف العمال[٥٥]. وكان مساعدون آخرون يقومون بأدوار أكثر تخصصا: وهكذا، نجد فى مدينة الموتى فى طيبة، شخصًا وصف بأنه حيريب-سيركت كان مسئولاً عن علاج ضحايا لدغات العقارب، وتضم قرية دير المدينة مقبرة واحد منهم يسمى أمينموز عاش فى ظل حكم سيتى الأول ورمسيس الثانى، وكان من ضمن الطاقم لقبر فرعون. وإذ نال شرف أن يسمى "حيريب سيركت فى مكان الحقيقة" و"حيريب سيركت لسيد البلدين فى مكان الأبدية"، فلاشك أنه كان ينتمى إلى أسرة حيريب سيركت، وذلك ما تجعلنا نعتقده نقوش تظهر على مقابر آبائه وأجداده.

مبحث فى الجراحة

لعلاج ضحايا حوادث العمل، كان على هؤلاء الأطباء أن يستخدموا الوسائل المتاحة ويتصرفوا. ولكن لا ريب أنه كان يتعين عليهم أن يتبعوا بروتوكولا محددا جيدا حيث يتعين علاج كل حالة إكلينيكية حسب نفس المنطق. وهكذا، فإن بردية إدوين سميث تقدم لنا عديدا من "الدروس" حول ٤٨ حالة من الإصابات (منها ٣٣ كسراً كان يمكن أن يقابلها أطباء العمل: ٢٧ ملاحظة جراحية تعالج باثولوجيا الجمجمة والوجه، ٤ العنق، ٢ الترقوة، ٣ عظم العضد، ٨ الصدر، ١ الكتف، ويبقى وصف حالة أخيرة، تتعلق بالعمود الفقرى، غير كاملة).

بيد أنه على الرغم من تنوع الأمثلة التى جرى علاجها، فإن العلاجات الموصى بها كانت على الدوام علاجات بسيطة، يمكن نسخها، كذلك كانت رشيدة وفى مقدور أى طبيب أو ممرض مؤهل القيام بها. فهل كان ذلك يمثل كما يقول برستيد[٥٦] "أول علاج جراحى" فى العالم، ودليل لأوجه العناية التى كان يحتاجها آلاف الأشخاص المستخدمين فى مواقع البناء الشاسعة هذه. أيا كانت الوظيفة الدقيقة لهذه الوثيقة،

فإن تنظيمها يظل واضحًا ومحدداً بصورة مرموقة: فقد جمعت الحالات التى تمت دراستها فى ٧ أجزاء حسب المنطقة التشريحية التى تتعلق بها. وعرضت كل ملاحظة حسب نموذج متطابق: بمثابة مقدمة، فصلاً يبدأ بتعبير متكرر: "تعليمات تتعلق...". يلى ذلك معطيات الفحص الإكلينيكى التى تتيح التوصل لتشخيص وتكهن، مصحوبة بمعلومات موجزة عن المرض الذى يعانى منه المريض وكذلك عن موضعه. ويجىء إعلان ذلك فى جملة مقولبة، تتكرر أحيانًا طوال النص: "إذا فحصت رجلا لديه..."، ويقدم هذا الفحص الإكلينيكى الموجز، أو المفصل للغاية حسب الحالة، وصفًا دقيقًا للإصابة التى هى أصل المرض والأعراض التى تسببها. ويمكن استكمال هذا الفحص بفقرة تعالج تطور الإصابة، أو بوصف شكل آخر من أشكاله الإكلينيكية.

وعلى غرار الطب الحالى، كان الممارس المصرى يتوصل بعد ذلك إلى تشخيص وتكهن. وهكذا كانت الصيغة "عندئذ، تقول بشأن موضوعه..." تعلن الاستنتاج الذى تم التوصل إليه. وفى ضوء التشخيص الذى تم التوصل إليه، كان يقترح فى النهاية تولى مسئولية نوع من الأنواع الثلاثة التالية من التصرفات. كان الأول يطبق على الحالات التى تعتبر حميدة والتى يوجد بشأنها علاج فعال: ومن ثم هذا "مرض سأعالجه"، أى مرض تشخيصه مواتٍ. وكان الوضع الثانى يتعلق بلا ريب بالمتاعب التى يكون التشخيص متحفظا إزاءها، وتوصف أيضًا باعتبارها "مرضًا سأصارعه". والوضع الثالث والأخير كان يمثل الحالات الخطيرة، التى كانت تسمى تشخيصا غير مؤات: "مرض لا يمكن عمل شىء بشأنه".

ومن ثم، كان العلاج الموصى به يتوقف على التشخيص الذى يصدره الممارس: وكان يمكن الاعتناء بالحالات الحميدة أو الخطيرة؛ وبالنسبة للحالات التى تدعو لليأس، أى ثلث ٤٨ حالة وردت فى بردية إدوين سميث، كان الامتناع هو القاعدة، حتى وإن استمر الطبيب مهتما بالمريض: "اعتن به، لا تتخل عنه". وكملاذ أخير، كان يمكن اللجوء إلى السحر الذى يظل غائبًا فى بقية البردية ولا يتدخل فى علاج الحالات القصوى المشهورة.

حوادث العمل

نتيجة أولى لحوادث العمل في مواقع البناء: كوارث مختلفة يمكن أن يعاني منها العامل، سواء كانت حميدة ويمكن أن تصبح موضع علاج رشيد، أو لم يكن لها علاج ممكن. ولا تزال الجروح في الجلد الأشعر، والتي كانت تعالج على سبيل الأولوية في بردية إدوين سميث، إلى اليوم أحد حوادث العمل الأكثر تكرارا، والذي يعد ارتداء الخوذة إجباريا وقاية منها، وفي مصر القديمة، كان التقصي الدقيق يتيح للطبيب أن يحقق سلفا سلامة العظام التحتية: "ضع قائمة بالأماكن المصابة (مينيت) التي توجد (في الإنسان)..."[٥٧]. وبعد ذلك يقدم التشخيص الحيوي للمريض، في أعقاب فحص يشبه بصورة فريدة طريقتنا في قياس النبض بالنسبة لأي مريض أصيبت جمجمته، للتحقق مما إذا كان في حالة صدمة: "افحص في حينه (إصابته) على (بوضع الأصابع على) قنوات (ميت) الرأس، (وقنوات) الرقبة، (وقنوات) الساقين) (...) وقلبه (حاتي)، بهدف معرفة الوصف (الطبي) (شيساو) المتعلق بما يجري فيه (الإنسان)..."[٥٨].

وإذا تبين أن الإصابة حميدة، يكفي عمل تنظيف وتضميد تقليدي باستخدام اللحم الطازج في اليوم الأول، ثم استخدام خليط من الدهون والعسل وسدادة من النباتات في الأيام التالية.

وفي حالة الجروح الأكثر خطورة، نقرّب حواف إصابات العنق بضمادة لاصقة أو بمساعدة فتلة لخياطة طرفي الجرح[٥٩]. وكانت جروح قنطرتي الحاجبين تخاط بخيط من الكتان أو بسيور دقيقة من أمعاء الحيوانات، وتغطى بواسطة كمية كبيرة من الضمادات اللاصقة بمجرد أن ترتخي أطرافها[٦٠]. وفيما يلي أمثلة أخرى للإصابات العارضة، والتي كانت بلا ريب متكررة في أماكن العمل: "ثقب (عظمي) في الخد" وفي "الصدغ" و"إصابة و(أخرى)، في الصدغ" و"في الشفة"[٦١]. وبصفة عامة، كان الممارسون غير محصنين إزاء مخاطر التلوث. وعلى أية حال ظل هذا هو الوضع حتى القرن التاسع عشر.

وفيما يتعلق بالكسور، والخلع وغير ذلك، كانت تعالج مثلما تعالج حاليًا : أولاً السيطرة عليها ثم احتواؤها بجبائر من الخشب والأربطة التى تحافظ على العضو المكسور فى وضع ثابت، وكانت هذه المتاعب المتعلقة بالعظام والأربطة، تقسم إلى ثلاث مجموعات، حسب موقعها، سواء كانت تصيب الأطراف العليا، الصدر، أو العمود الفقرى.

وهكذا نرى كسرا فى عضد الساعد عولج برده ("يتعين عليك شده من الكتفين لتمد الذراعين حتى يرجع هذا الكسر مكانه") ثم بتثبيته بمساعدة "جبيرتين" "مغطاتين بالكتان"(٦٢). وإضافة لذلك، تم وصف خلع الأربطة القصية الترقوية بدقة فى اهتمام إكلينيكى مرموق "أما فيما يتعلق بتعبير "عدم الانطباق فى منطقة عظام الترقوة"، فإن هذا يعنى أن رؤوس الترقوة فى غير مكانها. ويتم تثبيت رؤوسها فى العظمة العليا للصدر (القص) وتصعد حتى الحلق. ويوجد لحم إعادة التغطية لمنطقة الترقوة فوق هذا"(٦٣). ونشرع هنا فى عملية رد للعظام. "عليك أن تجعلهما (منطقتى عظام الترقوة) ينزلان إلى أسفل بحيث يعود إلى مكانهما". وقبل وضع رباط محكم جيداً "عليك أن تضمده (عدم الانطباق) بجبيرتين (مغطاتين) بالكتان"(٦٤).

ومن بين إصابات الصدر المذكورة فى نفس البردية، علاوة على كسر الترقوة وذكر ملخ مفصلى عنقى بسيط ("عدم تطابق فقرات العنق")، يظهر خلع مع انضغاط فى النخاع الشوكى، وذلك نموذج حقيقى للملاحظة الإكلينيكية التى تفصل كل مظاهر هذه المضاعفات: خدر رباعى ("لم يعد يحس بذراعيه وساقيه")، سلس البول ("يسقط البول من عضوه دون أن يدرك")، الانتصاب المستمر المؤلم ("ذكره المنتصب")، انتفاخ الكرش ("أخذ لَحْمه هواء")(٦٥). ومثل هذا الترف من التفاصيل لا يوجد فى باقى البردية، التى تتوقف قبل علاج كسور الأطراف السفلى، أو إصابات البطن. ولا يوجد أى أثر لتطور هذه المتاعب المتعلقة بالعظام والمفاصل بعد العلاج: ومن ثم لا نعرف شيئًا عن عواقب المرض والتشوهات التى يمكن أن يعانى منها هؤلاء التعساء طويلاً.

تيقظ للعينين

من بين كل حوادث العمل الممكنة هذه فى مواقع العمل، فإن جروح العينين التى ذكرت مراراً فى البرديات الطبية، هى الأكثر تواتراً منها - ناهيك عن أمـراض العيون التى تفاقمها الحرارة والغبار والحشرات وظروف الصحة العامة المؤسفة(٦٦). سواء كانت "العين تدمى"، أو تفرز "مصلا مفرطا(٦٧)"، أو كان هنـاك جرح "تربط (اللحم) فى عين"(٦٨)، أو كان هناك سعى "لإبعاد الأجزاء التالفة لأحد الجروح (جينيت)"(٦٩)، أو كانت ما تزال هناك أجسام غريبة ملتصقة فى العين، فقد وجد الممارسون فى مصر القديمة حلولا مختلفة لشفاء العضو المريض، وأجروا جراحات فى العيون على المرضى الأشد إصابة، مثل قاطعى الأحجار. وهكذا نجد فى قبر إيبى (رقم ٢١٧ فى مدينة الموتى فى دير المدينة) رسمًا جداريًا يصور طبيبًا منهمكا فى العناية بعين أحد النجارين المكلفين ببناء معبد. وكل شىء يشير إلى استخراج جسم غريب تحت الجفن، ربما جرح فى القرنية. وهناك افتراض ثان: كانت هذه قطرة يقطرها الممارس فى عين المريض مستعيناً بقطارة طويلة. وفى الواقع، نلاحظ إلى جانبه صندوقًا صغيراً ربما يحتوى على الأدوات، والقطرات ووعاء ربما كان مخصصاً لإذابة المساحيق. وفيما يتعلق بالوظيفة الدقيقة لذلك الذى يعتنى بهذا العامل، ليس هناك أى فرض مقبول بصورة حاسمة فى هذا. فهو عند البعض واحد من هؤلاء الحلاقين معالجى العيون المتجولين مثلما كان هو الحال فى مصر كلها، الذين كانوا يضعون الكحل فى جفون زبائنهم. وهو عند آخرين، طبيب، سونو-إيرتى(٧٠)، بعبارة أخرى "طبيب العينين" المتخصص فى هذا النوع من الأمراض: وتستند حجة أصحاب هذه الأطروحة إلى علبة قطرة تخص رئيساً للأطباء من الإمبراطورية الحديثة، نقشت عليها خصائص متاعب العيون الموسمية التى خصص لها كل نوع من هذه القطرات(٧١).

التيتانوس

ومن جانب آخر، كان العمال معرضين لخطر التيتانوس عن طريق تهتك الجلد، حتى فى حالة جرح خفيف. فمثلاً، يشير كسر فى الجمجمة وصف بأنه "جرح مفتوح فى الرأس يصل حتى العظام" فى بردية سميث رقم ٧ إلى مشاهدة دقيقة مماثلة

لتشخيص التيتانوس[٧٢]: ويصبح تشخيص المرض، الخطير وإن لم يكن يدعو لليأس[٧٣]، أكثر تشاؤما بسبب المضاعفات التى يتعرض لها المريض. فالجرح يتلوث، ويأخذ فى التعفن "رائحة صندوق رأسه تشبه (رائحة) غائط (بيكينو) الخروف"، مصحوباً بتشنج الفك (رباط فك هذا الرجل معقود) وتصلب الوجه "يشبه وجهه وجه من يبكى": وكل ذلك يدعم تشخيص التيتانوس الرأسى. وأخيراً، فإن تطبيق نظام أريب لتغذية هذا المريض ضحية تشنج الفك هذا "بأنبوبة من الخشب مغلفة بقماش "تتيح تحسين التشخيص الحيوى وملاحظة تطور أكثر مواتاة.

الفقرات القطنية المنهكة

لا ينبغى إهمال فتق أقراص الفقرات الذى يصيب صانعى قوالب الطوب والبنائين[٧٤]، إذ نجد وصف العلامات التقليدية المسماة "دى لاسيج" فى بردية سميث رقم ٤٨: "قل له: "افرد ساقيك ثم اثنهما" ويقوم بفردهما ولكنه يثنيهما بطريقة مفاجئة بسبب الألم الذى يسببه ذلك فى العمود الفقرى للظهر المصاب..."[٧٥] ولكن فى المومياوات، يصعب تحديد أمراض العمود الفقرى، لأن كثيراً منها يحدث كحوادث عارضة تعزى إلى عملية التحنيط فى حين يُعدّ من قبيل التكلس. ومع ذلك، فإن فحص الأجساد كثيراً ما كشف عن حالات تصلب مفاصل العمود الفقرى[٧٦]، وكان ذلك فى العمود الفقرى الظهرى أكثر منه القطنى، ربما بسبب صغر الأوزان التى كان المصريون يرفعونها، وربما أيضاً بسبب شكل كراسيهم وأسرتهم التى يرتاحون عليها[٧٧]. والواقع، أنه تم التقليل من أهمية أن هؤلاء كانوا ينامون على حصر بسيطة ويجلسون على مقاعد أكثر انخفاضاً منها الآن.

العقارب المروعة

مرة أخرى نقول إن البيئة قد تبدى عداءها مثلما كانت تفعل بالنسبة للصيادين والفلاحين: فلدغة العقرب كان يمكن أن تبرر إلى حد كبير[٧٨] غياب عامل عن عمله، مثلما ورد منقوشاً على قطعة فخار مكسورة بصدد عامل من قرية دير المدينة.

فقد كانت هذه الحيوانات المفصلية الأطراف، التى كانت تتكاثر فى مدينة الموتى فى طيبة، مصدر رعب خاص، فقد كانت لدغتها، المؤلمة جداً، نتائج مأساوية.

وهكذا، فإن نصبًا فى أبيدوس يبين الفعالية الصاعقة لسم العقرب: "أنت الذى هلك دون مجد وبصورة غامضة من موت عنيف؛ غير جدير بطيبتك، لأن عقربا لدغك فى معبد تريبس، فى اليوم العاشر من توت فى السنة ٣٨، الساعة ٥، ومات فى الحادى عشر."

وللتخفيف عن المنحوس كان يعطى له ماء سبقت إراقته على نصب يمثل حورس[٧٩] أو على تماثيل الشفاء ليشربه أو يصب عليه حتى تغمره مزاياه السحرية. وهكذا كان فى مقدور الضحايا التعساء أن يلجأوا لسلكت، الآلهة التى لها رأس عقرب، أو يستنفروا القوة السحرية لآلهة آخرين، مثلما توحى به صيغة سحرية وجدت على نصب يسمى "ماترنيش" يستجدى معاونة آلهة ناجية من خطر حادث عسكرى: "يا رع، تعالى إلى ابنتك، القطة المقدسة (الآلهة باسطط). لقد لدغتها العقرب عن طريق منعزل. لقد وصلت شكواها إلى السماء. لذلك تعالى إلى ابنتك! لقد دخل السم إلى جسمها؛ وتوزع فى لحمها.

(ويرد رع عليه) لا تخشى شيئًا، لا تخشى شيئًا، يا ابنتى الساحرة، انظرى، إننى أقف وراءك. ذلك هو أنا؛ إننى أصارع السم الموجود فى كل أطراف هذه القطة.

ماذا عن عمال المناجم؟

كان استغلال المناجم والمحاجر التى كانت فى الصحراء، يعتبر نشاطا اقتصاديا مهما فى مصر الفرعونية: مناجم النحاس، ومناجم الملكيت (كربونات النحاس القاعدية) والفيروز فى سيناء، وطبقات الذهب فى النوبة وفى شرق كوبتوس[٨٠]. ومن مصر العليا، كانت ترسل حملات من المدنيين بأوامر من فرعون لاستغلال المناجم والمحاجر فى هذه المناطق النائية، وكان الجيش يوفر الكوادر، والإدارة ترسل الفنيين وتجند الخاضعين لنظام السخرة، وتستدعى يدا عاملة كبيرة، مثلما يبين النقش الموجود على

صخرة فى محجر لتحجر الشيت البركانى فى وادى حمارانات، والتى تحدد أنه فى السنة ٣٨ من حكم سيزوستريس الأول (نحو ١٩٦٠ ق.م.): "قاد أمنى، المتحدث باسم الملك، فرقة تزيد على ١٧٠٠٠ رجل لجلب ما يكفى لصنع ٦٠ تمثالاً لأبى الهول و ١٥٠ تمثالاً"[٨١].

كان العمل شاقًا، يتبين مصادر كثيرة الوسائل البدائية التى كانت فى حوزة العمال بغرض استخراج المعادن. كان الرجال يزحفون فى ممرات ضيقة تضيئها مصابيح، ثم يحطمون الحجر بتسخينه حتى يبيضّ قبل استخراج الكتل بالمعاول. وحسبما يقول ديودور الصقلى، كان السجناء العرايا والمقيدون، الذين أنحلهم المرض، يعملون حتى الإنهاك والموت[٨٢]، ويتعرضون لثلاثة أنواع من المخاطر الكبرى: انهيار الممرات أو سقوط كتل تتسبب فى إصابات، أو متاعب فى التنفس ولدغات الثعابين.

وفى المقابل، فإن نقوشًا أثرية عديدة ونصبًا كثيرة تدل على وجود أطباء داخل هيئة العاملين. بل ووردت أسماء بعض منهم على نقوش سيناء حيث كان يتم استغلال عدد معين من مناجم النحاس، وهكذا، فإنه فى ظل أمنمحات الثالث، خلال الأسرة الثانية عشرة، تذكر قائمة مما يزيد على مائة اسم ، رئيس الأطباء ريفسينب والحريب سكيت إيمونفير، ومعهما اسم محنط، وهو شخصية لا غنى عنها بسبب الحوادث التى تقع صدفة وطول مدة الحملة، حيث يواجه الموت عادة على الطريق.

وفى محجر تنوب للمرمر، قرب هيرموبوليس، نجد فى النقوش ذكرا لطبيبين فى بداية الإمبراطورية الوسطى، فى ظل الأسرة الحادية عشرة. كان أولهما، واسمه ميريشفنخت، مبعوثًا من الملك لمرافقة إحدى الحملات التى كان محافظ الإقليم، نومارك نيحريرى، يرسلها. وكان يلحق ببعثته أخانات، وهو كاهن بسيط (أواب) لسخمت، مرتبط بالنومارك (؟). وهكذا فإن نقشًا يحدد ما يلى: إن كاهن... (أواب) سخمت أحاناخت، ابن ناخت"، الذى صنع هذا النصب للباشانيهرى: "جئت لكى أنفذ أمر السيد...". إنه الكاتب [...] أحاناخت، هو الذى عمل هذه الصورة عندما جاء ليبحث عن المرمر مع رئيس عمال محاجر سيبيكمحات".

ونجد فى قائمة الكوادر والفنيين المتخصصين للحملة المرتبطين بالأطباء (سونو) عادة ساحر سيركت مكلفًا بمنع وعلاج عضات الحيوانات السامة التى تسكن الصحراء. ويحدد نقش سيرة ذاتية لتمثال الحيريب سيركت حار شبيس من الأسرة الثلاثين أنه هو "الذى يعرف جحور الثعابين فى أماكنها، ويبيد ثعابينها، محطمًا وجه من يوجد فيها (جحور الثعابين)...، انظر... إنه يرتحل وطريقه محمى. رئيس من يفتحون (؟) [الطريق]...".

ابصق سُمك!

كانت الثعابين السامة تمثل تهديداً كبيراً لعمال المناجم فى أماكن العمل وإن كانت تهددهم أيضا فى منازلهم، ويدل وصف أسطورة الإله رع الذى عضه ثعبان، والذى يمثل لوحة إكلينيكية مثيرة للأفكار عن التسمم، بصورة غير مباشرة على معارف المصريين عن هذا النوع من الحوادث :

"إذن، لقد لدغه ثعبان سام، النار الحية، التى تخرج منه.

إن الرب فتح فمه. إنه لم يجد فمه، لكى يجيب عليه، إن شفتيه تهتزان، كل أطرافه ترتعش، لقد استحوذ السم على لحمه...

لقد سرت على الطريق، وتنزهت فى الأرضين وفى الصحراء، كان قلبى يريد أن يرى ما خلقته.

هذا ليس من النار،

هذا ليس من الماء،

إننى أكثر إحراقًا من النار،

إن كل أعضاء جسمى مغطاة بالعرق، وعيناى ترتعشان

ولا أقف ساكنًا؛

لا أستطيع أن أرى، لأنها تمطر على وجهى فى فصل الصيف".

وكان الأطباء المصريون، مثل حيريب سيركت هذا، الطبيب المتخصص فى عضة الثعبان، والذين يتمتعون بالقدرات المعروفة للساحر والقائم بالطقوس، يملكون مجموعة وصفات كاملة تماما، لمعالجة عضة الثعبان[٨٣].

ويضع الجزء الأول قائمة[٨٤] بالثعابين الموجودة فى مصر وعددها ٨٣ ويصفها، مشبها كل واحد منها بإحدى التجليات الإلهية، وتذكر كل فقرة الاسم المصرى للزواحف، ووصفه كاملاً، وطبيعة العضة، والعلامات الإكلينيكية التى تظهر، والنصائح المقدمة لمن يتولى الأمر والتشخيص والتكهن ("سيعيش، ... ستنقذه...، سيموت...").

وفيما يلى بضعة أمثلة: فى المحل الأول الحية القرناء، فى الفصل ٢٨، وهى ثعبان سام عضته قابلة للشفاء: "أما فيما يتعلق بالحية القرناء، فإن لون جلدها مشابه (للون) السمان، فى حين يوجد قرناها [أعلى] قمة رأسها، فى حين أن الرأس لها شكل مثلث (؟).

و (إذا) كانت فتحة الجرح كبيرة، ينتفخ وجه الجريح. و (إذا) كانت فتحة الجرح صغيرة، فإن الجريح يفقد قوته، فيما عدا [...] . وتستمر الحمى (الناتجة عن الجرح) تسعة أيام وسيعيش. ذلك من تجليات الإله حورس. إن سمه ينجذب للخارج ويجعله يتقيأ عادة، وسيتم طرده."

ويذكر الفصل ١٥ من نفس البردية ثعبانا آخر، لا ريب أنه من عائلة **elapides** ، وعضته قاتلة: أما بالنسبة للثعبان (عبوبى) فكله أحمر فى حين أن بطنه بيضاء، وتوجد أربعة أنياب فى فمه وإذا عض إنسانا، فإنه يموت فجأة".

ومن جانب آخر، نتعرف على حية الحفث ذات الطوق، وهى ثعبان غير سام موجود أيضا فى أوربا: "أما فيما يتعلق بالثعبان (نبيد)، فإن طوله يبلغ ذراعا ونصف ذراع، وفى حين أن لون جنبيه وظهره أخضر، فإن بطنه بيضاء، وطوله مماثل لطول ثعبان (كا-ان-عم). ولا يحدث الموت بسببه. إنه تجل للآلهة هاتور. وكل مكان يعيش فيه فى نفس الوقت مع ثعبان (سيختف) حورس محمى. ويمكن النجاة من تأثيره. ولا يتم طرده".

ويورد الجزء الثانى من هذه البردية المسماة "بروكلين"، المعنونة أدوية مضادة للسموم وعلاجات دوائية (الفصول من ٣٩ إلى ١٠٠)، قائمة بالوصفات العلاجية، وحيث إن خطورة [illegible] كانت [illegible] وجهة نظر المصريين، اللجوء للآلهة، فإنها كانت تصطحب [illegible] للتضرع [illegible] من بينها رقيه لحورس، الذى نجا وعاش حسب الأسطورة [illegible] ثعبان سام. كما كان المصريون يتضرعون للآلهة سيلكت. كما تظهر في هذه البرديات أدوية مخصصة لاستثارة القئ لطرد السم: "مقيئ [illegible] لدغة الكوبرا ذات اللون الأسود وأيضا لأى نوع من الثعابين : ثوم : ١/٨؛ بيرة: ٥٠ رو؛ بلح بحرى: ١/٦٤ . يتم ترشيح هذا ثم يبلعه وطرده من خلال التقيؤ أربعة أيام متوالية".

بل إن هناك وصفة كانت تتم المبادرة بها كعلاج فورى وعاجل عندما لا يتم العثور على طبيب الطوارئ. حيريب سيركت: الفصل ٩١ أ من بردية بروكلين: "دواء لتحضيره لرجل جرحه أى نوع من الثعابين، عندما لا يوجد المعالج: زيت (حيحى): ٥ رو . يبلع الجريح (هذا). لن يدركه السم" (الفصل ٥٤أ من بردية بروكلين).

بل وتوافرت وصفة مخصصة لعلاج حالات الطوارئ لأى ضحية لعضة الثعبان فى حالة عدم وجود طبيب مؤهل.

وهناك علاجات أخرى لها قيمة وقائية: توجد فى بردية إيبرز، فى الفصل المعنون وصفة من أجل المنزل، تبين كيف يحمى المرء نفسه من هجوم الثعابين: "(علاج) آخر لمنع الثعبان للخروج من جحره: سمكة بلطى (tilapia nilotica) ، مجففة وموضوعة فى مدخل جحره. ولن يستطيع الخروج منه." (بردية إيبرز ٨٤٢). "(علاج) آخر: نطرون موضوع على فتحة جحره. ولن يستطيع الخروج منه. (بردية إيبرز ٨٤٣): "(علاج) آخر: رأس ثوم. يوضع (هذا) عند مدخل جحره. ولن يستطيع الخروج منه". (بردية إيبرز ٨٤٤).

وأخيراً، فإنه لإبعاد الثعابين عن المسكن، كان لدى المصريين علبة صغيرة غطاؤها مزين بثعبان، تستخدم كتعويذة.

مرض الفم الأسود... وغيره من الأمراض

هناك مرض أقل لفتًا للنظر وإن كان خطيرا أيضاً: استنشاق الغبار الذى كان يتعرض له عمال المناجم أثناء عملهم فى أنفاق تحت الأرض. ونحن نعرف حاليًا أن تراكمه فى المسالك الهوائية يؤدى إلى تفاعلات فى نسيج الرئتين تسبب تَغَبُّر الرئة: ويتبدى هذا المرض أولاً فى الإرهاق عند بذل المجهود، ومتاعب فى وظيفة التنفس وصور باثولوجية بالتصوير الإشعاعى. وعندما يتطور، يتسبب فى عدم كفاية التنفس، وحشد من المضاعفات المعدية، والسل والأزمات القلبية: ونحن نعرف اليوم أن ٦٤٪ من عمال المناجم الذين أمضوا أكثر من عشرين عاما فى قاع المناجم يعانون من الالتهاب الشعبى المزمن[٨٥].

وإضافة لعمال المناجم، يبدو أن الإصابة بتغبر الرئة كانت كثيرة جدا بين المصريين، مثلما يبين فحص المومياوات. إذ يبدو أن هذا المرض لم يكن يصيب فى مصر القديمة عمال المحاجر والمناجم فقط[٨٦]، وإنما كان يصيب أيضًا جزءًا كبيراً من السكان. وهكذا، تثبت الدراسة الهستولوجية لرئتى نخت عنخ، وهو بناء معاصر لذلك الحين وجود جزيئات متضاعفة الانكسار بينت دراستها بالميكروسكوب الإلكترونى ارتفاع محتواها من رمل الصوان والحديد والقصدير[٨٧]. وبفحص رئتى المومياء ناخت-روم، وجدت أيضًا جزيئات من فحم الإنثراسيت والجرانيت[٨٨]، فى حين بينت دراسة مومياء بوم ٣ ، ندوبا كبيرة تدل على التصون فى الرئتين، وأتاحت تحديد معدل لرمل الصوان يبلغ ٠,٢٢٪ (فى حين يقل المعدل الطبيعى عن ٠,٠٥٪)[٨٩]. كما وجدت هذه المظاهر لتصون الرئة فى مومياوات فرادى تنتمى إلى الطبقة الوسطى. وهى على وجه الاحتمال نتيجة استنشاق الرمال إبان العواصف ورياح الرمل. ومن جانب آخر، فلا ريب أن آثار الكربون التى وجدت فى رئات المومياوات يرجع أصلها إلى جو المبانى الصغيرة سيئة التهوية المملوءة بدخان النيران والقناديل[٩٠].

ومن ثم، يمكن الاعتقاد عن حق بأن تغبر الرئة كان هو السبب الرئيسى لهذا السعال المذكور فى عديد من النصوص باعتباره "انتفاضات ترجع إلى إفرازات (سيريت)"[٩١]. وقد وردت وصفتان لعلاج هذا المرض على قطعة فخار منقوش رقم ١٠٩١ من عصر رمسيس فى متحف القاهرة.

الإصابة بالسل

ربما كانت أمراض أخرى تصيب الشعب والرئة مسئولة عن نفس العرض. ونذكر من بين أمراض الرئة، مرضًا معروفًا جيدًا حاليًا للعامة: السل. وكان هذا المرض يفتك فى مصر القديمة بعمال المناجم وأيضًا مجموع السكان. ولا ريب أن هذا المرض، الذى يرجع إلى بكتريا كوخ العضوية، لم يكن معروفًا باعتباره جوهرًا باثولوجيا خاصًا فى النصوص ولم تسفر دراسة المومياوات فى النهاية سوى عن قليل من المعلومات التكميلية. فالواقع، أن المحنط كان يقوم باستخراج الرئتين أحيانًا من التجويف الصدرى، حسب عادة وضعهما فى أوعية خابيات الموتى، المنفصلة عن الجسد أحيانا. وأتاحت أعضاء معينة لم تصب بأضرار كثيرة من جراء ممارسات ذلك الوقت، فإن وضع تشخيص إكلينيكى بأثر رجعى، حتى وإن استحال تأكيد ما إذا كان أصل إصابة الرئة أو الغشاء البلورى يرجع للسل، الملحوظة على باقى أوعية خابيات الموتى. واليقين الوحيد المتوافر لنا عن بعض المومياوات، مثل تلك الخاصة بامرأة تبين إصابتها بالتصاق الغشاء البلورى، وهو تأثير إصابة فى غشاء الرئة تم شفاؤه، يذكر بالسل بقوة. ولكن فى هذا كما فى غيره، لم يمكن قطعا عزل بكتريا كوخ العضوية، لأنها تختفى سريعًا بعد الموت(٩٢). وفى المقابل، فإن عددا معينا من السمات يذكر بقوة بسل العظام، وبصفة خاصة مظهر مومياء كاهن شاب لآمون، اسمه نيرسبيرمان فى الأسرة الحادية والعشرين(٩٣)، الذى كشف الفحص مظهرا يذكر بسل العظام، مع تدمير آخر أربع فقرات قطنية مرتبطا بخراج ضخم يمتد فى جراب العضلة.

جنود فرعون

فى عصر الإمبراطورية القديمة، لم يكن للمملكة جيش دائم، وفى وقت السلام، كانت قوات فرعون، قليلة العدد، تتكون أساسًا من حرس القصر، وفرق الحملات المكلفة بالسهر على الطرق الصحراوية وشرطة أماكن العمل. وفى حالة نشوب حرب مع جيرانها، كانت المملكة تجند جيشا مؤقتا يتكون من رجال الميليشيات ومساعدين أجانب.

وفى الإمبراطورية الوسطى، وتوقعا لإرسال حملات عسكرية كان الملك يحشد جيوشًا من المجندين إجباريًا عن طريق الكتبة. ولم تقم مصر جيشا محترفًا دائمًا منظمًا جيداً، يمكن أن يلتحق به الشباب فى سن العاشرة(٩٤)، إلا فى ظل الإمبراطورية الحديثة. وخلال الأسرة الثامنة والعشرين، كان الجيش يضم فيلقين من ٥٠٠٠ رجل، وقسم إلى كيانين متميزين، المشاة و"المدرعات"، بعبارة أخرى سلاح العربات الحربية(٩٥). وكان الجنود الذين يتقاضون أجورهم ذهبًا، يحصلون أيضًا على جزء من الغنائم -أساسًا العبيد والأراضى- تعويضًا عن حياة يمضونها فى تحمل اختبارات مهلكة، وهذا ما عدده أمين-أم-أب فى هذه القصيدة(٩٦) :

"آه، إذن ما الذى تقوله :
"إن حظ الجندى خير من حظ الكاتب ؟"
تعالى أعدّ لك ما يحدث للجندى المكبل بأنواع العذاب :
إنه يتم جرّه صغيراً . . . ويحبس فى الثكنات (؟)
إن ضربة مؤلمة (؟) يتلقاها على البطن ،
ضربة تشق شعر الحاجب ، ورأسه يشقها الجرح .
يتم مده وضربه مثل البردى (؟) ،
وتكسره العصا .
تعالى ، أعد لك رحلة فى سوريا ،
سيره فى الجبال .
يحمل خبزه وماءه على كتفيه ،
مثل حمل حمار ؛
وذلك يؤدى لتصلب عنقه مثل عنق الحمار .
وينحنى العمود الفقرى لظهره ، ويشرب الماء الآسن . . .
هل يواجه العدو ؟
إنه مثل عصفور أسير (؟)

إن أعضاءه لم يعد بها أقل القليل من القوة

هل سيعود إلى مصر؟

إنه مثل الخشب الذى ينخره الدود.

إنه مريض وينبغى له أن ينام

ويحملونه على حمار..."

لكننا نعرف بفضل شهادة ديودور الصقلى أن الأطباء كانوا مكلفين بأن يخفضوا وإن قليلاً هذه المعاناة وأن يعتنوا بالجنود: "فى الحملات العسكرية وفى الرحلات، يتم الاعتناء بكل الناس مجانًا، ذلك أن الأطباء كانوا يؤجرون على حساب المجتمع[٩٧]".

الموت فزعاً

لا ريب أن سوء التغذية وسوء النظافة العامة كانا يؤديان إلى تفاقم...الإسهال. فالواقع أنه كان من الصعب احترام النصائح الغذائية للبرديات الطبية فى التطبيق: لا تشرب البيرة الساخنة، لا تأكل لحمًا نيئًا جدًا، أو فاكهة الجميز الأخضر[٩٨]. ناهيك عن أن الجنود فى الحملات الذين كان يتعين عليهم فيها أن يأكلوا بأيديهم مثل كل المصريين، لم يكونوا يجدون دوما الماء الضرورى لغسلها قبل كل وجبة وبعدها حسب العادة. ومن هنا جاءت العدوى بالإسهال، الذى كان يعالج بعدة طرق. والعلاجات المقترحة للمرضى، كبارا وصغارا معا، تم تجميعها فى بردية إيبرز تحت فقرتين بعنوان: "الإسهال" و"وصفة جديدة للإسهال الدموى" فى بردية إيبرز من ٤٤ إلى ٤٩ . وها هى وصفة من عجينة طازجة يتم ابتلاعها وهى فى الواقع عجينة الخبز المكونة من دقيق القمح النشوى، والحنطة أو الشعير المذاب فى اللبن: "علاج للقضاء على تبرز (متكرر): نبات (جاريت) طازج: ٨/١؛ عجينة طازجة: ٨/١؛ دهن/زيت؛ عسل: ٤/١، شمع الشهد:٦١/١، ماء: ٢٥ رو. ويجرى إنضاج هذا ويتم أكله أربعة أيام متوالية" (بردية إيبرز ٤٤ : ١٤، ١١ – ١٧)[٩٩]. ويشير النبات (جيريت) المذكور هنا إلى بذور الخروب، التى يكثر المعالجون بالنباتات استخدامها لعلاج الإسهال.

وفيما يلى "حلاوة" علاجية من نفس المنبت، المعجنات (شين)، وأساسها دقيق الحنطة: "(علاج) آخر: قطعة من المعجنات (شين):١/١٦؛ طين أحمر: ١/٣٢؛ سيخت الجويو: ١/١٦؛ ماء: ٢٥ رو، ويتم ازدراد هذا أربعة أيام متعاقبة[١٠٠]".

وكان يمكن أيضًا استخدام ثمر العرعر، ذى التأثير المطهر للقناة الهضمية. "(علاج) آخر: شينفيت: ١/٨؛ فاكهة (إيشيد): ١/٨؛ عنب مجفف: ١/٦١، نبات (أنيست): ١/١٦؛ ثمر العرعر: ١/١٦؛ عسل: ١/١٦؛ ماء: ٢٥ رو. يترك هذا فى حالة سكون طوال الليل فى الندى، ثم يستخدم مثلما سبق." (إيبرز ٤٦).

ومن بين الوصفات المختلفة والجذابة، حالة تعد موضع جدل: "(علاج) آخر للتخلص من التغوط الدموى الغزير: عجينة طازجة: ١/٨؛ ساق نبات السعد الجذرية الصالحة للأكل مبشور: ٥ رو؛ دهون/زيت: ١/٨؛ عسل: ١/٨، يتم ترشيح (هذا) وازدراده أربعة أيام متوالية. وهذا لا يكافئه أى دواء آخر[١٠١]". وعلى خلاف رأى جونكير الذى يرى فى "التغوط الدموى"[١٠٢]، بولا دمويًا ثانويًا ناتجًا عن البلهارسيا، فإن فرضية تيرى باردينيه[١٠٣] ويمقتضاها أن ذلك يتعلق بإسهال دموى، يبدو أكثر إقناعًا.

حماية الرأس كلها

لكن ميدان المعركة، كان هو المجال الذى تتعرض فيه صحة الجنود للعذاب حقًا. لا ريب أنه كانت تحدث جروح حميدة وإن كانت مؤلمة، وأورام دموية وعضات تزخر بها حياة المحارب المقدام: وهكذا، فإن أربع فقرات بأسرها (٤٣٢ إلى ٤٣٥) من بردية إيبرز مكرسة لعلاج عضات الإنسان. أما فيما يتعلق بالورم الدموى، فقد كان يتم بذله: "ينبغى لك أن تحدث فيه شرطا بقصبة (أنبوبة)[١٠٤]" وأن تكوى الجرح بواسطة إخصائى، رجل الحمم حرفيا "ابن الأداة (حمم)، فى حالة النزف[١٠٥].

ولكن الأسلحة الهجومية المستخدمة فى ميدان المعارك (أقواس وأسهم للقتال عن بعد، وبلطة المعركة للقتال بالتلاحم جسديًا"، إذا ما أخذنا برأى إيرمان الموثق[١٠٦])، هى التى كانت تحدث الطعنات الأكثر خطورة فى المتقاتلين.

وكانت الرأس والصدر[١٠٧] وعظام القص، هى الأكثر تعرضاً للإصابة. إذ كان الرأس يمثل الهدف المفضل للبلطة وللأسلحة الأخرى المسببة للرضوض، مثلما تبين الصور الرمزية لفرعون، وهو يحطم رأس أعدائه بمساعدة هراوة، على جدران المعابد[١٠٨]. وهكذا، تم اكتشاف جروح كبيرة فى الجمجمة فى مومياوات الجنود فى مقبرة الدير البحرى بين زهاء ستين محارباً قتلوا فى معركة إبّان حروب الأسرة الحادية عشرة (الألف الثالثة ق.م.). وحسبما يقول ليفبر، فإن هذا يفسر عدد المقاطع التى تعالج الجروح فى البردية: "يبدو أن الرجحان الملحوظ لجروح الرأس، تفسره حقيقة أنها كانت متواترة فى الحرب، وأن الأطباء الملحقين بالجيوش أتيحت لهم فرص عديدة لدراستها وعلاجها." كان الأطباء المصريون يعرفون أن تشخيص الإصابات العميقة فى الجمجمة والعمود الفقرى يتوقف مباشرة على حالة الدماغ والنخاع الشوكى[١٠٩]. ومن ثم، كانوا يعتبرون وقوع إصابة فى الجمجمة دون جرح فى الجلد (تحطم فى الجمجمة يقع تحت الكساء الجلدى للرأس، دون أن تكون أعلاه إصابة)، مسئولاً عن حدوث عجز فى الحركة فى جانب واحد: "رجل يمشى وهو يجر قدم الجانب المتأثر بهذه الإصابة فى الجمجمة"، وهو ما يتفق مع لوحة عن الشلل النصفى[١١٠]. وهذا النص يدعو للاندهاش كثيرا: فالوضع الطبيعى، أن يكون العجز الحركى فى الجانب المقابل للإصابة الدماغية. لكن كل الأمور تجعلنا نعتقد أن المريض المعنى أصيب فى النخاع الشوكى، ويعانى من شلل نصفى يراعى السطح متماثل الجانب للإصابة الذى يندرج فى متلازمة براون سيكارد(*)[١١١].

وهذه ليست سوى الحالة الأولى من قائمة طويلة. ومن جانب آخر، فإن الأمر يبدو كله وصفا لكسر مغلق فى قبة الجمجمة مع تحرك جزء من عظمها من مكانه مع دوى عصبى، وإصابة فى العمود الفقرى مصحوبة بألم تلقائى فى الرقبة تسببه حركات العنق. "للرجل الذى لا تستطيع رأسه أن تتحرر من نهاية كتفه". كما يذكر الوصف نفسه ترابط الإصابات فى الجمجمة والعمود الفقرى والكسور فى الأماكن التى تصل ما بين الهياكل الدماغية والتجاويف، والتى تكون أحياناً مسئولة عن حدوث نزف

(*) الشلل الذى ينشأ من قطع النخاع الشوكى فى أحد جانبيه . (المترجم)

سحائى بعد الإصابة. ويرد ذكر لخطر حدوث نزف من الأنف، أو من الأذن مرتبط بهذا النوع من الكسور: "الرجل الذى يفقد الدم عن طريق المنخارين أو الأذنين عندما يصاب بتيبس فى الرقبة".

بل لقد ورد فى الوصف رقم ٣١ فى بردية سميث[١١٢]، حالة خلع للعمود الفقرى ("فصل فقرة من العنق عما يليها"): ومن هذا ترد لوحة لشلل رباعى يتفق مع توقف كامل ونهائى للمخ والنخاع، يكون مسئولاً عن حدوث غيبوبة "عندما لا يعود لديه إحساس بذراعيه وساقيه، عندما يتبلد...".

ومن ثم، لاشك: أن الأطباء المصريين نجحوا فى التمييز بين مرحلتين من رسم لوحة للشلل الرباعى. فى المرحلة الأولى، يكشف المريض عن حالة شلل رباعى رخو، يتسم بخدر فى كل الأجزاء الواقعة تحت مستوى الإصابة (كما ترى فإنه لم يعد يحس بذراعيه) وتعقب هذه المرحلة الأولى مرحلة ثانية تسمى "الحركة الذاتية الدماغية": يصبح الشلل الرباعى تقلصيًا وقد يتسبب فى سلس البول "عندما يسقط بوله من عضوه دون أن يحس".

وبالنسبة لممارس ذلك العصر، كانت إصابات الجمجمة والعمود الفقرى، وهى خطيرة عادة، تبرر الامتناع عن العلاج[١١٣]. كانوا يثبتون المريض بين دعامات من الطوب أو على الأرض، ويفرضون عليه نظامًا غذائيًا. وكان علاج الأعراض يقوم على التدليك بالزيت وهو ما يفترض أنه يقاوم تصلب الرقبة. والاحتمال الأكبر أنه كان يسبب الموت من جراء حدوث ورم دموى تحت الأم الجافية، أو لأن إصابات الجمجمة تجعل الهيكل العظمى العصبى مشوها[١١٤].

وهناك حقيقة بارزة، هى أنه لم تذكر أى من البرديات الطبية ثقب العظام بغرض العلاج. ومع ذلك، فقد كشف عدد من الجماجم، من مخلفات مصر القديمة بعد الفحص عن إصابات يبدو أنها تشير لعمليات ثقب للعظام: ذلك هو حال حورسيت - ميرتانون من الأسرة الخامسة والعشرين، وجمجمته مثقوبة على مستوى عظم الجبهة بفتحة دائرية بحواف مائلة وملتئمة تمامًا: حيث يؤيد تمتين الحواف حدوث تدخل قبل الوفاة. وقد وصف البروفيسور بطراوى جمجمتين مثقوبتين أخريين: كما خضعت للفحص ثلاث جماجم أخرى ناهيك عن جمجمة مومياء ترجع للأسرة الثامنة والعشرين[١١٥]،

بينت تحت أشعة السكانر وجود عيب بيضاوى تدل حوافه المنسقة على حدوث تدخل أدى إلى البقاء[١١٦]، وتثير هذه المشاهدات عدداً من التساؤلات، وبصفة خاصة عن أسلوب التخدير وعن ظروف البقاء بعد العمليات.

المجابهات !

لم يكن من النادر فى عنف المجابهات، أن يصاب الوجه نفسه، فقد ذكرت كسور الوجه مرات كثيرة فى البرديات. وهكذا تبين الحالة ٢٥ "عدم انطباق (انخلاع العظم، خلع فرعى) الفك[١١٧]، مثير للاهتمام جداً، أدى إلى وصف مناورة لربط خلع فى الفك الأدنى[١١٨]. ولم يجر وصف استحالة قيام المريض بإغلاق الفم ("لم يكن فمه قادراً على الانغلاق")، لكن تقنية الربط مطابقة لتلك التى لا تزال معمولاً بها حالياً: "يجب أن تضع إبهامك (إبهاميك) عند طرفى فرعى الفك، داخل فمه، وأصابعك الأخرى تحت ذقنه. وتدفع (الفرعين) نحو الخلف حتى يعوداً إلى مكانه"، وبنفس الدقة جرى وصف كسر فى عظام الوجنة أو الفك السفلى الذى يمكن التعرف عليه من أزيزه ("يئز هذا الكسر تحت الأصابع")[١١٩].

ولا ننسى إصابات الأذن المتواترة فى المعارك بصفة خاصة[١٢٠]، وهى عضو له أهمية حاسمة فى الفسيولوجيا المصرية: إذ كان أطباء ذلك الحين يعتقدون فى الواقع أن نفس الحياة يدخل من الأذن اليمنى، فى حين أن نفس الموت يخرج من اليسرى. ونفس الحياة هذا ترسله الآلهة ليحمل الطاقة اللازمة للنشاط المستقل للجسم، ويسمح للقلب والرئتين بالعمل بصورة مستقلة عن الإرادة. وفى هذا المنظور، نفهم جيدا السبب فى أن قطع الأذن كان يوقع باعتباره أقصى عقاب.

ولا تكتمل اللوحة إن لم نذكر الأنف، التى تفتح الطريق للنفس حتى الرئتين وفى القلب (حاتى) لدفعه للانتشار فى كل الجسم بفضل القنوات (ميت). وكان هذا الهواء يعتبر ركيزة الكلام، والتفكير، والإرادة والتيارات الدينامية التى تذرع القنوات (ميت). ونجد دور الأنف هذا، باعتباره بابا لدخول النفس الحيوى فى النصوص الأولى من التوراة، سفر التكوين ٢ ، ٧: "وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه

نسمة حياة. فصار آدم نفسا حية". ومن ثم، كان جدع الأنف هو أيضا عقوبة قاسية، توقع مثلا على النساء الزانيات[١٢١].

ولهذا السبب كان على الأطباء المصريين أن يبذلوا كل ما في وسعهم لعلاج إصابات الأنف التى لابد وأنها كانت شائعة إبان التدريبات، أو المعارك. ويذكر الوصف ١١ فى بردية سميث الجراحية حالة كسر فى غضروف الحجاب العظمى للأنف أو فى عظمه هو نفسه، واضعا تفرقة واضحة بين إصابة الحجاب العظمى الأنفى وإصابة العظام نفسها.

كما نجد فيها وصفًا لكسر آخر لغضروف الأنف، تعرف فيه الأعراض التقليدية: الاستسقاء الموضعى، وتشوه ونزيف أنفى. "إذا شرعت فى فحص رجل أصيب بكسر فى عمود الأنف، فى حين كانت أنفه محطمة، فى حين كان وجهه قد أصابه الضنى، وفى حين كان يوجد عليه (الكسر) انتفاخ يبدو ناتئا، وفى حين كان قد فقد دما من منخريه، فعليك أن تقول فى هذا الموضوع: "رجل أصيب فى عمود الأنف، وهو بلاء أستطيع أن أعالجه".

وكان السلوك العلاجى الملائم يتمثل فى حشو المنخارين بسدادة من الكتان ثم تقويم الحجاب العظمى قبل تثبيته. ويقرب هذا قليلاً من الرعاية التى نبذلها حاليًا: "عليك أن تنظفه باستخدام سدادتين من الكتان، ويجب أن تضع سدادتين (أخريين) من الكتان، ادهن بالشحم، داخل منخاريه. يجب أن تضعه على سرير يثبت عليه (عليه أن يبقى طريح الفراش) حتى لحظة زوال الانتفاخ، ويجب عليك (عندئذ) أن تضع جبيرتين مغطاتين بالكتان بفضلهما يظل الأنف مشدودا. وبعد ذلك عليك أن تعتنى به (الكسر) بالشحم والعسل والسدادات النباتية، كل يوم حتى يتعافى[١٢٢]".

كما ذكرت أيضًا كسور عظام الأنف نفسها: "إذا شرعت فى فحص رجل أصيب بكسر فى حجرة الأنف، ولاحظت أن الأنف مقوسة، فى حين أن الوجه يبدو وقد وطئ، فى حين يوجد عليه (الكسر) انتفاخًا يبدو ناتئا، عليك أن تقول فى هذا الموضوع "رجل أصيب بكسر فى حجرة الأنف، وهو علة أستطيع أن أعالجها".

وعقب ذلك، عليك أن تضع سدادتين من الكتان المدهون بالشحم يتم إدخالهما فى المنخارين. (ثم) يتعين عليك وضع جبيرتين مغطاتين بالكتان. ضمّد بهذا، ويتعين عليك بعد ذلك أن تعتنى به (الكسر) بالشحم والعسل والسدادات النباتية كل يوم حتى يتعافى.

وفيما يلى أيضاً حالة تحطم عظام فى الأنف مصحوباً بسيلان دموى من الأذن، ربما كان ناجمًا عن كسر فى العظم الصدغى الصخرى. وبمثابة استنتاج لاحظ الطبيب، بقليل من التشاؤم: "رجل أصيب بتحطم (فى عظام) المنخار، وهو علة لا يمكن علاجها[١٢٣]".

وفى مكان آخر، نرى وصفا لإصابة فى المنخر تمت خياطتها ("يجب أن تبقى عليها (شفرتا) الإصابة مغلقتين معا باستخدام خيط")، قبل إفراغ الدم المتجلط ("يتعين عليك تنظيف كل دودة الدم المرتبطة بداخل المنخار")، واستخدام ضمادة من اللحم الطازج ذى الخصائص التى تشفى الجروح[١٢٤].

جراحة الحرب

ربما كان هذا شق قصبة الرئة الذى نراه مصوراً على نصب اكتشفها السير فليندز بيترى: فهى تصور عيد حيب - سيد وهو احتفاء باليوبيل الملكى، حيث كان يتعين على الفرعون أن يؤكد من خلال اختبارات معينة، قدرته على حكم البلاد بعد ٣٠ سنة من الحكم. ونميّز فى أحد المشاهد شخصية بارزة جالسة، وأداة مدببة فى يدها موجهة نحو حلق أو صدر شخص يجثو على ركبتيه، وذراعاه مربوطتان إلى ظهره. ويظهر بينهما وعاء. وحسبما قال عدد معين من خبراء المصريات، فإن ذلك يصور طقسًا للتضحية بالسجناء؛ لكن فيكنتيف[١٢٥] يرى فى هذا شق قصبة الرئة له دلالة شعائرية، ترمز إلى حياة جديدة تمنح للسجين، وهو هنا يرمز للفرعون نفسه.

ولم يكن البتر نفسه يتم بغرض علاجى. بل كان عقابًا تقليديًا تقضى به المحاكم، مثلما أورده ديودور الصقلى: "كان القانون يقضى بقطع لسان من يكشفون للعدو أسرار الدولة؛ وكان يقضى بقطع أيدى الذين يزورون النقود، والذين يغيرون الأوزان

والمكاييل، أو يبدلون نقوش الأختام[١٢٦]". ونحن نعرف أيضا أنه خلال قضية مؤامرة الحريم فى ظل رمسيس الثانى، حكم على اثنين من القضاة تركا نفسيهما للإغراء والارتشاء بجدع الأنف والأذنين[١٢٧].

وكانت العقوبة نفسها تطبق على الأعداء فى الحرب: وهكذا وجدنا فى معبد مدينة هابو مشهدا يصور عدّ أيدى وقضبان الأعداء الذين قتلوا فى المعركة أمام رمسيس الثالث. ومن هذه الممارسات، وجد الباحثون أثرًا، كما يمكن القول، على المومياوات: وقد حلل بروثويل[١٢٨] ومولركريستنسن[١٢٩] ساعداً تم فيه بتر العظمتين من الثلث الأدنى وتربط بينهما ندبة عظمية كبيرة. وذكر جراى[١٣٠] بدوره مومياء قطع ساعدها الأيسر من فوق القبضة، مع بديل تعويضى غليظ ملفوف فى أربطة من القماش وضعه المحنط بعد الموت.

والزعماء أيضاً

من الواضح أن الزعماء كان لهم نصيبهم من المعاناة فى المعارك، وفيما يلى حالتان لفرعونين باسلين سقطا فى ميدان الشرف تبينان وتلخصان جيدا المخاطر التى كانوا يتعرضون لها.

لقد كان سقننرع، من الأسرة السابعة عشرة، ويسمى أيضا "الشجاع"، رجلاً جميلاً وطويلاً وممشوق القوام، ويتمتع بقوة عضلية، و"له شعر أسود مجعد، ورأس صغير مستطيل، مات موتة عنيفة فى سن تبلغ الثلاثين تقريبًا[١٣١]، وذلك ما تنبئنا به المومياء الخاصة به... وفيما يلى ما كشف عنه رصيد فحصه الإكلينيكى والإشعاعى[١٣٢]: ستة جروح فى الجمجمة والوجه، تسببت فى موته. خذ عندك: كسر جبهى عرضى ومفتوح فى الجمجمة، طوله ١٠ سم، وكسر مفتوح فى طرف محجر العين الأيمن وآخر فى الوجنة اليمنى، وفى القوس الوجنى، ربما نجم عن بلطة حربية، وكسر مفتوح فى عظام الأنف نفسها، مفتت وربما ناجم عن ضربة بعصا (أو مقبض بلطة). يضاف إلى ذلك كسر مفتت مفتوح للوجنة اليسرى مع إصابة فى الفقرة الأولى من العنق ربما نجمت عن أداة مدببة (رمح أو حربة...؟)، وبهذا تحصل على العدد!

وترجع هذه الإصابات، والتي لا ريب أنها كانت مسئولة عن موته، إلى استخدام سلاحين، أحدهما مدبب والآخر راض أو قاطع، وهو ما كان مستخدما في ذلك العصر سواء في مصر، أو عند الهكسوس.

ولم يكشف باقي فحص الهيئة عن إصابات في الجسم ولا على الذراعين، مما يشير إلى أن "الشجاع" لم يقاوم طويلا. ويطرح تحنيطه الموجز، الذي تكشف عنه الرائحة السيئة الناجمة عن نقص النطرون، وبقاء المخ في مكانه وكون الأربطة المضغوطة جدا مما تسبب في خلع الأطراف، افتراضين[١٣٣]. الأول هو حدوث عملية اغتيال في طيبة، على أيدي حاشيته، أولا بضربة من خنجر في رقبتـه (أثناء النوم)، ثم ضربات أخرى تدل على ضراوة قتلته: فقد أنجزوا مهمتهم بكمية كبيرة من الهراوات والبلط...والفرض الثاني، وهو الأكثر احتمالا، هو عن موت باسل في ميدان المعركة، أعقبه تحنيط متعجل.

وكان منفتاح رجلاً له شأنه: فقد اعتبر أنه فرعون الخروج الشهير، رغم أنه لم يذكر باسمه صراحة في التوراة ولا في القرآن[١٣٤]. ولابد أنه كان رجلاً مسنًا، أصلع، أهتم، بدينًا، وحتى سمينا، يعاني من التهاب مفاصل العنق وتصلب تعضدي[١٣٥]، مات متأثرا بإصابات الجروح. ومع ذلك، فإنه رغم أن البعض يرى أن البحر الأحمر ابتلعه، يبدو أن الماء لم يكن مثواه. وفي المقابل، فإنه هو أيضا يمكنه أن يتباهى بقائمة رائعة من التفوق في عدد الإصابات: إصابة في الجمجمة والدماغ، فقد جزء من جلد وعظم مقدم القدم اليسرى، ومن الترقوة اليمنى والضلع الأول الأيمن، وكسر في العنق العضدي الأيمن، فقد جزء من الأضلاع اليمنى العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة وكسر مفتت لعظمتين في الساعد الأيمن. وقد جعل هذا الفحص، الخليق بطبيب شرعي، علماء المصريات يتساءلون عن ظروف موت منفتاح. إذ تشير إصابات الجروح إلى أن الموت حدث في معركة، ولكن يثور سؤال عن كيف استطاع عجوز قعيد بسبب التهاب المفاصل أن يطارد على عربته الحربية شعب إسرائيل وهو يفر[١٣٦]!

للإغريق الحق فى أن يسموا المصريين Artopagoi(١٣٧) بعبارة أخرى "أكلة الخبز"، لأن الخبز ومنتجات الحبوب، أساسا من الشعير والحنطة، كانت تمثل أساس غذائهم(١٣٨). ومن هنا ندرك أهمية الخباز الكبيرة فى المجتمع المصرى: فإليه يعهد بعجن العجين وتشكيل الخبز، وبالأحرى أقراص الحلوى، وكان كل ذلك مستديرا عادة وأحيانًا مستطيلاً(١٣٩). وكان يصنع ذلك فى فرنه، المكون من ثلاثة أو أربعة ألواح من طمى النيل المجفف التى يوضع عليها لوح كبير آخر أكبر. وكانت هذه المناورة تعرضه لعدد من الحوادث، تتحدث عنها أهجية المهن، وإن لم تخل من سوء طوية(١٤٠). ولنتأمل المشهد قليلاً: "عندما ينهمك الخباز فى إنضاج الخبز، ووضعه على النار، فإنه يضع رأسه بداخل الفرن، فى حين يمسك ابنه بساقيه(١٤١). وإذا أفلت ذات مرة من يدى ابنه، فإنه سيسقط فى النار المضطرمة(١٤٢)".

وإضافة للحروق، فإن انبعاث الدخان بكثافة كان يؤدى إلى التسمم بأكسيد الكربون، وأخيراً، فإن كل الشواهد تجعلنا نفترض أن الخبازين المصريين كانوا معرضين، على غرار نظرائهم المعاصرين، لخطر ربو الدقيق، الذى يسببه اغبرار مكان الخبز(١٤٣).

الحروق والحساسية

كان إيبل هو الذى طرح افتراضا عن أزمات الربو لدى المصريين، التى كانت الوصفات العشر الواردة فى بردية إيبرز مخصصة لعلاجها حسبما يرى. ولكى يدعم نظريته، أخذ كحجة له كلمة جيحو(١٤٤) فى لغة مصر القديمة: وهو الاسم المعرف، الذى يشير إلى العظاءة، وإلى الحرباء على وجه أكثر دقة، ويدل على فحيح الرعب الذى يصدره هذا الحيوان. وهو صوت كما يقول، كان يتيح ربط هذه الكلمة بمرض الربو. ومع ذلك، فإن النص غامض كثيرا والعلاجات المقترحة أقل تحديدا لتبرير ترجمة بمثل هذه الدقة.

وعندما لم يكن الخبازون يصابون بهذا المرض، كان يمكن مع ذلك أن يحترقوا بملامسة جدران أفرانهم. ولا شك أن معاناة شديدة هى التى أجبرتهم على اللجوء للسحر(١٤٥)، وإلى جانب أشياء أخرى استخدام صيغ مستلهمة من مشاهد الميثولوجيا – مشهد حورس الطفل مثلا، الذى تعرض لحرق، وعالجته أمه إيزيس(١٤٦). وكان يصحب هذه التضرعات لبن امرأة جاءت للعالم بطفل صغير، محاكاة للآلهة التى عالجت ابنها بلبنها هى نفسها(١٤٧).

وهناك مثل آخر له دلالته على العلاج السحرى الذى كان مطبقا على هذه الإصابات: معالجة الحرق من الدرجة الثالثة، "مكان تعرض للحرق عندما يتحلل"(١٤٨). ويذكر علاج اللون الأسود (القطران النباتى) بالغنغرينة (أثر الحرق الضارب للسواد) من نفس هذا النوع من الحروق.

ولا ريب، أن السحر كان يستبدل أحيانًا بوصفات أخرى، محيرة هى أيضا: فذلك ينطبق على العجينة الدهنية التى تستند إلى الغائط والتى كانت توضع تحت سدادة على الجروح من الدرجتين الأولى والثانية(١٤٩). هل يوجد شيء أكثر مدعاة للاندهاش عندما ندرك مخاطر التلوث المترتبة على ذلك؟ ولكن هنا كما فى المسائل الأخرى، فإن من يورد الوصفة، يعرضها باعتبارها معجزة حقيقية، تؤكدها التجربة: "إنه فعال حقا! لقد رأيت (ذلك) و (ذاك) يحدث عادة فى الواقع !(١٥٠)"

وأخيراً، فإنه من أجل الإجادة، لا يتردد بعض الممارسين فى اقتراح وصفات لمعالجة أضرار جمالية: "للتخلص من البقع البيضاء فى المكان المحترق(١٥١)".

العض بكامل قوة الأسنان

كان لهذا الاستهلاك المفرط للخبز نتائج مدهشة على الصحة العامة إذ يكشف الفحص الدقيق للمومياوات أنه أيًا كانت العصور والفئات الاجتماعية، فإن المصريين كانوا يعانون من تآكل الأسنان، وتلف سطوحها(١٥٢). وكانت هناك مبادرة لدراسة تكوين أرغفة الخبز الكبيرة المدورة المدفونة مع الموتى فى قبورهم: وجاء هذا البحث بقدر كبير من المعلومات(١٥٣). والواقع، وحسبما يقول شوارتز(١٥٤)، فإن تآكل وحتّ

السطوح السادّة، كان ينتج عن مضغ هذا القوت، المكون فى جزء له شأنه منه من عناصر معدنية (الرمل، والفيلدسبات، والميكا، والصلصال)[١٥٥]. ولتبرير هذا التكوين الباعث على الدهشة للخبز، ينبغى الرجوع إلى جميع مراحل صناعته: فقد تحشر فى كل مرحلة عناصر معدنية مختلفة، كانت فى الواقع موجودة فى كل مكان، بدءاً من الأرض التى يزرع عليها القمح حتى اللحظة التى يختمر فيها العجين فى الشمس، ويظل ملامساً للرمل. وفى هذه الأثناء، كان القمح يتلامس مع المنجل المصنوع من الصوان المستخدم فى الحصاد، والرمل يتسلل بفعل الرياح خلال التذرية والتخزين، وتكسر المدقات، أو الرحايات عند طحن الحبوب[١٥٦].

الكهنة

إنهم موظفون: ذلك ما كان عليه الكهنة فى ظل الإمبراطورية القديمة، عندما لم يكن هناك موظفون دائمون فى المعبد كرسوا أنفسهم للإلهيات والعبادة الجنائزية للملك. وكانوا هم الذين يؤدون صلوات الطقوس والشعائر، عندما يعهد إليهم بهذه المهمة المؤقتة. وفى ظل هذه الظروف، كيف كان يمكن أن يقوم مجمع للكهنة؟ فى نهاية هذا العصر، بدأ الملك يتخلص من مواثيق الحصانة،التى كانت تعفى ممتلكات مختلف المعابد من الأراضى الزراعية من الضرائب والسخرة. وانتظم شيئاً فشيئاً اقتصاد يدور فى الأساس حول العبادة الجنائزية والإلهية، وكان من جراء ذلك أن تشكلت هيئة كهنوتية دائمة: تزايدت أهميتها باضطراد حتى ابتلعت ملكية الإمبراطورية الحديثة[١٥٧].

وكانت تضم مجموع العاملين فى المعابد: كان العرافون يشكلون هيئة الكهنوت العليا، والكهنة الهيئة الدنيا، كما ضمت أيضاً علمانيين يسمون "ميقاتيون"، وعاملات من النساء[١٥٨]. ومثلما يصف ذلك مارتينيز، فإنه "عندما يدخل الكاهن فى خدمة إله معين، فى معبد معين، يأخذ مكانه فى تسلسل هرمى مهيكل ومتنوع بصورة قوية، جامد غالبا، ويشكل تنظيماً مغلقاً على نفسه ، ومستقل ذاتيا بصورة كلية، سواء عن المجتمع المدنى أو عن أنواع التسلسل الهرمى الأخرى[١٥٩]. وكانت الممتلكات المقدسة الواقعة تحت تبعيته لا تضم فقط المعابد، وإنما كانت تضم أيضاً مساحات شاسعة من

الأراضى الزراعية التى توفر الغذاء الضرورى للعبادة ولحياة العاملين، وتمثل علاوة على ذلك ثروة عقارية(١٦٠). وعلى سبيل المثال، كان معبد آمون فى الكرنك، وهو الأهم بين كل المعابد، يستخدم ٨١٣٢٢ رجلاً فى نهاية حكم رمسيس الثالث(١٦١).

وبين من كانوا يدورون حول هذه الممتلكات العامة، نجد هيئة طبية: يشهد على ذلك شخص اسمه باحاتيو، ذكر باعتباره "طبيباً لمعبد آمون" فى بردية أمهرست فى السنة ١٧ من حكم رمسيس التاسع (الأسرة ٢٠)؛ وميريي، وهو أيضًا "كبير أطباء فى معبد تحوت" وأصله من طيبة، حيث نجد اسمه على نقش فى الدير البحرى(١٦٢)، أو أيضًا إيناى، "كبير الأطباء" فى معبد بتاح فى ممفيس فى ظل الأسرة العشرين، ويباديا من، "كبير أطباء معبد أوزوريس" والذى ذكر على نصب فى عصر انتهاء الإمبراطوريات. وللحصول على فكرة عن أسلوب حياة مرضاهم، الذين لم يكونوا هم أنفسهم سوى كهنة، يجب الرجوع إلى هيرودوت: "كان الكهنة يحلقون الجسم كله كل ثلاثة أيام، حتى لا يكون عليهم لا قملة ولا أى نجاسة عندما يخدمون الآلهة. كانوا يرتدون فقط رداء من الكتان وصندلا من البردى (...)، ولم يكونوا يستهلكون، أو ينفقون شيئا من ممتلكاتهم الخاصة، ولكن كانت تطهى لهم أغذية مقدسة ويحصل كل منهم كل يوم على كمية كبيرة من لحم الثيران والأوز ويحصلون على نبيذ الكروم، فى حين لم يكونوا يستطيعون تناول السمك(...)(١٦٣)".

وإذا ما أخذنا بذلك، نرى أن نظافتهم العامة وأسلوب تغذيتهم يختلفان كثيراً عن نظافة وأسلوب حياة الطبقات الاجتماعية الاقتصادية الأدنى(١٦٤). وعلى سبيل المقارنة، فإنه فى ظل الإمبراطورية الوسطى، كانت جرتان من البيرة وثلاثة أرغفة من الخبز هى الجراية اليومية للعامل، محسوبة على أساس متوسط الأجر. أما الكهنة، فكل الشواهد تجعلنا نعتقد أن هذا القوت الخاص، الغنى باللحم والفقير من الأسماك، قد تفاقم بأسلوب حياة الاستقرار، الذى كان يشجع التصلب التعصدى، ناهيك عن هم جير الأسنان.

مستعدون للشراء بسعر رخيص

وضحايا التلوث

تبين المعلومات المتوافرة لنا عن الموارد الغذائية للمصريين، بفضل اللوحات والنصوص بل والأطعمة التى وجدت فى المقابر، أن السمك كان غذاء شائعًا يمثل السكان الأكثر فقراً، فى حين كان اللحم، والذى كان يسلق أو يشوى عادة، مقصوراً على وجبات الأعياد - خاصة لحم الثور، المفضل عن لحم الغنم والماعز والخنزير، ولكن السمك كان يعتبر غير ملائم للاستهلاك بالنسبة للطبقات المحظوظة، ومنهم الكهنة(١٦٥). ونحن ندرك جيداً السبب فى أن فحص الأمراض القديمة فى المومياوات قد بين أن عددا معينا من المصريين المنحدرين من القسم المحظوظ اقتصاديًا واجتماعيًا(١٦٦) وبصفة خاصة رجال الكهنوت كانوا ضحايا للتصلب التعصدى.

ومن جانب آخر، نجد السمنة، والتى تعكس أخطارا على القلب والأوعية، لدى نفس الطبقات الاجتماعية المحظوظة(١٦٧) مثلما توضحه صور أمينوفيس الثالث، ورمسيس الثالث، وتحتمس الثانى، ومنفتاح، وسيبكمساف الثانى، وكا-عبر كبير الكهنة الحاضرين، والأمير هيميونو أو نفرحوتب، وعازف الهارب الأعمى فى متحف ليدن، الذى صور فى وضع جلوس وله ثلاث طيات دهنية ضخمة فى جسمه. أما بالنسبة للجنرال ماساهيرث، فقد كانت زيادة وزنه كبيرة لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يعقد يديه أمام أعضائه التناسلية كما كانت العادة! وعلاوة على الحالات المختلفة التى اكتشفت فى مومياوات الكهنة(١٦٨)، فإن رمسيس الثانى(١٦٩) من أشهر الأمثلة على التصلب التعصدى، وقد مات فى سن الخامسة والتسعين: إضافة إلى شرايين صدغيه السطحية التى كانت ناتئة ومتعرجة ومتكلسة، كشف الفحص الإشعاعى عن تكلس تصلبى تعصدى لشرايين الفخذ ولشريانين سباتيين داخليين(١٧٠).

ويصعب كثيراً تقدير تفشى التصلب التعصدى لدى سكان مصر: لأنه بعد إمعان النظر، لا تتوافر سوى مومياوات عدد من القسم المحظوظ اجتماعيا واقتصادياً فى العصر الفرعونى، وهذا الاختيار المتكرر لا يمثل أبداً مجموع السكان...

ومع ذلك، فإنه إذا كان لابد من التوصل لسبب لهذا المرض، بسبب نقص المعلومات عن مدى انتشاره، فإن الغذاء لا يفسر كل شىء : فالتسمم بأكسيد الكربون، الذى كان

شائعًا لدى المصريين مثلما يوضح وجود آثار الكربون فى الأنسجة الرئوية لمومياوات كثيرة، ينبغي احتسابه ضمن عوامل الخطر. فسوء تهوية الدخان الناجم عن التدفئة والطهى فى المساكن كان يدعم انتشار التعصد بفعل آليات انعدام الأكسجين فى الأنسجة وزيادة الخاصية الشعرية لنفاذ المواد الدهنية(١٧١).

لكن هناك مسألة أكثر إثارة للاضطراب والجدل، سال بسببها مداد كثير: افتراض تسمم المصريين بالتبغ. وقد اكتشف بالفعل تبغ فى بطن رمسيس الثانى عند عرضه فى باريس فى ١٩٧٦ . وفورا، أثار البعض، وهو ما يصعب تصديقه، المهزلة التى قال بها أحد علماء المصريات بأن هذه البقايا تركها مرشد مهمل فى المتحف(١٧٢). لكن دراسة جادة أكدت الصدق المادى والزمنى لهذه العينة فى بطن الفرعون الشهير(١٧٣). ويستحيل مناقشة التحديد النباتى للتبغ، ولا إنكار وجود القلويد، بالتزامن مع النيكوتين، ووجود فصيلة مغمدات الأجنحة، والعثة، وطفيل محدد من النوع التبغى.

كيف يتم الاعتناء بمثل هؤلاء المرضى، عندما يصيبهم التصلب التعصدى؟ يمكن إجراء ذلك ببساطة بكثير من المراهم، المخصصة "لتليين" ليس القنوات (ميت) نفسها، بل المواد التى تضمها بين جنباتها والمعرضة للتصلد(١٧٤). وتقترح بردية إيبرز رقم ٦٥٧ استخدام: "دهن الثور: ١؛ ثمالة النبيذ: ١؛ ثوم : ١؛ فحم الجدران (السناج) : ١؛ حبوب نبات الفاشرا (؟): ١؛ حبوب البازلاء: ١؛ حبوب نبات الجاس: ١؛ معدن سيا من الجنوب؛ راتنج التربنتين: ١؛ اللبان: ١ . يدهن اللحم السطحى ويعرضه للشمس". وهذا التصلب المثير للمشاكل فى القنوات يعترض حرية مرور السوائل الجسدية، ويسبب التوتر، والضغوط المؤلمة، ويعرقل الحركة. وكان المصريون يفسرون هذا التصلب إما ببلى القنوات، أو بهجوم مواد ضارة قادرة على أن تجعلها تتصلب. وعلى عكس التفسير الحديث للتصلب التعصدى، كانوا يسلمون بإمكان معاناة القنوات دون اعتبار أن هياكلها الخاصة يمكن أن تتغير.

الكتبة: مهنة مرموقة

لا ريب أن هذه هى المهنة الأشد تميزًا فى مصر القديمة. وباستخدام تعبير جاى راشيه: "كان الكاتب هو صاحب أكثر الامتيازات فى الحضارة المصرية"(١٧٥). ولكى يمتهن الطفل هذه المهنة، كان عليه أن يتعلم أولاً العلامات الهيروغليفية والكهنوتية فى المدرسة.

وفى نهاية عملية تعلم وتلمذة طويلة وصعبة، كان الكتبة يدخلون فى الإدارة، ويشغلون فيها مكانا استثنائيا: "انظر، لا يوجد وضع يتسم بالسيطرة والاستثناء مثل وضع الكاتب الذى يأمر هو نفسه(١٧٦)". فالكاتب يحظى بمنزلة رفيعة فوق كل عمل ويصبح حكيمًا"؛ "إن درج وأدوات الكتابة خاصته ولفات (البردى) الخاصة به تكفل له يسراً كبيراً"، وكان الكتبة المعفون من الضرائب، والمحررون من الأعمال التى يفرضها الملك على الفلاحين والحرفيين، ذوى حظوة وامتيازات فعلية، وآلة لا غنى عنها فى إدارة جسيمة ومعقدة، وضمانا للقوة والازدهار لمصر. لكن الناس لم يكونوا يقدرون كثيراً هؤلاء الموظفين المكلفين بإدراج الماشية والمحاصيل وإنتاج الحرفيين فى الحسابات، هؤلاء "الناسخون" الذين لهم الحق فى عقاب من كانوا يحاولون اختلاس الممتلكات أو الذين لا يستطيعون دفع الضرائب.

ذوو الامتيازات أصحاب الأسنان الطويلة.. لكنها تالفة

كان "أصحاب الامتيازات" هؤلاء الذين يتم الدفع لهم عينا، فى شكل خبز، وأسماك وبيرة، يعانون – وهذا لا يدعو للدهشة أبداً – من متاعب فى أسنانهم، نتيجة طعامهم الغنى بالمواد المسببة لنخر وتسوس الأسنان (الخضراوات، الخبز الصرف والبيرة). وعلى نحو أقل تواترا إبان عصور ما قبل الأسر، كان تسوس الأسنان يصيب أساسا أفراد الطبقة الأرستقراطية فى الأزمنة القديمة. والواقع، أن ذلك كانت تنشطه تغذية وفيرة جداً، أكثر غنى فى الأطعمة المطهوة والمسكرة، والتى كانت تستهلكها أساسًا الفئات الميسورة من السكان فى ظل الإمبراطورية القديمة. وكان التقشف، وعدم وجود الأغذية المسببة لتسوس الأسنان والثراء بالأغذية ذات العناصر المقاومة لتسوس الأسنان، يحمى الناس الأكثر فقراً كما يقول غليونجى(١٧٧).

ولكن مع مرور الزمن، أصبح السلوك الغذائى للطبقة العالية -اجتماعيا واقتصاديًا- عاما بالنسبة لمجموع السكان، وامتد تسوس الأسنان إلى كل الفئات الاجتماعية(١٧٨)، وتجاوزت النسبة المئوية لعدد الأشخاص المصابين به حسب الدراسات ٣٪ من عدد السكان فى عصر ما قبل الأسر، و ٨,٧٪ وحتى ٢٠٪ خلال الفترات المسيحية(١٧٩).

وكان فى مقدور تسوس الأسنان هذا أن يسبب مضاعفات خطيرة، أتاحت دراسة المومياوات الكشف عنها: فقد كان أمينوفيس الثالث يعانى من خراج فى الأسنان أعجزه لدرجة إرسال أحد آلهة متيان لكى يشفيه، دون أن يحقق نجاحًا حاسمًا. وتكشف مومياء رمسيس الثانى عن تسوس كبير فى الضرس الأول الأيمن السفلى، وكان واضحا جدا فى التصوير بالأشعة، مع وجود منطقة لالتهاب النسيج العظمى وتنكرز شظية عظمية(١٨٠) لابد وأنها جعلته يعانى بصورة رهيبة: ربما نتج من ذلك فساد فى الدم كان مسئولاً عن موته، بل لقد وجد بطراوى جمجمة من الأسرة الخامسة، بها خراج نخروبى فى الضرسين الثانى والثالث متصل بتجويف الفك(١٨١). وإذا تجاوزنا الضرس الأمامى الطاحن الذى كان ناقصًا لدى سيتى الأول، يمكن أن نجد أيضًا كثيراً من أشكال سوء وضع الأسنان الذى اكتشف فى مومياوات مختلفة. فمثلاً كانت أحمس - نفرتارى زوجة أحمس الأول تعانى من بروز فى الفك الأعلى ونتوء القواطع للأمام، وعدم وجود بروز فى أسنان العقل السفلى : ويمثل ذلك كثيراً من أوجه الشذوذ التى يبدو أن جدته تيتشيرى عانت منها هى أيضًا.

وتقدم بردية أناستازى الرابع فكرة عن المعاناة التى سببها تسوس الأسنان هذا، وأن المصريين كانوا يأخذون الموضوع مأخذ جد: وهكذا فإن عاملاً كان يحصل على جراية من القمح بمثابة معاش من جراء هذه العاهة(١٨٢): " كل عضلات الوجه ترقص، والتهبت أغشية عينيه، ونزلت منها إفرازات، لقد نخرت الدودة أسنانه".

لكن هل كانت تتوافر العناية بالأسنان للكثيرين؟ لقد صنع المصريون الضمادات من مواد كثيرة، وبصفة خاصة من تربة النوبة، التى حولت إلى كتلة مخصصة لسد الثقوب التى تحدث فى الأسنان. وربما كان من المعتقد أن هذا المستحضر المؤقت، بسبب خصائصه الحيوية والميكانيكية لمختلف معادنه، يجعل الأسنان محكمة السد ويقضى على الألم الناجم عن الساخن والبارد(١٨٣).

أما فيما يتعلق باقتلاع الأسنان، فإن الشواهد تجعلنا نعتقد أنه كان يمارس بطريقة فعّالة على أيدى "مقتلعى الأسنان"، وهو ما نجده فى كل العصور؛ وهذا هو على الأقل ما يدل عليه فى عدد من المومياوات غياب سنة تاركة عظمة مندملة مع التهاب حول السنة دون جرح. ويشهد على ذلك فم مومياء الفرعون منفتاح، الذى لا يحوى سوى ست أسنان فى الفك العلوى وسبع فى الفك السفلى[١٨٤]. ويشير وجود لُحْمة منتظمة جدا على العظم أنها سقطت، أو اقتلعت قبل موت الفرعون. وحسبما يقول كوينوى، فإنه لابد حتى أن أسنانا معينة قد نزعت من شبان درست حالاتهم وكانت أسنانهم سليمة، مما أبقى على العظم سليمًا ومندملاً جيداً.

والأكثر مدعاة للدهشة، أن اكتشافات أركيولوجية معينة تسمح بالاعتقاد بأن قدماء المصريين كانوا يجرون عمليات تعويض للتثبيت. وفى هذا الصدد، فإن العينة التشريحية الأكثر إثارة للاهتمام اكتشفها فى الجيزة يونكر فى ثلاثينيات القرن العشرين[١٨٥]: وتتعلق بسنتين (الضرسين الثانى والثالث من أسفل اليسار) تخصان شخصا مات خلال الأسرة الخامسة، مربوطتين فوق جذريهما بسلك من الذهب المهدب حلزونيا بقطر ٤,٠ مم[١٨٦]. ولما كانتا ملطختين بمواد من التى تترسب على الأسنان، فيبدو أنهما تم تثبيتهما لشخص كان حيًا. لكن بلى السنتين والفراغ الكبير الذى يفصل بينهما يلقى الشك على الطبيعة الدقيقة لعملية التعويض المفترضة هذه.

وعند فاينربرجر[١٨٧]، فإن ذلك يتعلق بمناورة هدفت إلى سدّ ضروس العقل بصورة طبيعية. بل ويعتبرهما البعض تميمة[١٨٨].

ولكننا نجد عينات تشريحية أخرى، مثل الكوبرى الذى يربط بين سنتين الذى وجد فى طره الأسمنت، والذى يرجع تاريخه للعصر البطلمى والكوبرى الذى يربط بين سنتين والذى وجد فى القطا فى ١٩٥٢ فى شمال غرب القاهرة فى مصطبة من الإمبراطورية القديمة[١٨٩]، والمزود بسلك من الذهب يربط نابا بسن قاطعة وسطى. ومن جانب آخر، يبين التصوير بالأشعة لمومياء فى متحف القاهرة[١٩٠] بجلاء وجود سلك معدنى يربط فى موضعه الأصلى سنة فى الفك العلوى بأخرى مجاورة. ومع ذلك، فإنه من المستحيل معرفة ما إذا كان ذلك يتعلق بعملية تعويض حقيقية، أو أنه من عمل المحنط،

مثلما هو الحال بالنسبة للأسنان المصنوعة من العاج، وهو مادة جد هشة مركبة على محاور من الخشب، وهو ما يعد دليلاً على البراعة ينسب إلى محنطين "فنانين" متفردين.

وترتبط بمشاكل الأسنان هذه، أمراض اللسان التى لا يمكن فرزها فرادى بدقة، ومن الواضح أنها كانت تعالج بحمام للفم ومستحضرات مختلفة(١٩١). وكان النفس الكريه الذى ينتج عن ذلك، مثل كل روائح الجسد الكريهة، شاغلا للمصريين، والذين للاعتناء بذلك كانوا يحتفظون فى أفواههم بمستحضر يضم "اللبان والصنوبر والتربنتين وجذور نبات السعد المعطر والقرفة والعسل(١٩٢)".

الفأر الذى ينتشى ، والكبد

يصعب استخلاص استنتاجات عن أمراض المعدة والبنكرياس انطلاقًا من المومياوات، التى جرى تفريغها من هذه الأعضاء فى أغلب الأوقات. ونحن نعرف عن الكبد أكثر مما نعرف عنهما، وهو عضو مهم بالنسبة للمصريين، الذين كانوا يهتمون بوضعه فى أوعية خابيات الموتى عند التحنيط. وبالتالى، لم يتم تحديد سوى قليل من أمراض الكبد: وقد وصف روفر(١٩٣) انطلاقًا من الصور والتماثيل التى وجدت فى مقابر فى سقارة، والتى تمثل شخصيات لها سرة بارزة، وهو ما يدل على حالة استسقاء بريتونى، حالة تليف فى الكبد أصله غير معروف.

وكانت أمراض الأمعاء، والتى ربما كانت بادية جيدا فى المومياوات، وفى نهاية المطاف المتاعب الخاصة بالجهاز الهضمى(١٩٤)، معروفة جيداً من البرديات الطبية. فقد ذكرت الفقرة رقم ١٥٤ من بردية برلين (بطنه ثقيلة الوزن) على سبيل المثال، حالة شخص يعانى من ثقل وزن البطن مرتبطة بالعطش (يعطش ليلاً)، وغثيان (إنه مغطى بالغمام مثل رجل أكل فواكة الجميز (غير المشرطة)) وتوقف المواد (إنه ليس طبيعياً فى إخراج الغائط): وكل ذلك يشير إلى انسداد معوى سمى بمصطلح "مستنقع تشكل من جراء سفرة بعيدة لمواد حارقة"، وهو ما يرجع بلا ريب إلى تورم برازى: "إن شرجه ثقيل..."(١٩٥).

وفيما يتعلق بحصوات الحويصلة المرارية، بينت دراسة أمراض الشعوب القديمة ضعف انتشارها: فلم توجد سوى ثلاث حالات فقط من حصيات المرارة من ٣٠٠ مومياء فحصها سميث وداوسون[١٩٦]، منها مومياء كاهنة آمون من الأسرة الحادية والعشرين. وبدورها، لم تكشف الدراسة الإشعاعية التى قام بها جراى[١٩٧] على سلسلة من ١٣٢ مومياء إلا عن حالة واحدة، ولا ريب أن ندرة هذا المرض يفسرها النظام الغذائى للمصريين، الأقل ثراء بالدهون من نظامنا، وضعف استعدادهم الوراثى لذلك. ونلاحظ أن مومياء رمسيس الخامس بينت وجود فتق أربى صفنى، وأن مومياء منفتاح كانت خالية من الصفن: لا ريب أنه كان موضع استئصال قبل التحنيط، ربما بسبب فتق مخنوق، أجريت له عملية بتر.

هل كان الكتبة مصابين بالإمساك؟

نصل هنا إلى نهاية الجهاز الهضمى، والهضم نفسه...لقد كان المصريون يولون اهتماما كبيرا لمتاعب الشرج، وطوروا فيه تخصصا وجعلوه موضعا لدراسة مميزة، والدليل أن بردية تشستر – بيتى[١٩٨] تكرس لذلك جزءًا كبيرا منها؛ وكذلك فقرات عديدة فى بردية إيبرز وهيرست وبرلين[١٩٩]. وكان علاج أمراض الأمعاء يتم عادة باستخدام التين والعسل والعنب والخروب.

وفى حالة الإمساك، أولا: وردت وصفات فى البرديات مخصصة التخلص من الإمساك و"تنشيط التغوط..."، وهى علاجات تتكون أساسًا من ألياف غذائية: الفول (جينحينيت)...، فواكه النبات(منوح)"، "فواكه (حشيد)" لابد أن يكون لها تأثير مفيد[٢٠٠]. ومن جانب آخر، نجد ذكر "فاكهة الجميز المشرطة الجافة"، وهى كما يقول دانييل ريفيلا [٢٠١]ليست ناتجة عن النبات الذى نعرفه، وإنما نوع من أشجار التين (التين المصرى). والتين، وهو ملين عندما يكون طازجًا، وكان يمكن استخدامه وهو جاف كمنقوع ملين.

ولو كان الإمساك شائعًا كما تجعلنا وفرة الوصفات نعتقده، فإن الصمت الذى يحيط بالإسهال، الذى نعرف حاليًا انتشاره فى هذا البلد، لا يدعو للاندهاش، ومع ذلك، فقد ذكر عادة فى النصوص التى تتحدث عن "تبريد الشرج" (بردية تشستر –

بيتى رقم ١٨)، و"المواد الحارقة المسماة كابو التى توجد فى الشرج"[٢٠٢] (بردية تشستر-بيتى رقم ٢٠ ، رقم ٢٢ ، رقم ٢٣ ، رقم ٢٤). ربما كان الأمر يتعلق بتقرحات شرجية، أو التهاب الشرج الذى يعقب الإصابة بالإسهال والدوسنتاريا. ومن جانب آخر، نجد أثرًا عن مرض يتم الاعتناء به عن طريق لبوس أساسه مواد دهنية. "يهرس (هذا) جيدا فى كتلة متجانسة، ويوضع فى شكل كريات وتترك حتى فى الندى طوال الليل، وتستخدم فى الشرج حتى يشفى..."[٢٠٣] .

ولنأخذ أيضًا حالة سقوط الشرج الموصوفة بعبارة "قلب الشرج"[٢٠٤]، والتى عولجت بدواء له تأثير ملطف، أساسه "دقيق الفول، ملح الشمال، دهن أوزة، لعاب نبات الشعير"[٢٠٥]. ولكن سقوط الشرج هذا الذى كثر اكتشافه فى المومياوات، يرجع بلا ريب إلى تمدد وانتفاخ البطن الذى تسببه الغازات الناتجة عن تحلل الأجسام.

المحنطون

لنأتى إلى فنانى الموت، إلى عمال الأبدية: المحنطون سواء من كانوا يقومون بالشق باستخدام حجر الصوان الذين كانوا يفتحون الجنب لإخراج الأحشاء باستعمال "حجر أثيوبيا"، أو المحنطون الذين كانوا ينفذون عمليات التحنيط. وكانت معاملهم، الواقعة فى أماكن مجاورة للمعابد والتى كانت تسمى باحتشام "مكان الدار الطيبة"، "الخيمة"، "كشك الرب"، تقع بعيدا عن المدن حرصا على الصحة العامة أو خشية الموت على الضفة الغربية للنيل، حيث تغيب الشمس. ويبدو أن ديودور الصقلى نفسه أشار إلى عمليات التمييز التى كانت تمارس بخلاف ذلك، والتى يمكن تفسيرها بأنها طقوس دينية أو علامة على المقت. "كان القائم بالشق باستخدام حجر الصوان يمسك فى يده قطعة من حجر أثيوبى ويحدث شقا بالحجم المقرر وعندما يفعل ذلك يفر هاربا بكل سرعة، يعقبه مساعدون يلقون عليه الحجارة ويصبون عليه اللعنات ليحملوه وزر الانتقام من هذه الجريمة، إذ كان المصريون يرعبون ممن ينتهك جسدا من أجسادهم ومن يجرحه ويمارس ضده عنفًا آخر"[٢٠٦]. ولكن لم يذكر أى من مثل هذه الممارسات فى أى مكان، حتى وإن كنا نعرف أنه صدر مرسوم لحماية من يقومون بالشق فى العصر البطلمى مما يدل على نبذه من المجتمع.

وفى مجال التحنيط، لم يكن كل الناس يعاملون بنفس الحماس: فقد كان الفراعنة يستفيدون من معابدهم الخاصة، فى حين كانت تعالج أجساد الأفراد بالتسلسل، خاصة خلال الفترات التى تمت فيها "مقرطة" التحنيط بدرجة كبيرة. ومع ذلك، فلم تمض الأمور فى أعنتها كما كان يعتقد هيرودوت، الذى أشار إلى حالات اشتهاء الموتى بين المحنطين: "لم تكن نساء الشخصيات الكبيرة تعطى للمحنطين عقب موتها مباشرة، ولا النساء اللاتى يتمتعن بجمال كبير أو شهرة مرموقة؛ كان يتم الانتظار يومين أو ثلاثة أيام قبل إن يعهد بهن إلى المحنطين وذلك لتجنب انتهاك المحنطين لحرمة الجسد، لأنه يقال أن واحدا منهم، ضبط فى لحظة كان ينتهك فيها جسد امرأة ماتت توا، وقد وشى به زميل له".

وحسبما يقول د. موتيه[٢٠٧]، فقد كانوا هم أيضا يتعرضون للأمراض المهنية، المشابهة دون ريب لتلك التى يتعرض لها موظفو الخدمات الجنائزية حاليا: أمراض العمود الفقرى عندما يتعين رفع وتحريك المتوفى فى مساحات محدودة أو على السلالم، ومخاطر العدوى لملامسة سوائل الجثث الغنية بالملوثات أو وسخ الجروح، أو التهاب الأدمة المهيج المرتبط بمنتجات تستخدم فى التحنيط، باختصار مخاطر العدوى بالأمراض الجلدية والرئوية والبصرية من جراء أقل إصابة تمس الأجساد أثناء التعفن: "إن معالجة الأجساد المتحللة مقزز لأقصى حد. فقد كان للغاز الناتج عن التحلل، والذى يتكون من بين أشياء أخرى من الأمونياك والمركبتان والهيدروجين المكبرت، على الدوام رائحة قوية جداً، منفرة تتشبع بها الملابس سريعا. لم تكن هناك حماية فعالة، وكانت الأقنعة غير فعالة كلية"[٢٠٨]. ناهيك عن الضغط والإجهاد النفسى إبان نبش القبور: "قد تتكسر أجساد معينة خلال المعالجة. ويسهل تخيل التأثير الذى يمكن أن تحدثه هذه المعالجة على حفارى القبور[٢٠٩]".

مهنة زهرة الجلد

الدمامل والخراريج والغنغرينا: تلك هى العلل التى كانت تتربص بجلدهم الرقيق، والتى لا ريب فى أنها كانت تعالج حسب الإرشادات الواردة فى بردية إيبرز، والتى جمعها إيبل تحت عنوان قليل الجاذبية: "كتاب الخراريج"[٢١٠]. وفى ظل عدم وجود

إرشادات دقيقة محددة عن طرائق التقنيات المستخدمة فى العمليات، نقنع بالصيغ المكررة: "تجرى له عملية"، أو "تعالجه كما يفعل الحيمن الخاص به" مما يجعلنا نعتقد أن الممارسين المصريين كانوا يعرفون شق الخراج والورم الدموى الذى يتم إجراؤه باستخدام مبضع أو مشرط، وأنهم كانوا قادرين على ممارسة وقف النزيف بفضل استخدام مكواة، بل وأحياناً القيام بالشق ووقف النزيف فى نفس الوقت باستخدام مفصد محمى على النار. وكان الشق يتيح للصديد، أو السائل المتجمع أن ينساب ثم كان استخدام الضمادة التقليدية ييسر اندمال الجرح.

ولكن الممارسين كانوا أقل بخلاً بالتفاصيل فى بردية سميث، حيث يصفون التشخيص والتكهن والتصرف فى عدد معين من حالات الإصابة بالأمراض الجلدية: وهكذا نجد ذكراً لحالة "خراج له رأس مفتوح فى الصدر" مع "ارتفاع ملىء بالصديد على الصدر أنتج عناصر حمراء، فى حين أن ذلك تجده ساخناً جداً عندما تلمسه بيدك"[٢١١]. وهناك مرض آخر يتموضع فى مستوى أحد أصابع اليد أو أحد أصابع القدم يبدو كمثال لالتهاب الظفر حسبما يرى غليونجى[٢١٢]: "إذا وجدت إصبع يد يؤلم أو إصبع قدم..."[٢١٣]. والتهاب الظفر يسمى فى العربية داحس من نفس أصل كلمة دُحَّاس وتعنى دودة.

ضيوف غير مرغوب فيهم

أما فيما يتعلق بأمراض الجهاز الهضمى الطفيلية، وهى شائعة فى مصر، فلابد أن المحنطين كانوا يتعرضون لخطرها على وجه التأكيد. وهكذا نجد فى أمعاء مومياء أسيو، التى ترجع للأسرة الخامسة والعشرين، آثار الدودة الأسطوانية البرازية، المسئولة عن الإصابة بداء الجريات المعوية[٢١٤]، ووجدت فى مومياء أخرى بويضات الدودة الشريطية[٢١٥]، مصحوبة بحالة إسكارس[٢١٦].

ومن الصعب تحديد الديدان المختلفة التى ذكرت فى البرديات، فى ظل غياب أى ترجمة حاسمة. ومع ذلك، يبدو أن ثلاثة أنواع تتمايز من بينها: الدودة بتجو، والدودة حيفت والدودة بينيد والتى تطابق على التوالى الإنكلستوما والإسكارس والدودة الشريطية، دون تحديد قاطع لهذه المكافآت[٢١٧].

وللوقاية منها، كان يمكن استخدام أسلوب مستمد من نصوص حماية معامل التحنيط، مما يعد حماية للعاملين الذين يلامسون الجثث.

"للوقاية من الديدان (حيفت): بوص: ٥ رو ، كافورية. يتم طبخ هذا فى العسل ويؤكل. للوقاية:

تفصل القطع (بـاووت)، ويقلب جسد من فقد قواه (المومياء). (وفجأة) تقفز دودة (حيرى-شتيف) داخل جسمى. سواء كان إلها هو الذى فعل ذلك، أو كان الشيطان هو الذى فعله، فإنه سيتم التعزيم عليه. وسيفك الإله ما فعله فى جسمى (بردية إيبرز ٦١)[٢١٨].

وتقترح بردية برلين (رقم ١٨٩) نفس النوع من الوقاية لإبعاد الهوام عن الأطباء. وتحديدا، كانت الكافورية التى يستخدمها المحنطون، تحمى المومياوات من الطفيليات. إذ تحوى جذور هذا النبات، وهو من عائلة الأقحوان البرى، خصائص مبيدة للديدان. وتقترح بردية إيبرز من جانبها نحو ثلاثين وصفة لعلاج "الديدان المعوية: "(علاج) آخر (للرجل الذى لديه ديدان): جذر شجرة الرمان، مفتت فى البيرة: ٥ رو . ويترك هذا يستقر فى إناء (حنو) مملوء ١٥ رو من الماء، وتستيقظ صباحا لترشح هذا فى قماشة. ويشرب الرجل (هذا) (بردية إيبرز ٦٣)[٢١٩]. وشجرة الرمان التى تدخل فى تركيب هذا الدواء، لها خواص مضادة للطفيليات، لمكافحة الدودة الشريطية والإسكارس والدودة النقيرية، إلى جانب غيرها[٢٢٠].

العينان الحمراوان

خطر أخير وإن لم يكن الأقل: قذف المنتجات خلال عملية التحنيط، والذى يخاطر بجعل العين تحمر: "دم فى العينين"، ويتعلق ذلك بنزف، والتهاب القرنية أو التهاب الملتحمة[٢٢١]، ويتم العلاج كالآتى: "علاج آخر للتخلص من الدم الموجود فى العينين... وبعد ذلك، تغسل عينيك بهذا اللبن أربع مرات، خلال ستة أيام"[٢٢٢].

البغايا

من المألوف القول بأن البغاء "أقدم مهنة فى العالم". وحسبما يقول هيرودوت، فإن أصلها يرجع إلى العلاقات الجنسية التى كانت تربط بين الآلهة والكاهنات. ولم يتقاعس المؤرخ اليونانى عن أن يعالج هذا الموضوع: ونعرف عن طريقه كيف وضعت ابنة الفرعون رحامبسنيت بواسطة أبيها الجليل فى بيت دعارة قريب لتتجسس على زبائنه. لكنه روى بصفة خاصة قصة خوفو الذى جعل ابنته بالمثل تعمل بالدعارة ليجمع النقود اللازمة لبناء قبره: "يقال إن خوفو، وبسبب نقص النقود، وضع ابنته بكل خسة فى مكان للدعارة وأمرها بأن تكسب مبلغًا محدداً (كم؟ تلك نقطة لم تتحدد). وأطاعت الابنة أباها، لكنها أرادت أن تترك أثرا باسمها هى أيضا، ورجت كل الزائرين أن يقدموا لها هدية من الأحجار. وقد قالوا لى، إنه بهذه الأحجار تم بناء ثلاثة أهرامات توجد وسط مجموعة، أمام الهرم الأكبر ولها ساحة ونصف جانبها(٢٢٣)".

وكان تعبير خينميت الذى يستخدم فى الإشارة إلى بنت الفرح يقصد به الراقصة أو المغنية(٢٢٤). وفيما يلى الطريقة التى وصفها بها كاتب قديم كان يسعى لتنبيه تلميذه: "ها أنت تستقر فى بيت، محاطا ببنات الفرح فى الطريق إلى أن تقفز...ها أنت فى مواجهة فتاة جميلة مضمخة بالعطور، وإكليل من الزهور حول رقبتها، تطبل على بطنك، وتترجرج، تتقلب على الأرض، وتتغطى بالدنس كلية(٢٢٥)." وهؤلاء كن يمضين غالبية الوقت فى الوشم على الحوض والأفخاذ، مما يثبت فى نظر البعض انتماء البغايا لخدمة الكاهنة هاتور.

عدم إنجاب أطفال

بالطبع كان الحمل يشكل جزءا من المخاطر التى يتعين تفاديها. وكانت وسائل منع الحمل موجودة فى مصر القديمة، والمؤكد أن البغايا استعملنها، وقد توافرت لهن ست وصفات مختلفة على الأقل(٢٢٦). وهكذا، فإن بردية إيبرز رقم ٧٨٣ مخصصة "لامرأة كفت عن أن تكون حاملاً لمدة سنة أو سنتين، أو ثلاث سنوات: جزء كا ع من السنط، نبات الجارث، بلح. ويسحق (هذا) فى إناء - حنو فى العسل. وتضمخ به سدادة نباتية. وتوضع (هذه) فى رحمها".

وكان المصريون يستخدمون بصفة خاصة طريقة موضعية لمنع الحمل، تقوم على خلطات، البعض منها كان منفرا، تستند إلى براز التمساح(٢٢٧). وتدهن سدادة من قماش الألياف بهذا الخليط(٢٢٨)، ثم توضع فى الرحم، وربما كان لها تأثير ميكانيكى فى إقامة عائق أمام تسلل الحيوانات المنوية فى عنق الرحم(٢٢٩). وكان العسل، الذى استخدم فى عدد معين من المستحضرات يقوم بنفس الوظيفة ويقلل حركة الحيوانات المنوية بأن يغمسها فى مادة لزجة(٢٣٠).

ونحن نعرف أيضًا أن السنط مادة تتحول بعد التخمر(٢٣١) إلى أندريد الحامض اللبنى الذى ينحل فى الماء، منتجًا الحامض اللبنى الذى نعرف نشاطه المبيد للحيوانات المنوية(٢٣٢). أما بالنسبة للإجهاض، فقد كان يعاقب عليه بعقوبة الموت(٢٣٣).

علل الجنس

وما زالت هناك مخاطر أخرى للمهنة: على سبيل المثال، التهاب الفرج والمهبل، ربما من أصل معد "فرج تنشأ فيه العلل"، ويكون أحيانًا مسئولاً عن فقد المصل الدموى "مثل الماء (الذى يوجد) فى قاعه شىء مثل الدم المطبوخ"(٢٣٤)، وكان يعالج بإدخال "كتلة واحدة وهطوله فى فرجها"(٢٣٥). ويبدو أنه كانت هناك علاجات أخرى مخصصة لمعالجة العدوى "بمواد حارقة توجد فى الرحم"(٢٣٦)، وربما يماثل ذلك عدوى بمرض تناسلى.

كذلك نجد حالة مثيرة للاهتمام يحتمل أن تكون إصابة بالمكورات البنية فى الدم، مصحوبة بسيلان أبيض فى الدم، ومتاعب بصرية: "هذه هى المواد الرحمية (المسماة) (...) التى توجد فى عينيه..."(٢٣٧)

ولكن إزاء ذكر الآلام، وخاصة رائحة اللحم المحترق، اعتقد مؤلفون معينون(٢٣٨) أن المرض المذكور بعبارة "(امرأة) يتم النخر فى مهبلها وفرجها"(٢٣٩) فى التفسيرين رقم ٨١٣ و ٨١٤ من بردية إيبرز ٨١٣، يمكن أن يكون هو سرطان الرحم. واستنادًا لهذا الافتراض، فإن المرض التناسلى الخبيث الوحيد الذى كشف عنه جرانفيل(٢٤٠) من ١٨٢٥ فى مومياء بطلمية هو ورم فى المبيض الأيمن مع اجتياح للرباط الكبير وللصفاق (البريتون)(٢٤١).

ونلاحظ أخيراً أن المصريين كانوا أول من وصف هبوط الأعضاء وعالجوه بسدادة مبللة بالراتنج تسد تجويف المهبل[٢٤٢]. ومن الصعب أن نعرف بدقة ما إذا كان هبوط أعضاء التناسل، أو الشرج الذى نجده فى المومياوات كان موجودا فى لحظـة الوفـاة أم لا[٢٤٣].

متاعب الدورة الشهرية

ذكرت متاعب الدورة فى مرات كثيرة فى البرديات الطبية، لأن انقطاع الطمث، الذى قد يحدث فى غير الحمل والذى يصيب "المرأة التى تنقضى عليها سنوات عديدة دون أن يأتيها الحيض"، كان يثير الهم، حتى مع وجود ثلاث وصفات لعلاجه[٢٤٤].

ومن جانب آخر، هناك حالة لعسر الطمث، عزيت إلى انسداد، "عائق دموى على (فى) رحمها"[٢٤٥]، غير محدد، ارتبطت بآلام فى البطن، وانسداد فى قناة الرحم، من جراء خثار الدم، سليلة مخاطية، أو ورم. ويجعلنا اكتشاف نوع من عدم الشذوذ فى قناة الرحم، نفترض أنه تم فحص حقيقى لأمراض النساء، لكن العـلاجات المقـترحة لا تقدم لنا سوى القليل من التفاصيل: باستثناء علاج واحد، نوع من وسائل تعاطى الدواء، والذى يمكن أن يوحى بتعقيم الرحم بالبخار.

الهوامش

(1) L'Egypte ancienne, Seuil, p. 142.
(2) C. Lalouette, Au royaumed'Egypte..., op. cit., p. 207.
(3) G. Rachet, Dictionnaire... op. cit., p. 200.
(4) G. Andreu, Images de la vie... op. cit., p. 172.
(5) G. Rachet, Dictionnaire... op. cit., p. 72.
(6) D. Pretre Guignard, Conditions..., op. cit., p. 15.
(7) G. Rachet, Dictionnaire... op. cit., p. 73.
(8) Paragraphe du papyrus Ebers n° 436(64, 11-13) repris dans le papyrus Hearst 239 et 241.
(9) Selon le rapport de POMS de 1993, cite parJ. F. Nunn, Ancient Egyptian... op. cit., p. 68. La preuve de l'existence de cette affection dans L'ancienne Egypte a etc etablie pour la premiere fois par Ruffer en ١٩١٠au cours de L'autopsie de deux momies de la XX*' dynastie..
(10) A. P. Leca, La medecine egyptienne... op. cit.
(11) Dans les premieres traductions des papyrus medicaux, qui datent de la premiere moitie du xxesiecle, le mot ouchech etait aussi traduit par «urines sanglantes». Cette traduction a ete remise en question par Thierry Bardinet
(12) Ebers 264.
(13) 28 fois mentionnee dans le papyrus Ebers, 12 fois dans le papyrus de Berlin, 9 fois dans le papyrus Hearst et 1 fois dans celui de Londres.
(14) B. Ebell et F. Jonckheere ont rattache la bilharziose urinaire a la «maladie dad». Mats, au vu des papyrus non medicaux dans les quels ce terme n'entretient aucun lien avec une quelconque pathologie urinaire, les egyptologues ont du reviser leur jugement sur cette maladie.
(15) Ebers 224 (45,6-8).
(16) Selon F. Jonckheere, Les medecins... op. cit
(17) Ibid.
(18) G. Andreu, Images... op. A, p 149.
(19) Papyrus Hearst 241.
(20) Papyrus Hearst 242.
(21) Il est interessant de noter qu'on utilisait deja l'ail a l'epoque, dont on connait aujourd'hui les proprietes bacteriostadques et bactericides.

(22) G. Bontemps, La medecine..., off. cit.

(23) R. L. Miller, S. Ikram et alii, «Diagnosis of Plasmodium falciparum infections in mummies using the rapid manual Parasight-F test». Transactions of The Royal Society of Tropical Medicine & Hygiene, 1994, 88, pp. 31-32.

(24) Certains auteurs comme Breasted etaient pardsans de l'hypothese selon laquelle le paludisme ne sevissait pas a cette epoque; voir a ce pro-pos N. Riad, La medecine... op. cit., p 240.

(25) Herodote, Thucydide... op. cit.

(26) Papyrus Ebers n° 846.

(27) T. Bardinet, Les papyrus medicaux... op. cit., p. 313.

(28) Papyrus Ebers n° 847.

(29) Papyrus Ebers n° 849.

(30) M.A. Ruffer, Studies in the paleopathology of Egypt, University of Chicago Press, 1921.

(31) Les nilometres (puits ou escaliers gradues le long du fleuve) qui mesu-raient la hauteur de la crue, servaient d'ailleurs a calculer l'impot.

(32) G. Bontemps, La medecine... op. cit.

(33) Ibid.

(34) E. Drioton, «Une representation de la famine sur un bas relief egytien de la Vedynasde» Bulletin de l'institut d'Egypte, 1942, 25, pp. 44-45.

(35) P. H. Gray, «Radiography of ancient Egyptian mummies». Medical radiography and photography, 1967, 43 (2), pp. 34-44.

(36) G. Lefebvre, Essai... op. cit.

(37) Papyrus Ebers n° 877.

(38) S. G Browne, «How old is Leprosy?». International Journal of Dermatology, 1980, 19(9), pp. 530-532.

(39) E. V. Hulse, «Leprosy and ancient Egypt», The Lancet, 1972, 11, pp. 1024-1025.

(40) E. G. Smith, W. R. Dawson, Egyptian mummies, Londres, G. Alien and Unwin ed, 1924.

(41) D. Brothwell, A. T. Sandison, op. cit.

(42) «Paleopathology of the Ptolemaic inhabitants of Dakleh oasis(Egypt)», Journal of Human Evolution, 1980, 9, pp. 71-74.

(43) Papyrus Ebers n° 415.

(44) Papyrus Ebers n° 355.

(45) E. Tapp, The unwrapping of a mummy in Manchester Museum Mummy Project, Manchester Museum Press, 1995.

(46) P. D. Home , D. S. Redford, «Aspergillosis and Dracunculosis in mummies from the tomb of Parennefer», Paleopathology Newsletter, 1995, 92, pp. 10-12.

(47) T. Bardinet, op. cit., p. 371.

(48) D. Pretre Guignard, Conditions de travail... op. cit., p. 14.

(49) Nous disposons d'informations tres interessantes sur le mode de vie de ces travailleurs de chan tiers grace aux etudes archeologiques dans le village de Deir el-Medineh.

(50) M. Delia Monica, La classe ouvriere... op. cit.

(51) J. Corny, A community of workmen at Thebes in the Ramessid period. Le Caire, IFAO, 1973, n° 50, p. 35.

(52) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 102.

(53) M. A. Dollfus, L'ophtalmologie dans l'ancienne Egypte, BSFE, 1967, pp. 12-23.

(54) F.Jonckheere, «Consideration sur l'auxillaire medical pharaonique», Chronique d'Egypte, 1953m XXVIII, 55, pp. 62-65.

(55) J.J.Janssen, «Absence from work by the necropolous workmen of Thebes», Studen Zur Altdgyptischen Kultur, 1980, 8, pp. 127-152.

(56) J. H. Breasted, The Edwin Smith surgical papyrus (in fac simile and hieroglyphic transliteration with translation and commentary), Chicago University Press, 1930.

(57) T. Bardinet, Les papyrus... op. cit., p. 493.

(58) T. Bardinet, Ibid., p. 494.

(59) Papyrus d'Edwin Smith n° 2 et n° 3.

(60) Papyrus Smith n° 10.

(61) Respectivement papyrus Edwin Smith n° 15,n° 19,n° 18 etn° 26.

(62) Rappelons aussi la scene de la tombe d'Ipy mentionnee plus haut ou un ouvrier est couche tandis qu'un homme lui saisissant le bras pourrait bien etre en train de tenter reduire une luxation d'epaule.

(63) Descriptifn °34.

(64) T. Bardinet, Ibid., p. 511.

(65) Cas n° 30 du papyrus d'Edwin Smith, Ibid., p. 509.

(66) S. R. Andersen, «The eye»... art. cit.

(67) Papyrus Ebers n° 337.

(68) Papyrus Ebers 349.

(69) Papyrus Ebers 416 et 417.

(70) S. R. Andersen, art. cit.

(71) B. Van de Walle, H. De Meulenaere, «Complements a la prosographie medicale», Revue d'Egyptologie, 1973, 25, p. 63.

(72) T. Bardinet, Les papyrus... op. cit., pp.497-499.

(73) P. Mazzone, M. A. Banchero, S. Esposito, «Neurological sciences at their origin: neurology and neurological surgery in the medicine of ancient Egypt», Pathologica, 1987, nov-dec. 79 (1064), pp. 787-800.

(74) J.Thorwald, Histoire... op. dL.

(75) T. Bardinet, Ibid., p. 517.

(76) Une etude radiographique de 88 momies realisee par Gray a ainsi mis en evidence une osteophytose dans 57% des cas. P. H. Gray, «Radiography of ancient Egyptian mummies», Med Radiogr Photogr., 1967, 43(2), pp. 34-44.
(77) G. Bon temps. La medecine... op. cit., p. 182.
(78) M. Delia Monica, La classe ouvriere sous les pharaons, Paris, Maisonneuve, 1975, p. 125.
(79) M. A. Shampo , R. A. Kyle, «Medical mythology: Horus», Mayo CUn 7 Voc., Janv. I992, 67(I), p.36.
(80) G. Rachet, Dictionnaire,... op. cit.,p. 145.
(81) P. Martinez, Egypte... op. cit., p 145.
(82) Diodore de Sicile, Bibliotheque historique... op. cit.
(83) Aujourd'hui catalogue comme le papyrus Brooklyn n°47.2218.48 et 85.
(84) Chapitres de 1 a 38 mais les chapitres de 1 a 13 sont inudlisables
(85) C. Geraut, «L'essentiel des pathologies professionnelles». Ellipses, 1993, p.273.
(86) Ruffer a ainsi decele la presence de quartz dans les poumons d'une momie de la XX*' dynastic, resultant sans doute du travail dans une carriere.
(87) qA. Curry, Electron microscopy of the Manchester mummies, Manchester Ed. Longwood Pub. Group, 1979.
(88) D. Spaeth, Pneumologie... op. cit., p 221.
(89) Ibid.
(90) G. Bontemps, La medecine... op. cit., p 125.
(91) T.Bardinet... op. cit.
(92) D. Morse, D. R. Brothwell, P.J. Ucko, «Tuberculosis in Ancient Egypt», American Review of Respiratory Diseases, 1964, 90, pp. 524-541.
(93) M. A. Ruffer, Studies in the paleopathology of Egypt, University of Chicago Press, 1921.
(94) Certains textes precisem par ailleurs qu'un enfant devait avoir atteint la taille de deux coudes de haul (soit un metre) pour rejoindre les rangs de l'armee.
(95) P. Martinez, Egypte... op. cit., p. 128.
(96) A Erman, H. Ranke, La civilisation... op. cit., p. 736.
(97) Diodore de Sicile... op. cit..
(98) Papyrus Ebers n°207 et n°855
(99) T. Bardinet ...op. cit., p. 457.
(100) Papyrus Ebers 45.
(101) Ebers 49 repris dans le papyrus Hearst 18.
(102) EJonckheere, Les medecins... op. cit.
(103) T. Bardinet... op. cit.
(104) Papyrus Ebers n°876.
(105) Papyrus Ebers no 863.
(106) A Erman, H. Ranke, La civilisation... op. cit., p. 702.

(107) Le cas n°44 decrit une fracture de plusieurs cotes associees a une plaie de la poitrine qui a peut-etre etc causee par un objet tranchant a large bord comme une hache ou un glaive. Le pronostic de cette blessure est sombre («Un mal qu'on ne pent traitor...») avec F apparition d'un pneumo-thorax accompagne d'un emphyseme sous-cutane.

(108) D.J. Hauben , G.J. Sonneveld, «The influence of war on the development of plastic surgery», Annals of Plastic Surgery, Janvier 1983, 10(1) pp. 65-69.

(109) G. B. Risse, «Rational Egyptian surgery: a cranial injury discussed in the Edwin Smith Papyrus», Bulletin of the New York Academy of Medicine, Aout 1972, 48(7), pp. 912-919.

(110) Descriptifn°8.

(111) S. M. Knoeller, C. Seifried, «Historical perspective: history of spinal surgery». Spine, Nov. 2000, 25(21), pp. 2838-2843.

(112) T. Bardinet... op. cit., p. 509.

(113) R. Sullivan, 'The identity and work of the ancient Egyptian surgeon, Journal of the Royal Society of Medicine, aoutl996, 996, 89(8), pp. 467-473.

(114) qA noter quo le descripufn° 4 du papyrus Smith rapporte le cas d'une otorragie («quiperd du sang par les narines et les oreilles...») qui revele sans doute une fracture du rocher dont le pronostic est toujours tres pessimiste. Le praticien s'abstient alors de toute intervention therapeutique: il se contente de surveiller l'evolution et Fissue souvent fatale du traumatisme, en maintenant le malade assis a Faide de supports en briques.

(115) G.-P. Menard, Les techniques... op. cit.

(116) «La tomographie par ordinateur appliquee aux momies Egyptiennes», Bulletin et memoires de la societe d'anthropologie de Paris, 1981, serie XIII, pp 343-356.

(117) T. Bardinet... op. cit., p 507.

(118) G.-P. Menard, Les techniques... op. cit., p. 63.

(119) Cas n°16 et 24 du papyrus Smith.

(120) Le description 19523 du papyrus Smith mentionne la prise en charge d'une plaie de ForeiHe. Le paragraphe 766 du papyrus Ebers relate lui aussi plusieurs méthodes pour soigner de telles blessures.

(121) A. P. Leca, La medecine... op. cit., pp. 433-434.

(122) T. Bardinet... op. cit., p. 502.

(123) Description°13 du papyrus Smith.

(124) Description°14.

(125) W. Vikentieff, «Deux rites dujubile royal a FEpoque protodyna&-dque», Bulletin de l'Institut d'Egypte, n° 32, pp. 1949-1950.

(126) Diodore de Sicile... op. cit.

(127) A. P. Leca, La medecine egyptienne... op. cit., p. 434.

(128) D. Brothwell, A. T. Sandison... op. cit.

(129) A. P. Leca, La medecine egyptienne... op. at.

(130) P. H. Gray, art. cit.

(131) A. Bellouard, Le dossier medical des pharaons de la Haute Epoque, These de docteur en medecine, Paris VI Broussais, 1986, p. 45.

(132) Ibid.

(133) Ibid.

(134) M. Bucaille, Les Momies des pharaons et la medecine, Paris, Seguier,1987.

(135) S. G Shattock, «Microscopic sections of the aorta of the King Menepath», The Lancet, 1909, 1, 319.

(136) A. Bellouard, op. cit., p. 71.

(137) G. P. Menard, Les techniques... op. cit., p. 111.

(138) D. Samuel, «Cereal foods and nutrition in ancient Egypt», Nutrition, jum 1997, 13(6), pp. 579-80.

(139) A. Erman, H. Ranke, La civilisation... op. cit., p. 255.

(140) D. Pretre Guignard, Conditions... op. cit.,p. 16.

(141) C. Geraut, «L'essentiel des pathologies professionnelles». Ellipses, 1993 p.54.

(142) B. Ebbel, The papyrus Ebers, Londres, Levin et Munksgaard, 1937.

(143) ?326-335.

(144) B. Ebbel, Ibid.

(145) J. Scarborough, «0n medications for bums in classical antiquity», Clinical Plastic Surgery, 1983, 10(4), 603-10.

(146) M. A. Shampo, R. A. Kyle, «Medical mythology: Horus», Mayo Clinic Proceedings, Proc. 1992, 67(1) p. 36.

(147) Ce detail est mentionne dans le paragraphe n°46 du papyrus de Londres.

(148) Papyrus Ebers n 491.

(149) Papyrus Ebers, n°482 a 499.

(150) Papyrus Ebers n°509.

(151) Papyrus Ebers n°504.

(152) T. Nicko, R. Germe et alii, «An examination of the dental state of an Egyptian mummy by means of computer tomography: a contribution to dentistry in Ancient Egypt», Journal of the History of Dentistry, Nov. 1995, 43(3), pp. 105-12.

(153) F.Y. Leek, «Teeth and bread in ancient E,gypt», Journal of Egyptian Archaeology, 1972, 58, pp. 126-1332.

(154) J.-C. Schwartz, «La medecine dentaire dans l'Egypte pharaonique», Bulletin de la societe egyptologique de Geneve, 1979, 2, pp. 37-43.

(155) L. R. Marion, «Dentistry of ancient Egypt», Journal of the History of Dentistry, mars 1996, 44 (1).

(156) De son cote Puech a estime que «la forte usure des dents est principalement le fait de la consistance des aliments et de la silice des plantes et non le resultat des poussieres et grains de sable qui souillent la nourriture. Cf. «Autopsie d'une momie egyptienne>», Nouvelles archives du Museum d'histoire naturelle de Lyon, fasc 25,1987.

(157) Guy Rachet. Dictionnaire... op. at., p. 61.

(158) Ibid. p. 215.

(159) P. Martinez, Egypte... op. cit., p. 124.

(160) S. Morenz, Le religion egyptienne, Paris, Payot, 1984.

(161) A. Erman, H. Ranke, La civilisation... op. cit.,p. 382.

(162) G. Boulu, Le medecin... op. cit., p 106.

(163) P. Martinez, Ibid.

(164) S. Sauneron, Lespretres de l'ancienne Egypte, Paris, Persea, 1988.

(165) Les legumes faisaient aussi partie de la base alimentaire des egyptiens toutes classes confondues. Us consommaient des feves, des pois chiches, des lentilles mats aussi des radis, des concombres, des potirons, des courges, des melons, des pasteques; de l'ail, des oignons et des poireaux; en fait de fruits, des raisins, dattes, figues et figues de sycomore. Us utilisaient des condiments tels que le cumin, le celeri et la coriandre, mais ne connaissaient pas le sucre. Les familles riches lui substituaient du miel et a L'occasion de la caroube.

(166) M. R. Zimmerman, «The paleopathology of the cardiovascular system», Texas Heart Institute Journal, 1993, 20(4), 252-257.

(167) J. Thorwald, Histoire... op. at., p. 43.

(168) Ainsi une etude realisee par Ruffer sur 21 momies ou fragments de momies de pretres ou de pretresses d'Amon datant de la XXT dynastic retrouvee sur le site archeologique de Deir el-Bahari a permis de mettre en evidence la presence de 6 cas d'atherosclerose. Par ailleurs, Fetude menee en 1975 par Cockburn sur un pretre momifie en 170 av. J.-C. pendant Fepoque Ptolemaique, decode a l'age de 35-40 ans et aujourd'hui connu sous le nom de code PUM II, a mis en evidence des plaques atheromateuses aortiques diffuses ainsi quo des epaississements de l'intima typique d'une maladie athe-romateuse sur les arteres de plus petit calibre. Cf. A. Cockburn et alii, «Autopsy of an Egyptian mummy», Science, 1975, mars 28, pp. 1155-60.

(169) L. Balout, La momie... op. cit.

(170) A noter aussi Fexamen scannographique d'une momie provenant du musee des Beaux Arts de Boston par Myron Marx qui a mis en evidence chez Nes-Ptah, barbier d'Amon, fonctionnaire de base du temple d'Amon a Karnak la presence de calcifications distales etendues au niveau des arteres iliaques internes, femorales, tibiales anterieures et posterieures. («Examination of eleven egyptian mummies», Radiographics, 1986, 6, pp. 321-330).

(171) O. Sarrazin, Lapathologie cardiovasculaire dans l'Egypte Ancienne, These de docteur en medecine, Faculte de medecine de Creteil, 2001.

(172) D.Spaeth, Pneumologie... op. cit, p. 223.

(173) L. Balout, «L'operation Ramses II. Contribution des laboratoires a regyptologie» Bulletin de la societe francaiso d'egyptologie, 1978, 83, pp.8-23.

(174) Papyrus Ebers, n°637 a 641.

(175) G. Rachet, Dictionnaire... op. cit,, p. 237.

(176) Guy Rachet, Ibid., p. 238.

(177) J. C. Rose, G.J. Armelagos, L. S. Perry, Dental anthropology of the Nile Valley in Biological Anthropology and study of An dent Egypt, British Museum Press London, 1993.

(178) T. Nickol, R. Germer et alii,. «An examination of the dental state of an Egyptian mummy by means of computer tomography: a contribution to dentistry in Ancient Egypt», Journal of the History of dentistry, nov. 1995, 43(3), pp. 105-112.

(179) J. E Nunn, Ancient Egyptian medicine. University of Oklahoma Press, 1996, p.203.

(180) L. Balout, La momie de Ramses III... op. at.

(181) On trouve aussi mentionne un «abces (benout) dans les dents» dans le paragraphe n198746 du papyrus Ebers, une affection traduite par Lefebvre par «ulcere dans les dents».

(182) E. Ludovic, L'alimentation et ses repercussions sur la sphere bucco-dentanre dans l'Egypte Ancienne, These de docteur en chirurgie dentaire, Universite Paris V, 1998, p. 37.

(183) Il est plus delicat d'interpreter l'utilisation du miel dans le paragraphe n°740 et 741 du papyrus Ebers.

(184) J. K. Thekkaniyil, S. E. Bishara, M. A. James, «Dental and skeletal findings on an ancient Egyptian mummy», American Journal of Orthodontics fsf Dentofacial orthopedics, janvier 2000, 117(1), pp. 10-14.

(185) J.-J.Quenouille, «L'art dentaire dans l'Egypte Ancienne», Information dentaire, oct. 1977, 27, pp. 25-38.

(186) E. Ludovic, L'alimentation... op. cit., p. 62.

(187) B. W. Weinenberger, «The dental art in Ancient Egypt», Journal of the American Dental Association, 34.

(188) E E Leek, «Observations on a collection of crania from the masta-bas of the reign of Cheops at Giza», Journal of Egyptian Archaeology, 1980, pp. 36-45.

(189) E. Ludovic, L 'alimentation... op. cit., p. 64.

(190) J. K. Thekkaniyil, S. E. Bishara, M. A. James, «Dental and skeletal findings on an ancient Egyptian mummy», American Journal of Orthodontics & Dentofacial orthopedics, Janvier 2000, 117(1), pp. 10-14.

(191) Il en est fait mention dans les paragraphes n°697 a 704 du papyrus Ebers

(192) Papyrus Ebers n°853.

(193) M. A. Ruffer, Studies... of), cit.

(194) Mats sur ce point la lecture des papyrus pose probleme, en raison d'une mauvaise traduction. Une interpretation erronee faisait ainsi correspondre au terme de «Ro-ib» celui d'estomac; les paragraphes du papyrus Ebers n°189, n°199, n°198 n°206 ont done faussement etc compris comme une description de troubles gastriques.

(195) T. Bardinet... op. cit.

(196) E. G. Smith, W. R. Dawson, Egyptian... op. cit

(197) P. H. Gray, Radiography... op. at., pp. 34-44.

(198) L.Jr Banov, «The Chester Beatty Medical Papyrus: the earliest known treatise completely devoted to anorectal diseases». Surgery, Dec. 1965, 58(6), pp. 1037-1043.

(199) L. Viso , J. Uriach, «The "guardians of the anus" and their practice», International Journal of Colorectal Disease, 1995, 10(4), pp. 229-31.

(200) Ebers n19928, n°36 et n°37.

(201) D. Revelat, Pensees et pratiques medicates de l'Egypte pharaonique, These medecine, Nice, 1984.

(202) T. Bardinet, Les papyrus... op. cit., pp. 458-459.

(203) Papyrus Chester Beatty n°6 et papyrus Ebers n°139 et n°140.

(204) LBJr. Banov,«Proctology in ancient Egypt: its continuing influence on the management of anorectal diseases». South Medical Journal, nov. 1965, 58(11), pp. 1366-1369.

(205) Papyrus Chester Beatty n°9.

(206) Diodore de Sicile... op. cit.

(207) C. Geraut, L'essentiel des pathologies professiannelles. Ellipses. 1993, p. 181.

(208) find.

(209) Ibid.

(210) B. Ebbel, The papyrus Ebers... op. cU.

(211) Papyrus Smith n°39 et n°46.

(212) P. Ghalioungui, La medecine... op. at., p. 339.

(213) Papyrus Ebers 616 bis.

(214) E. Tapp, Disease in the Manchester mummies in Science in Egyptology, Manchester University Press, 1979.

(215) P. D. Home, P. K. Lewin, «Autopsy,of an Egyptian mummy. 7, Electron microscopy of mummified tissue», Canadian Medical Association, Sept 1977, 3;117 (5), pp. 472-473.

(216) qA. Cockburn , R. A. Barraco , T. A. Reyman, op. cit., pp. 1155-60.

(217) G.Lefebvre, Essai... op. at.

(218) T. Bardinet, Les papyrus... op. at, p. 52.

(219) T. Bardinet, Ibid., p. 259.

(220) Aucun terme egyptien ne semble se rapporter de maniere claire aux oxyures, meme si, a en croire Leca, un traitement des oxyures figurerait le Papyrus Berlin n200ll sous la forme d'une pommade a appliquer sur Fanus.

(221) S. R. Andersen, «The eye and its diseases in Ancient Egypt», Ada Ophthalmologica Scandinavia Juin 1997, 75(3), pp. 338-344.

(222) Papyrus Ebers n°384.

(223) Herodote, Thucydide... op. dt.

(224) C. Desroches-Noblecourt, Lafemme... op. cit., p. 372.

(225) qA. P. Leca, La medecine... op. cit., p. 423.

(226) Exposees dans le papyrus Kahoun (n°21,22,23), celui de Ramasseum (IV), celui de Berlin (n°192) et celui d'Ebers (n°783).

(227) Papyrus Kahoun n°21.

(228) Papyrus Ramasseum IV.

(229) M. Philippe, La gynecologic et l'obstetriquc en Egypte pharaonique, These de docteur en medecine, Paris V, 1992, pp. 127-128.

(230) P. Bardis, «Contraception in Ancient Egypt>», Centaurus, 12,1968, pp. 305-307.

(231) Papyrus Ebers n°783 ter.

(232) P. Bardis, art. cit

(233) T. Cianfrani, A short history of obstetrics and gynecology, Thomas Springfield, 1960, pp. 24-37.

(234) Papyrus Ebers n°83L.

(235) Papyrus Ebers n°817.

(236) Papyrus Ebers n°820 et n°834.

(237) Papyrus Kahoun n°l.

(238) P. Morice, P. Josset, J.-C. Colau, «Gynecologie et obstetrique dans l'ancienne Egypte», Journal de gynecologic obstetrique et biologic de la reproduction, 1994, 23(2,) pp. 131-136.

(239) T. Bardinet, Les papyrus... op. cit., p. 448.

(240) P. Morice et alii., art. cit.

(241) Une momie retrouvee dans la necropole de Douch (n°64212-planche VUb) porte les traces d'une incision inguinale droite pouvant evoquer une adenite suppuree. Elle presentait egalement au niveau vulvaire une volumi-neuse levre gauche qui laissait penser qu'elle avait presente une bartholinite avec une adenite inflammatoire satellite.

(242) Papyrus Ebers n°789.

(243) A. P. Leca, La medecine... off. cit,, p. 322.

(244) Papyrus Ebers.

(245) Papyrus Smith n°20.

خاتمة :

تبادل المعارف الطبية
بين مصر والحضارات الأخرى

المجالات التى تصدرت فيها مهارات الأطباء

قد يبدو التفكير الطبى المصرى، الذى ربط نزعة تجريبية لا مراء فيها بممارسات دينية وسحرية، فقيرا لأقصى حد عندما تدرسه بروح عصرنا الراهن، ومع ذلك فقد كان قريبا من ذلك الذى ساد فى العالم الغربى حتى عصر النهضة. ومثلما طرح جاستون ماسبيرو، فإنه على الرغم من "قلة ما كان الأطباء المصريون يعرفونه، فربما كان لهم الفضل فى أنهم عرفوه قبل عصرنا الراهن بثلاثين قرنا".

وعلى ما يبدو، فإن شهرة الأطباء المصريين كانت كبيرة فى العالم القديم. فقد ذكرها هوميروس فى القرن الثامن ق.م. فى الأوديسه (رابعاً، ٢٢٩ - ٢٣٢) عندما ذكر "أرضاً خصبة تنتج العقاقير بوفرة، البعض منها شاف، والبعض مضر، وحيث يتصدر الأطباء بمهارتهم كل الرجال الآخرين لأنهم سليلو بوييون (طبيب الآلهة). وهكذا كان عدد من الشخصيات ذوو المرتبة العالية يستشيرون الممارسين المصريين المشهورين. ففى مقبرة فى طيبة لكاهن وطبيب للملك، اسمه نيبامون، عاش فى ظل الفرعون أمينوفيس الثانى، نرى مشهداً جاء فيه أمير سورى يستشيره ويصحبته زوجته، وقدم له هدايا مكافأة. وألم يذكر هيرودوت أن: "داريوس كان معتاداً أن يلحق بشخصه الأطباء المصريين الأكثر شهرة"(١)، وذكر اسم إخصائى عيون مصرى أرسله الفرعون أمازيس إلى العاهل قورش؟ وقد تآمر هذا الممارس وأقنع ابن الملك، قمبيز، بأن يشرع فى غزو مصر: "أما بالنسبة لأسباب هذه الحرب، فها هى: بعث قمبيز رسولا لمصر ليطلب من أمازيس يد ابنته، بناء على نصيحة طبيب مصرى، ولم يغفر لأمازيس أبداً أنه نزعه من بين زوجته وأبنائه ليرسله إلى فارس، للعاهل قورش الذى طلب أفضل طبيب عيون فى مصر. وهكذا، ولينتقم وليضع أمازيس فى وضع عسير، حرّض قمبيز على هذه المسيرة..."(٢).

ومع ذلك، هناك حالة ذكرها هيرودوت يبدو أن كفاءة الأطباء المصريين أخفقت فيها، أمام الإصابة التى حلت بداريوس وهو ينزل عن حصانه: "خرجت عظمة الدسار

من المفصل. وكان الملك مقتنعا منذ وقت طويل بأن لديه من المصريين ممن اشتهروا بأنهم الأكثر مهارة فى فن العلاج، ولجأ إليهم. ولكنهم أرادوا استخدام القوة لإعادة القدم ولم يؤد ذلك إلا إلى زيادة الأمر سوءا، وقد عانى داريوس إلى حدّ أنه أمضى سبعة أيام وسبع ليال دون نوم..."(٣).

ومن ثم، جاءوا إلى داريوس بسجين إغريقى، ديموسيد، وأصله من كورتون، وهو "الطبيب الأكثر مهارة فى فنه فى عصره". ونجح هذا الأخير فى علاج الملك بأن "استبدل بالعلاج المستند للقوة مسكنًا حسب الطب الإغريقى". وإذ استشاط داريوس غضبا من سوء علاج الأطباء المصريين، فقد أمر بوضعهم على الخازوق. وقد تم إنقاذ هؤلاء الأخيرين بأعجوبة بفضل زميلهم الإغريقى الذى طلب العفو لهم لدى الملك.

فى بلاط الملوك الأجانب

يذكر عدد معين من المصادر الخاصة بالنقوش والآثار القديمة إرسال الأطباء المصريين لدى بلاط الملوك الأجانب، مما يدل على شهرتهم الممتازة.

وتكشف لوحات من الفخار جاءت من أرشيف ديوان الأختام فى البلدان الأجنبية وجدت فى أطلال تل العمارنة، عن إرسال أطباء مصريين إلى الممالك المجاورة، التابعة لمصر، خاصة ميتانى وأوغاريت، وهكذا، فإن نصاً موجهاً إلى أمينوفيس الرابع يطلب منه إرسال ممارسين من بلاطه، بهدف علاج أمير لميتانى يسمى شاما-آدا، لم يكن لديه خبير بالعلاج(٤). وفى نص آخر يرجع تاريخه إلى حكم أمينوفيس الرابع، أعرب نيكماد، عاهل مملكة أوغاريت (على الجانب السورى) عن الطلب التالى: "سيدى، هل تتكرم بإرسال حاجبى بلاط نوبيين وطبيب من القصر، فليس لدينا طبيب هنا(٥)". وفى المقابل كان العواهل يحرصون على أن يرسلوا لفرعون تمثال إله مشهور بقدراته على تحقيق الشفاء. يشهد على ذلك، نص موجه للملك العجوز أمينوفيس الثالث من توشراتا، ملك ميتانى الذى منحه تمثال إلهة عشتار بهدف تيسير شفائه، و"لتهب حياة مديدة للفرعون"(٦). وحسبما يقول جيل بولو(٧)، فإن هذه البلدان التى ربما توافر لها أطباء، لم يكن لديها ممارسون لهم كفاءة تماثل كفاءة نظرائهم المصريين.

وتعزز مصادر أخرى هذه الحقائق: ذلك أن جزءا من المراسلات الدبلوماسية بين مصر وبلاد الحيثيين بعد معركة قادش، والتى وجدت فى بوغازكوى (الأناضول)، فى موقع العاصمة القديمة لملكة الحيثيين، حاتوسا، يبين أنه كانت هناك حاجة ملحة للأطباء المصريين. بل إن ملك الحيثيين طلب من رمسيس أن يرسل ممارسًا لعلاج أخته العقيم، وأرسل له الفرعون واحداً، رغم ضيقه، الواضح جداً - ولنحكم مما يلى: "ولنصل الآن إلى ما يتعلق بمارانازى، أخت شقيقى، فإننى (أنا) الملك شقيقك، أعرفها. هل هى فى الخمسين من العمر؟ أبدًا . إنها فى الستين، هذا واضح ... لا أحد يستطيع أن يصنع أدوية تتيح لها أن تنجب أطفالاً، ولكن، بالطبع، فإنه فى حالة إذا أراد إله الشمس، إله العاصفة ذلك... أرسل لك ساحراً جيداً وطبيباً كفًا، وسيعدان لها بعض العقاقير من أجل الإنجاب[٨]".

وبالمثل، فإن تابعا للملك حاتوسيل الثالث، يسمى كوروتتا، طلب إرسال طبيب من رمسيس الذى لبى طلبه: "لذا، استدعيت طبيبًا متبحراً (حرفيًا: كاتبًا وطبيبًا). وسيتم إرسال بارياماكو لتحضير الأعشاب من أجل كوروتتا ملك أرض تارحونتاس. وقد طلب (مجموعة منتقاة) من كل الأعشاب تبعًا لما كتبته إلى[٩]". وربما كان الحيثيون يقدرون تقديرا عاليا كفاءة المصريين فى تحضير الأدوية التى أساسها النباتات. وهذا ما يعززه النص الذى يذكر مستحضرات صيدلانية أرسلها رمسيس لحاتوسيل الذى كان يعانى من الرمد.

وفيما يلى نهاية لحالة الأميرة بنتريش، زوجة شقيق رمسيس الثانى[١٠]، التى أصابها مرض اعتبره أطباء بلدها مستعصيا على الشفاء. فقد أرسلت سفارة إلى طيبة لتطلب من فرعون أن يعين طبيبًا متبحراً، قادراً على علاجها، وفشل الكاتب الملكى جيجوتيمحب، والذى ربما كان طبيباً فى مهمته وأعلن أن الإله خونسو وحده هو القادر على إنقاذ الأميرة. ومن ثم، جرى إرسال تمثال الإله فى زورقه المقدس، وتمكن من شفائها. وقد حاول عاهل باختان أن يحتجز عنده تمثال الإله الشافى، ثم كان عليه فى أعقاب رؤيا فى المنام، أن يتركه يرحل رغما عن إرادته.

نقل الكفاءات

من المؤكد، أن الجهل بالطب المصرى خلال قرون كثيرة يرجع جزئيا إلى حقيقة أن المصريين حافظوا بحرص على أسرار معينة خاصة بممارساتهم المقدسة، وفى مناخ المعابد المتكتم، ألم يترجم اسمه العليم والكاهن الأكبر (أواب) لسخمت خورى بالآتى: "(ذلك) الذى لا يقول ما يعرفه للأغراب". ولكن وجود الأطباء المصريين فى مختلف البلاطات الشرقية ربما شجع على تبادل وجهات النظر. ومنذ بداية الفترة الفرعونية، كانت المبادلات التجارية تجرى بين مصر والشرق القديم، وبصفة خاصة الجانب السورى الفلسطينى.

ويمكن افتراض أن التجار الذين اتبعوا طرق القوافل بين النيل ووادى الهندوس لعبوا دورا مهما فى نشر النباتات الطبية، حتى وإن لم تتوافر شواهد رسمية على وجود لقاءات بين الأطباء المصريين والأطباء الشرقيين. وهكذا يذكر جيل بولو تفسيرا لبردية إيبرز، ورد فيه ذكر تبادل المعارف: "دواء آخر للعينين جاء به آسيوى من بيبلوس(١١)". وإذا وضعنا فى اعتبارنا سياسة الفراعنة فى الغزو خلال الإمبراطورية الحديثة، والتى أتاحت لمصر أن تمد حدودها شمالاً حتى ضفاف الفرات، إلى حدود ما بين النهرين، فإن كل الشواهد تجعلنا نعتقد أن تبادلا تم فى هذه المناسبة: ومن ثم نتوصل لتفسير الكثير من أوجه التشابه التى اكتشفت بين الطب المصرى والطب الآشورى البابلى، سواء فيما يتعلق بالأمراض، وبالتشخيص، أو بالعلاج. وحسبما يقول ج. كونتنو، يمكن على وجه أكثر تحديداً تعيين التشابه الواضح بين مفاهيم مبحث آشورى عن أمراض المعدة وفقرات معينة فى بردية إيبرز: إن كثيراً من التلاقى لا يمكن تفسيره إلا باعتماد مفهوم طبى مشترك فى إطار تبادل المعارف(١٢).

عند سكان بحر إيجه ، وعند الإغريق

منذ نهاية الإمبراطورية القديمة، قامت علاقات بين المصريين وبين سكان كريت ("بلاد كيفيتو")، وتشرّب الأطباء المصريون علم سكان الجزر، الذين زودوهم بأدوية معينة: وهكذا، فإن وصفة فى بردية إيبرز تذكر "فول بلاد كيفيتو(١٣)". بل لقد ردد

الأطباء المصريون رقيات بلغة كريت لعلاج أمراض معينـــة. وتذكـــر بردية لنـــدن (١١ - ٤ - ٦) "رقيات من أجل المرض الكنعاني، والذي يقولونه في هذه الحالة (سكان كيفيتو)..." ولا ريب أن ذلك كان يتعلق بنص توافر في إطار التبادل، وربما كان هذا المرض الكنعاني هو البرص ذو الورم الجذامي المعروف باسم ضربة في التوراة، (اللاويين، ١٣)، وهو مرض كان متفشيا في سوريا وفي فلسطين وبطريقة غير وبائية في الدلتا[١٤]. وربما أدى الأطباء المصريون هذه الرقية للتحصين ضد هذا المرض، الذي لوحظ أنه لا يزعج أهل كريت[١٥].

أما بالنسبة للطب الإغريقي، فقد كان لابد من انتظار بداية القرن العشرين لإدراك المساهمة المصرية في ذلك العلم الذي لاقى إعجاباً كبيراً. ومع ذلك، فأقوال هوميروس تؤكد وصول معارف الطب المصري إلى الإغريق الأول في الحضارة الهيلينية. فقد قامت مبكراً جداً علاقات بين الهيلينيين والمصريين، يشهد على ذلك وجود وكالة تجارية قوية، "حائط الميلين" الذي أسسته مدينة ميليه(*)، في دلتا النيل. والواقع أن مرتزقة أيونيين وكاريين، بأسطول ميليني، ساعدوا بسماتيك الأول على استعادة السلطة في مصر في ٦٦٤ : ولكي يشكرهم، جعلهم هذا الأخير يقيمون في معسكر محصن وعهد إليهم بأطفال مصريين ليعلموهم اللغة الإغريقية ليصبحوا مترجمين[١٦]. وتطورت المبادلات بين الحضارتين، وبصفة خاصة مع إقامة تجار إغريق في ظل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م.)[١٧] في نوكراتيس في الدلتا. ومن جراء ذلك، أصبحت هذه المدينة مقراً هيلينيا مهما كان مسرحاً لعديد من المبادلات سواء الاقتصادية أو الفكرية.

وهكذا، خضعت اليونان لتأثير مصر بفضل الاتصالات المبكرة والامتيازات التي قامت بين الحضارتين، وبالنسبة للإغريق، كان السفر إلى مصر يعتبر مصدرا للحصول على كل العلوم وكل الحكمة. وشدد سونيرون على الاحترام الذي كان العلماء الإغريق يكنونه لعلوم هؤلاء الأجانب، حتى على الرغم من أن الكهنة المصريين كانوا

(*) مدينة أيونية في آسيا الصغرى، وكالة تجارية كريتية ميسينية، أصبحت في القرن ٨ ق.م.، عاصمة استعمارية ومركزاً تجارياً وحضارياً إغريقياً . (المترجم)

لا يزالون مترددين فى تسليم الأسرار: "وباستعراض النصوص الإغريقية القديمة، لا يمكن مقاومة فكرة أن الحضارة المصرية كانت فى نظر هؤلاء المؤلفين القدامى مهد كل علم وكل حكمة. لقد عبر أشهر العلماء، أو الفلاسفة الهيلينيين لكى يبحثوا لدى الكهنة، عن تلقين للعلوم الحديثة. وإن لم يذهبوا إلى هناك، فإن سيرتهم الذاتية كانت تبادر بإضافة هذا لوقائع حياتهم، فقد أصبحت هذه الرحلة تقليدية بقدر ما هى ضرورية[١٨]".

ونذكر عدداً من العلماء والفلاسفة الذين أقاموا فى مصر: طاليس من ميليه (٦٤٠ – ٥٤٨)، ثم فيثاغورث (٥٨٠ – ٤٩٠)، والذى استقبله الفرعون أمازيس. وزار أفلاطون نفسه هليوبوليس نحو ٣٩٠ ق.م. فى ظل الأسرة التاسعة والعشرين، ومثلما كتب كليمنت ببراعة من الإسكندرية فى القرن الثالث من عصرنا الراهن: "زار أفلاطون مصر... وأصبح هو – الذى كان السيد ذا السلطة غير المحدودة فى أثينا – مجرد سائح وتلميذ[١٩]".

وهكذا، فقد أقامت المدارس الرئيسية الثلاث للفكر الطبى الإغريقى فى كوس وسيند وكروتون، علاقات وثيقة مع الأطباء المصريين. يشهد على ذلك أن المفاهيم الفسيولوجية المرضية فى مدرسة سيند كانت ترتبط بالعلوم المصرية بأوجه تشابه وثيق. ذلك أن الـ perittoma فى مدرسة سيند مثلاً كانت قريبة جداً على مستوى المفاهيم من الـ oukhedou ، مما يشى ببنوة حقيقية[٢٠]. ومن ثم يمكن الظن بأن وجود أهل سيند فى نوكراتيس – التى تربطها قناة سايس، العاصمة المصرية للأسرة السادسة والعشرين – أتاح للأطباء الإغريق من مدرسة سيند أن يقيموا علاقات مع زملائهم المصريين فى مدرسة الطب الشهيرة فى سايس، عن طريق هيئة من المترجمين.

كما جرت هذه المبادلات مع مدرسة كورتون. كذلك فإنه فى واقعة الأطباء المصريين مع داريوس التى ذكرها هيرودوت، فإن الطبيب ديموسيد الذى أنقذهم، كان عضوا فى الـ periodeutes ، وهم أطباء إغريق متجولون ومعلمون، كانوا يعتبرون طلائع مدرسة كورتون.

وقد تأثر أبقراط نفسه، أستاذ الفكر الشهير فى مدرسة كوس، بالفكر الطبى المصرى. وحسبما تقول الأسطورة، فقد أقام ثلاث سنوات فى مصر وتوجه إلى معبد

إيمحوتب فى ممفيس، حيث تعلم أشياء عظيمة من حكمة الكهنة ومعرفتهم فى المعبد الكبير المكرس لسيرابيس. وهناك لم يتقن الطب فقط بل أتقن أيضاً فن تفسير الأحلام. ومن جانب آخر، نجد لدى أبقراط عدداً معيناً من الاستعارات من الطب المصرى: ثلاث وصفات لتشخيص أمراض الولادة، منسوخة بصورة كاملة تقريبا مما ورد فى بردية كارلسبرج[٢١]، أو أصل المنى، الذى أرجعه إلى العمود الفقرى. كما أن مبحث القلب والأوعية، يمكن أيضا أن يكون قد ألهم أبقراط فى وصفه المبهم جدا لنظام القلب والأوعية. ناهيك عن بعض أقواله المأثورة، التى تذكرنا صياغتها بوصايا البرديات. فعلى سبيل المثال، فإن عمله periarthron رقم ٨٥ والذى جاء فيه "ينبغى التعرف على الأمراض التى لا شفاء لها بغرض عدم التسبب فى معاناة لا طائل من ورائها"، أو القول المأثور سادسا، ٣٨ : "يستحسن عدم علاج الذين لديهم سرطان فى العينين" مما يذكر بتشخيص بردية سميث: "...مرض لا يمكن عمل شىء بشأنه". ومن جانب آخر، فعندما ينصح أبقراط: "...لكن دع الأمور على ما هى عليه" (القول المأثور أولاً، ٢٠ ، ذكر فى ٥٠) نتذكر القول المشهور: "اربطه بمرساته الأساسية".

وكان لابد وأن يستمر تبادل المعرفة هذا فى مصر البطلمية. فقد أصبحت الإسكندرية بعد أن أسسها الإسكندر الأكبر فى ٣٣١ ق.م.، فى ظل سيطرة البطالمة، أهم مقر للحضارة الهيلينية[٢٢]. وإضافة إلى الموسيون (متحف) ومكتبة الإسكندرية الشهيرة التى كانت تضم ٧٠٠ ألف بردية، والتى أنشأها بطليموس الأول، ازدهرت فيها مدرسة طبية شهيرة، تحت إدارة رائدين، هيروفيل وإيراسيستلاث. وقام هيروفيل، متحديا المحظورات الإغريقية والمصرية بشأن احترام الموتى، بأول عملية تشريح فى العالم القديم[٢٣]. وربما قامت علاقات بين مدرسة الإسكندرية الطبية وبين الأطباء المصريين، حيث أن إغريق مصر حسبما يقول ج. يويوت، كانوا متشبعين بالثقافة المحلية، وأن "جملة المعلومات المصرية التى يمكن تبينها فى مدونة أبقراط ترجع بصورة أصيلة لا ريب فيها إلى استعارات سابقة على الإسكندر[٢٤]".

وفى العصر البطلمى، كانت التقنيات بصفة خاصة هى ما استعاره الأطباء الإغريق من الطب المصرى. وهكذا، فإن بردية إغريقية يرجع تاريخها للقرن الثانى ق.م. تذكر أن مربيا إغريقيًا كان يدرس اللغة المصرية لكى يدرسها بدوره للعبيد

الإغريق الشبان، "المتدربين" في مدرسة للطب يديرها إخصائي مصرى في الحقن الشرجية.

ويوضح هذا المثال جيداً رغبة الأطباء الإغريق في تفادى إضفاء طابع هيليني كامل على الطب المصرى[٢٥]. ومن ثم، فقد أثر الأطباء الفراعنة على تطور الطب الإغريقي في فترة ما قبل أبقراط. وهكذا، فإن الوصفات الطبية الموجودة على قطع الفخار الإغريقية التي وجدت في مصر لم تكن ترجمات إلى اللغة المصرية، وإنما كانت تستعيد وصفات أبقراط[٢٦].

الطب العبرى

تركت إقامة العبرانيين الممتدة في مصر منذ ١٤٩٠ ق.م. في ظل تحوتمس الأول حتى هروبهم نحو ١٢٥٠ ق.م. في ظل حكم منفتاح، آثاراً ليس فقط في حياتهم اليومية وفي مفردات لغتهم، وإنما أيضًا في ممارساتهم الطبية[٢٧]. وبذلك وجدت أوجه تشابه عديدة بين أسفار موسى الخمسة والطب المصرى، وبصفة خاصة في مجال تقنيات التوليد، والختان والوقاية من الأوبئة[٢٨].

وهكذا، فإن سفر الخروج (السفر الأول، ١٦) يذكر أن النساء المصريات يلدن في وضع القرفصاء، والقدمان موضوعتان على قالبي طوب (كرسى): "وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيين... وقال حينما تولد العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى". والواقع أن أسفار موسى الخمسة التي يعتقد أنها كتبت في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد، ترجع حسبما يقول أ. س. يهودا إلى عصر كان العبرانيون فيه يعيشون في مصر، ومن ثم إلى القرن الخامس عشر ق.م. وحسبما يرى فإن "العبرانيين توافرت لهم معرفة كبيرة وتامة بالطب المصرى، وأساليبه وممارساته"[٢٩]. وقدر أيموند ويل بدوره أن "مصر كانت على وجه التأكيد من المصادر الرئيسية، إن لم تكن المصدر الرئيسى لأدبيات إسرائيل الخاصة بأسفار الجامعة والأمثال"[٣٠]. وعلى الصعيد الطبي، نلاحظ فعليا أوجه التطابق المثير، ومنها ممارسة الختان. وهكذا، فإن صفورة، امرأة موسى، ختنت ابنتها "على الطريقة المصرية" (الخروج، الإصحاح ٢٥). إضافة إلى أن قالبي

الطوب (الكرسى) كانت العبرانيات يستخدمنهما (الخروج، الإصحاح الأول ١٦). بل إن يعقوب نفسه كان موضع تحنيط (التكوين، الإصحاح ٥٠ ، ٢-٤)، واستغرقت جنازته خمسة وستين يوما، وهو ما يتفق مع مدة تجفيف الجسد فى النطرون. ويمكن أيضا مقارنة علاج أحد أمراض العيون: المسح بالحويصلة المرارية فى التوراة (طوبيا، الإصحاح ٦، ٤-١٢) وما ورد فى بردية إيبرز (رقم ٣٤٧ و ٣٦٠)، والمسميات المتقاربة لأمراض معينة مثل المرض الجلدى (سيشيم فى اللغة المصرية، والتى تنطق شيشين فى العبرية) وكلمة يتقيأ التى تقال قاء فى بردية إيبرز ، وقاء فى التوراة. ونعرف أيضاً أنه بعد نهاية مملكة يهودا، أقام عدد معين من الجاليات اليهودية على امتداد النيل، مثل الفنتين فى القرن السادس ق.م. ولكن ربما كانت الجالية اليهودية المهمة فى العصر البطلمى - وكانت تضم عدداً كبيراً من الأطباء - هى التى لعبت الدور الأكثر أهمية فى نقل المعرفة المصرية(٣١).

الهوامش

(1) Herodote op. at.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) EJonckeere, Les medecins... op. cit, p. 81.

(5) P. Ghalioungui, La medecine... op. cit., p. 77.

(6) G. Boulu, Le medecin... op. cit.,p. 196.

(7) Ibid.

(8) K. A. Kitchen, Ramses II... op. cit., p. 132.

(9) Ibid.

(10) G. Boulu, Le medecin...op. cit.

(11) La celebre stele de Bentresh decouverte par Champollion a Karnak et conservee au Musee du Louvre relate cette histoire.

(12) G. Boulu, Le medecin... op. cit.

(13) G. Contenau, La medecine... op. cit., p. 197.

(14) J. Vercoutter, Essai sur les relations entre les Egyptiens et les PreheUenes, A. Maisonneuve, 1954, p. 88.

(15) T. Bardinet, «Remarques sur les maladies de la peau, la lepre et le cha-timent dans l'Egypte Ancienne», Revue d 'Egyptologie, 1988, pp. 3-36.

(16) H. Goedicke cite par G. Boulu, Le medecin... op. cit., p. 201.

(17) G. Leroux, Les premieres civilisations de la Mediterranee, PLJF, 1983, p. 96.

(18) J. F. Nunn, Ancient Egyptian... op. cit.,p 206.

(19) S. Sauneron, Les pretres de l'ancienne Egypte, Le Seuil, 1957, p. 111.

(20) G. Boulu, Le medecin... op. cit.

(21) J. Yoyotte ,Une theorie... op. cit.

(22) WBJr. Frommeyer, commentaries on the history of medicine. «From primitive medicine to the Hippocratic era of medicine», Alabama Journal of Medical Science, Juillet 1973, 10(3), pp. 340-8.

(23) A. P. Leca, La medecine... op. cit., p. 442.

(24) J. F. Nunn, An dent Egyptian... op. cit., p 206.

(25) L. L. Wiltse , T. G. Pait, «Herophilus of Alexandria. The father ofana-tomy», Spine, Sept. 1998:23, pp. 1904-1914.

(26) J. Yoyotte, Une theorie etiologique... op. cit., pp. 79-84

(27) R. Remondon, «Problemes de bilinguisme dans l'Egypte Lagide (UPZ, 148)» Chronique d'Egypte, Bruxelles, 1964, XXXTV/7778, pp. 126-146.

(28) C. Preaux, «Les prescriptions medicales des ostracas grecs de la biblio-theque Bodleenne», Chronique d'Egypte, BruxeUes, 1956, XXXV/61, pp.135-148.

(29) A. S. Yahuda, «Medical an anatomical terms in the Pentateuch in the light of Egyptian medical papyri», Journal of History medicine and all sciences, 1947, 21, pp. 549-574.

(30) R. Weill, «Les transmissions litteraires d'Egypte a Israels, Revue d'Egyptologie, 1950, p. 43. Posener a ainsi retrouve 680 mentions de l'Egypte dans la Bible dans son Dictionnaire de la civilisation egyptienne, Hazan, 1986.

(31) P. Ghalioungui, La medecine... op. at.

ملاحق

مصادر معلوماتنا عن الطب المصرى

تتمثل المصادر المتاحة لدراسة الطب المصرى فى البرديات الطبية، وشهادات الرحالة من العالم القديم الإغريقى الرومانى، والكتابات الموجودة على حطام الفخار والتوراة، والمومياوات. ومع ذلك، فإن هذه المصادر مجزأة، والواقع أن الأضرار الناتجة عن فعل الإنسان والطبيعة تسببت فى اختفاء كمية كبيرة من الشهادات، والمثال الأكثر شهرة هو حريق مكتبة الإسكندرية الكبرى التى أنشئت فى سنة ٣٠٠ ق.م.، والتى كانت تضم ما يقرب فى مجموعه من ١٠٠ ألف عمل.

البرديات الطبية

تشكل روايات الرحالة الإغريق، وكثيراً ما تكون مجالا للجدل، أحد المصادر الرئيسية للمعارف المباشرة وغير المباشرة قبل ترجمة البرديات الطبية فى القرن ١٩ . والواقع، أنه لم يحدث سوى فى عام ١٨٥٣ أن قام بروجسن بأول ترجمة لبردية طبية. وقد شرح دومينيك سبايث جيداً المشكلات التى تطرحها ترجمة البرديات الطبية، واللصيقة فى جزء منها بنفس هيكل اللغة والكتابة المصرية، وفى جزء آخر بالثغرات الموجودة فى مفرداتنا، بسبب جهلنا بمعنى مصطلحات معينة محددة جدا تستخدم بالذات فى ميدان علم النبات.

ومع ذلك، فإن علماء مصريات معينين نذروا أنفسهم لهذه المهمة الصعبة متبعين فى ذلك أسلوبين. الأول - الأكثر أمانا - يقوم على "المقارنة بين اللغة القبطية (وهى التطور الذى تمثل فى كتابة اللغة المصرية الفرعونية باللغة الإغريقية) واللغة المصرية الهيروغليفية، وذلك ما فعله شامبليون بتحديد المفردات المصرية الأساسية"(١). ويتمثل الأسلوب الثانى فى "البحث عن الجذور المشتركة لكلمات اللغتين المصرية والإغريقية (احتفظ مؤلفون إغريق كثيرون، خاصة ديوسقوريديس، بالأسماء المصرية الأصلية لتسمية النباتات فى كتاباتهم)، واللغة العبرية (احتفظ العبرانيون فى لغتهم بآثار

إقامتهم الطويلة فى مصر) واللغة العربية (قليلا ما عرَّب عرب مصر الأسماء القديمة التى استخدمها أجدادهم لتسمية النباتات)"[٢].

وتشكل البرديات الطبية حالياً الوثائق الأكثر قابلية للاستخدام (حتى وإن كانت هذه فى الغالب الأعم نسخًا من نصوص أكثر قدمًا)[٣] لأنها توفر رؤية مباشرة عن منجزات ذلك العصر. ومع ذلك، فإنه من الصعب على المرء تكوين فكرة كاملة انطلاقًا من هذه المجموعة من الوثائق المجزأة. وبناء على ذلك، وكما شرح تيرى باردينيه "فإن هذه النصوص هى فى الأساس كتيبات عملية وجيزة، حررت لتمكن الطبيب من تشخيص الأمراض فى ممارساته اليومية واقتراح العلاج المطابق، وهى ليست أطروحات نظرية بالمعنى الحديث للمصطلح (تشرح الأمراض)، ولهذا السبب، يعد وصول طبيب القرن العشرين إليها أمراً صعباً"[٤].

بردية إيبرز

وهى محفوظة حاليا فى مكتبة جامعة ليبزج، وهى تتعلق بأهم وأطول بردية طبية متاحة حاليا. ويرجع اسمها إلى اسم أول من تملكها جورج إيبرز (١٨٣٧ - ١٨٩٨)، الذى اشتراها فى ١٨٧٢ من مصرى أكد له أنه وجدها قبل ذلك بعشر سنوات بين ساقى مومياء فى مقبرة فى طيبة. ويزيد طول هذه البردية على ٢٠ متراً وعرضها على ٣٠ سنتيمتراً وتضم ١٠٨ صفحات تتراوح الواحدة منها بين ٢٠ و ٢٢ سطراً ومرقمة حتى ١١٠ (لكنها تنتقل مباشرة من صفحة ٢٧ إلى صفحة ٣٠). ويرجع تاريخ النص المكتوب بالهيراطيقية إلى السنة التاسعة من حكم أمينوفيس الأول (حوالى ١٥٥٠ ق.م.). ومع ذلك، فإنه من المؤكد عمليًا أنها نسخة من عمل أقدم يرجع إلى الإمبراطورية القديمة، مثلما تثبته التراكيب النحوية ومقطع يتعلق بدواء للشعر وجد أثر له فى مخطوط يرجع إلى الأسرة السادسة (حوالى ٢٥٠٠ ق.م.) وتحتوى هذه البردية التى درسها إيبل وفريزنسكى، أساسًا على ٨٧٥ وصفة غير قياسية ومتعارضة دون تتمة منطقية. ومن ثم فهى تتعلق ببحث فى الفارماكولوجيا والعلاج مع بعض عمليات

الوصف الإكلينيكية، ثم ٤٧ وصفة فقط تضم تشخيصاً. وتضم بردية إيبرز فصولاً غاية فى الأهمية فى تاريخ الطب مثل "المبحث الكبير فى القلب والأوعية". وتبرر كل هذه العناصر الاهتمام التاريخى لهذه البردية الذى لاحظه المؤرخ والطبيب ثوروالد: "قبل ظهور خبراء المعالجة الإغريق الأول بكثير، كانت توجد بالفعل روح طبية"[٥].

بردية إدوين سميث

محفوظة حالياً فى أكاديمية الطب بنيويورك، وقد اشتراها فى ١٨٦٢ عالم مصريات أمريكى شاب، إدوين سميث من شخص اسمه مصطفى أغا وهو تاجر فى الأقصر[٦]. وعند وفاة سميث فى ١٩٠٦ قدمت ابنته البردية إلى جمعية نيويورك التاريخية، وعهد بها إلى جيمس هنرى برستيد لترجمتها، وتم نشرها بواسطة من عهد إليهم بها فى مجلدين فى ١٩٣٠[٧]. وقد جاءت من نفس المقبرة فى مدينة الموتى فى طيبة التى جاءت منها بردية إيبرز ويرجع تاريخها إلى بداية الأسرة الثامنة عشرة. ولكنها هى أيضاً نسخة من بردية سابقة، ترجع بلا ريب إلى الإمبراطورية القديمة مثلما يوضح الهيكل النحوى للنص. ويبلغ طولها ٤,٦٨ متر وارتفاعها ٣٣ سم، والصفحات الاثنتا عشرة المكونة منها مغطاة بكتابة هيراطيقية، والعناوين مكتوبة بحبر أحمر، وحتى النص مكتوب بالحبر الأسود. وهى فى مجموعها أكثر رشداً من بردية إيبرز. ونجد فيها إشارة واحدة إلى السحر فى حالة ميئوس منها. ومن ثم، يوجد تسلسل منطقى وعلمى فى مسار تفكير الطبيب. وهذا المبحث المرموق فى الباثولوجيا الجراحية، المنظم جيدا بصفة خاصة يضم ٤٩ ملاحظة مرتبة فى نظام طبوغرافى نازل (الجمجمة، الوجه، العنق، الترقوة، الكتفان، الصدر، العمود الفقرى) يصف فى مجموعه جراحة الأجزاء الرخوة ومبحث الجروح والردود. وتتبع كل ملاحظة خطة محددة ولا تتغير، بوصف إكلينيكى، يتبعه تشخيص، ثم إصدار الحكم (يعادل التكهن الذى نضعه). وأخيراً، نوع العلاج الذى يتعين الأخذ به.

بردية هيرست

هذه البردية التى اختلست فى ١٨٩٩ خلال حفريات فى دير البلاّص، اشترتها بعثة هيرست الأمريكية، ونشرها جورج أ. رايزنر فى ١٩٠٥[٨]، ثم ترجمها فريزنسكى إلى الألمانية فى ١٩١٢ ، ولاشك أنها كتبت فى ظل حكم تحوتمس فى الأسرة الثامنة عشرة، وتضم ٢٦٠ فقرة مع وصفات طبية لأمراض مختلفة فى الجلد؛ والقلب؛ والمثانة؛ والصدر؛ وآلام الأسنان، والطفيليات؛ وسقوط الشعر وابيضاضه، والعضات، والحلول المتبعة لتثبيت الأعضاء المكسورة. ويوجد جزء كبير من وصفاتها فى بردية إيبرز.

بردية برلين الصغيرة ، أو بردية برلين ٣٠٢٧

نجد فيما يقرب من خمس عشرة صفحة مكتوبة نحو ١٤٥٠ ق.م. (الأسرة الثامنة عشرة)، عدة وصفات علاجية، وبصفة خاصة رقيات سحرية لحماية الأمهات والأطفال وكذلك مبحثا عن أمراض الأطفال. وحسبما يقول ليكا ، فإنها تتعلق "بأقدم مبحث عن أمراض الأطفال" معروف حتى الآن[٩].

بردية برلين الكبيرة ، أو بردية برلين ٣٠٣٨

تتكون هذه البردية من ٢٠٤ فقرات ويرجع تاريخها إلى الأسرة التاسعة عشرة وهى محفوظة فى متحف برلين وقد اكتشفها باسا لاكوا قرب سقارة فى وعاء من الفخار مدفون على عمق ١٠ أقدام تحت رمال الصحراء، وقد نشرها فريزنسكى فى ١٩٠٩ . وهى تتعلق بالنص الطبى الوحيد الموقع، على الأقل بالنسبة لوصفة واحدة: "إنه كاتب الكتابات المقدسة، رئيس الأطباء المتازين، نيترحوتب (الذى وضع) الكتاب[١٠]".

بردية كاهون

هذه البردية محفوظة حاليًا فى كلية جامعة لندن وقد اكتشفها فى حالة سيئة جداً فى قرية اللاهون (الفيوم) فى ١٨٨٩، فى أطلال فى المقر الفرعونى فى كاهون،

السير ويليام ماثيو فلندرز بيترى. وقام بترميمها وترجمتها فرانسيس جريفث، وتعتبر حاليًا أقدم بردية طبية، حيث إنها حررت نحو الأسرة الثانية عشرة (نحو ٢٠٠٠ ق.م.). وهى تتعلق فى الأساس بمبحث فى أمراض النساء والولادة مع جزء مكرس للطب البيطرى (مكتوبة بالهيروغليفية)[١١].

بردية لندن الطبية

أصلها غير معروف، وقد اشتراها المتحف البريطانى فى ١٨٦٠ من المؤسسة الملكية بلندن، وهذا الرق العتيق (الذى يفتقر إلى المرجع أو التفسير) يرجع تاريخه إلى ١٣٥٠ ق.م.، فى ظل حكم توت عنخ آمون، وهى معروضة فى شكل لفافة طولها ٢,١ متر وعرضها ٠,١٧٥ متر. وهى تتعلق بمبحث فى الصيغ السحرية يضم ٦٢ وصفة موجهة أساسًا لمكافحة أمراض العيون، وللنساء، وبصفة خاصة لمكافحة الحروق.

بردية برلين رقم ١٣٦٠٢

هذه البردية مكتوبة باللغة الديموطيقية ويرجع تاريخها للقرن الأول ق.م.، وتضم وصفات مكرسة لمنع الحمل.

بردية تشستر - بيتى رقم ٤

لا ريب أن هذه البردية المحفوظة فى المتحف البريطانى والتى ترجع للأسرة التاسعة عشرة (نحو ١٣٠٠ ق.م.)، نسخت انطلاقًا من نص أصلى أقدم، وقد جاءت من عملية سرقة ارتكبت من حفائر دير المدينة. وعلى الوجه منها مبحث فى أمراض الشرج، أما الظهر فيحتوى على وصفات تتعلق بأمراض الثدى والقلب والمثانة وكذلك رقيات.

برديتا ليد السحريتان رقما ١٣٤٣ و ١٣٤٥

اكتشفت هاتان البرديتان فى طيبة ويرجع تاريخهما إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وتحتوى هذه النسخة من نص أقدم أساسا علاجات وصيغا سحرية لمكافحة أمراض مختلفة غالبيتها غير محددة.

البرديتان رقما ٤٨-٢١٨-٤٧ ، و ٨٥-٢١٨-٤٧ فى متحف بروكلين

تشكل هاتان البرديتان اللتان ترجعان إلى الأسرة الثلاثين (٣٠٠٠ ق.م.) جزءين من نفس الوثيقة ذاتها، وهى مبحث حقيقى فى علم الزواحف ووصف الأفاعى. وهما يقدمان وصفا لمختلف الزواحف ونتائج عضتها وإشارات للعناية بالمريض[١٢].

بردية كارلسبرج رقم ٨

أصلها غير معروف، وقد نشرها إيفرسن للمرة الأولى فى ١٩٣٩ . وهى تضم ثلاثة أجزاء مكتوبة باللغة الهيراطيقية وتنتمى إلى مخطوط يرجع للأسرتين التاسعة عشرة والعشرين[١٣]. وهى محفوظة حاليا فى معهد المصريات فى جامعة كوبنهاجن، وتضم أساسا وصفات لأمراض النساء وتشخيصا للولادة.

برديات الرامسيوم الثالثة ، والرابعة ، والخامسة

نشر جاردنر هذه البرديات فى ١٩٥٥[١٤]، وقد اكتشفها فى ١٨٦٩ جيمس كويبل فى مقبرة من الإمبراطورية الوسطى قرب الرامسيوم. وتعالج البردية الثالثة أمراض العيون وأمراض الطفولة، وتعالج الرابعة أمراض النساء والأطفال فى حين تتعلق الخامسة بالميتو. ومحتوى هذه البرديات طبى سحرى، فيما عدا الخامسة، فهى طبية خالصة، وتشكل جزءاً من المكتبة الخاصة لأحد المثقفين فى الأسرة الثانية عشرة.

بردية وست كار

تعالج هذه البردية الولادة.

بردية اللوفر هـ ٤٦٨٤

كتب هذا النص الطبى على ظهر بردية اللوفر، ويتناول علاجات للقنوات (ميت) والدودة (حيفت).

البرديات الأخرى

تتوافر برديات غير طبية مهمة لدراسة الطب مثل البرديات السحرية الدينية، والبرديات الأدبية التى تصور الأطباء فى ممارساتهم الطبية، والبرديات الإدارية التى توفر معلومات عن تنظيم وإدارة الطب.

نقوش الفخار الطبية

وفر محتوى نقوش الفخار، وهو أكثر اختصاراً من محتوى البرديات، معلومات عن نوع العلاج المقدم أو عن نصوص الرقيات. وقد أحصى سبايت المتوافر من مختلف هذه النقوش على الفخار(١٥) :

- نقش فخار القاهرة رقم ١٠٩١ وهى شظية من الجص تحتوى على ثلاث وصفات، إحداها لتجنب المعاناة؛ وواحدة لتجنب السعال، وواحدة للقلب.
- نقش لندن رقم ٢٩٧ وقد وجد فى موقع أرمنت ويحدد ببساطة "مسح المريض بدهن الثور".
- نقش اللوفر رقم ٣٢٥٥ وهو حطام زجاجة يعرض وصفات لعلاج أمراض الأذن.

- نقش برلين رقم ٥٥٧٠ ويرجع تاريخه للعصر الرومانى ويحتوى ست وصفات للمراهم.
- نقش ميلن س. أ. وهو رقية لحماية الأطراف تستند لمبدأ التشابه.
- نقش المدينة ١٠٩١ وهو وصفة "للشفاء من كل الأمراض".
- نقش من طيبة وهو رقية لطرد الشياطين أصل المرض.
- نقش الرامسيوم ٣٥ وهو رقية للوقاية من عضة الثعبان.

النقوش المنحوتة فى الصخور

هذه النقوش هى فى الأساس لأعضاء البعثات التى أرسلت فى المناجم والمحاجر، والتى تذكر وجود الأطباء.

الأعمال الفنية ، والآثار ، والكتابات غير الطبية

يشكل الفن المصرى لمؤرخ الطب مصدراً مهما للتوثيق. والواقع، أنه توجد رسوم ونقوش قليلة البروز وتماثيل تمثل الأشخاص الذين يعانون من أمراض طبية جراحية. وأخيراً، فإن الأشياء الطبية والجراحية أو الصيدلانية (قدور ذات المظهر الإنسانى، علب المراهم) ساهمت فى تحسين معرفتنا بالطب المصرى.

التفسير الطبى للضربات العشر التى أصابت مصر

خلّد عدد من الحكايات، خاصة فى التوراة، ذكر مصر القديمة على مر القرون. وتمثل الأحداث الأسطورية الأكثر شهرة فى العهد القديم عن هذه الحضارة فى: تبنى ابنة فرعون لموسى الرضيع(*) الذى وجد فى سلة من الصفصاف على ضفاف النيل، لكنها تتمثل بصفة خاصة فى "الضربات العشر لمصر" وعبور العبرانيين للبحر الأحمر. وقد وضع هذا النزاع موسى وأخاه هارون يساندهما تدخل من رب إسرائيل،

(*) المعروف فى القرآن الكريم أنها «امرأة فرعون» . (المراجعة اللغوية)

فى مواجهة فرعون نفسه الذى يمثل الإله رع على الأرض، وكهنة الصحراء، ويمثل ذلك مرحلة مهمة فى تاريخ العبرانيين. ويشغل هذا الحدث الذى تم تضخيمه وإضفاء طابع درامى عليه وتنميقه، مكانًا خاصًا فى التوراة، يرمز للمواجهة بين شعبين، وثقافتين ونوعين من المفاهيم الإلهية أفضت إلى قطيعة كاملة.

وهو يعكس فى الواقع تغيرا سوسيولوجيا عميقا لقبائل إسرائيل المشبعة بحضارة أخرى والتى انتقلت من مرحلة البدو الرحل إلى الاستقرار، بعد أربعة قرون من إقامة يوسف وأشقائه فى بلاد جوشن (أوجسين)، فى شرق الدلتا، وهى منطقة مشهورة بخصوبتها. وهكذا أصبح العبرانيون مربى ماشية ومزارعين فى الأرض التى خلعها عليهم فرعون، بشرط دفع مقابل انتفاع قدره خمس منتجاتهم (التكوين، الإصحاح ٤١، ٣٥-٤٧). وخلال إقامة نسل يعقوب فى وادى النيل والذين كانوا حتى ذلك الحين يعيشون فى قبائل وبطون، توحدوا وشكلوا أمة والتزموا بعبادة إله واحد، يهوه. ولكن خلال القرن السادس عشر ق.م.، تدهور وضع اليهود فى بلاد جوشن، والذى كان هادئا حتى ذلك الحين، دون أن يتصايحوا محذرين.

فالفرعون الجديد وقد روعته الزيادة السكانية طليقة العنان للعبرانيين، والذين كان يخشى من تحالفهم مع أعداء مصر ، أجبرهم على ترك المراعى والاشتراك فى أشغال بناء صعبة فى مدينة بى-رمسيس العاصمة الجديدة للمملكة. وإضافة لذلك، فإنه للحد من نمو العبرانيين أمر القابلات بخنق المواليد الجدد الذكور من هذا الشعب.

وقد ولد موسى فى سياق الاضطهاد هذا، نحو ١٣٥٠ ق.م.، وكان يتعين وضعه فى قفته الشهيرة المصنوعة من الصفصاف (سلة) على أمواج النيل. وإذ تلقته ابنة فرعون، فقد تربى داخل القصر الملكى وبذا حظى بمعرفة تامة بالثقافة المصرية وبعقلية فرعون، التى كانت تولى أهمية أساسية للأحلام وعلامات البشارة.

ولم يبلغ موسى بأصوله ويحس بمعاناة شعبه إلا فى سن الرشد. وفى أعقاب مشاجرة، قتل موسى خلالها مراقب عمال مصريًا كان قد اعتدى على أحد العبرانيين لجأ لمدة أربعين سنة إلى بلاد مدين شرق العقبة. وبعد رؤيته التى شاهد فيها شجيرة زعرور سيناء، العليقة، عاد موسى إلى بلاد جوشن ليطلب من فرعون ترك شعبه ليرحل.

وأمام رفض هذا الأخير، كان على موسى أن يقدم برهانا (عجيبة) رمزاً للغاية بتحويل عصاه إلى حية (الخروج، الإصحاح ٧، ١٢ , ١٠)، لإقناعه بقوة رب إسرائيل، وقد كان هذا برهانا على أكبر مهارة سيكولوجية مثلما شرح سيلفى تريميون: "فى كل الظروف الأخرى، فإن مثل هذه النية فى التملص من الإعتاق اصطدمت بقمع قاس انتهى أخيراً بحمام دم، وهنا لا شيء أكثر من أن: الثقافة الأسطورية والخرافات انتصرت على المعنى السياسى"[١٦].

وفى مواجهة تعنت فرعون، أنزل إله العبرانيين بمصر كلها نحو ١٢٧٠ ق.م ، سلسلة من الكوارث أعلنها موسى الواحدة بعد الأخرى والتى سميت فى التوراة أوث وترجمت "الضربات". لكن هذه الكلمة العبرية قد تعنى أيضا "ضربة" أو "حرفا" وتفهم على أنها "رسالة تهديد"[١٧]. وقد وصلتنا حكاية هذه الواقعة فى الأسفار من ٧ إلى ١٢ فى سفر الخروج، الذى حرر بعد ذلك بقرنين. وعلى أساس المعلومات المتوافرة، سنحاول وضع تفسير لهذه "الضربات العشر الموجهة لمصر"، واضعين فى الاعتبار المعطيات الطبية - والمتعلقة بعلم الحشرات - والجغرافية والفلكية والمتعلقة بالأرصاد.

الماء يتحول إلى دم

بالنسبة للضربة الأولى حول هارون مياه النيل إلى دم بأمر من موسى، ولم يرتدع فرعون من هذه الضربة ونجح السحرة المصريون فى إبطال عمل الشقيقين. ومع ذلك، فهناك عنصران يستحقان الذكر فى نتائج عملية التحويل التى قام بها هارون: إن الماء أصبح غير صالح للشرب وإن السمك مات.

وقد قدمت أربعة فروض لتفسير هذه الظاهرة. يشير أكثرها شيوعا إلى نتيجة محتملة لفيضان النيل الذى نعرف أنه ينزع الطمى الأحمر من الأنهار فى المجرى الأعلى ومن ثم يصبح الماء أحمر. وهذه الظاهرة الدورية كان من السهل أن يتنبأ بها موسى فهى نتيجة فلكية ومتعلقة بالأرصاد، والفرض الثانى المثار هو اشتداد حالات البلهارسيا البولية المسئولة عن حدوث نزيف. لكن كيف يمكن تفسير الفزع الذى أثاره

مثل هذا المرض الذى ينتشر فى حالة متوطنة لدى المصريين؛ وقد قدمت سيلفى تريميون إجابة ملائمة لهذا السؤال: "يمكن تخيل أنه فى أعقاب تسرب حاشد لطفيليات لأجسام السكان أمكن للنزيف المترتب على هذا أن يصبغ المياه الراكدة ومياه النيل والذى كان حينذاك فى أدنى مستوى له لأن تياره كان قد تباطأ بصورة محسوسة؛ وفى هذه المرة، كان لابد وأن يفاجأ المصريون بتلون نهرهم باللون الأحمر، فى فترة جد متأخرة"(١٨).

والفرض الثالث، وهو مثير جداً للاهتمام، ويتميز بأنه يقدم تفسيراً رشيداً للضربات الأخرى التى تلت ذلك، وقد طرحه فاج فى ١٩٥٣، والذى رأى أن لون مياه النيل الأحمر كان يرجع إلى تكاثر وحشى لكائنات عضوية نباتية مائية وحيدة الخلية من مجموعة السوطيات الرهيبة(١٩). ويقوم هذا الفرض فى جزء كبير منه على حقيقة أن الفيضانات المباشرة كانت تؤدى إلى تكاثر ضخم فى هذه الكائنات الحية الدقيقة لأنها تجرف الأملاح المغذية (النترات، الحديد، الفوسفات) الضرورية لأيضها. وهناك حجتان تدعمان الدور المؤدى للمرض الذى لعبته هذه السوطيات فى الضربة الأولى، الأولى هى: أنها كانت تحتوى على سمة جوهرية متلقية للضوء الأحمر قادرة على إعطاء تألق ضارب للحمرة على سطح الماء، والثانية: تستند لقدرتها على ترشيح المواد السامة القادرة على تسميم غالبية السمك الذى يلامسها(٢٠).

والفرض الأخير طرحه مؤخراً اثنان من الجيولوجيين، ويليام رايان وجيلز ليركولايس، يتهم ثوران بركان سانتورين(*) فى القرن السابع عشر ق.م.(٢١): "خلال يومين على الأكثر دامهما ثورانه، قذف نحو ثلاثين كيلومترا مربعا من الرماد والحمم." وتسبب هذا الثوران فى حدوث هزة عنيفة فى أعماق البحر ارتدت على ضفاف الجانب المصرى. كارثة طبيعية تفسر اللون الأحمر للنيل. وعند جيلز ليركولايس، فقد كانت هذه شظايا نارية "لصخور تكونت من جراء تراكم بقايا الحمم الحمضية مثل حجر الريوليت

(*) جزيرة يونانية . (المترجم)

البركانى" والتى كانت مسئولة عن هذا اللون. وفى المقابل، اتهم ويليام رايان المحتوى المرتفع فى الجسيمات البركانية من حامض الكبريتيك الذى أكسد الصخور الحديدية لمجرى النهر مما أضفى على الماء انعكاسات الصدأ.

الضفادع تغزو البلد

أمام تعنت فرعون وبعد سبعة أيام، أحدث هارون غزو جحافل الضفادع لمصر. ومصطلح "الضفدع" نفسه يطرح تفسيرات متعددة، بقدر ما يشغل هذا الحيوان مع الثعبان مكانة مهمة فى نظرية نشوء الكون المصرية، إذا كانت هى، وهو أول من سكن الأرض الأصلية.

وهناك افتراضان يفسران تكاثر الضفادع. الأول، طرحه جان ليكير وهو حدوث "تزايد فجائى فى معدل الرطوبة فى الهواء" الذى جاء إلى بلد شبه صحراوى - وبعد فترة جفاف ممتدة - بهجرة حاشدة من الضفدعيات نحو موارد المياه[٢٢].

ويطرح الفرض الثانى تعديلا فى النظام الإيكولوجى أدى إلى حفر موارد مياه جديدة فى أعقاب تسمم النيل. بيد أن الضفدعيات ظلت كالمعتاد فى حالة سبات خلال الشتاء ثم استفادت من الربيع، فترة النشاط الجنسى لكى تنتقل نحو المستنقعات لتضمن الإخصاب ووضع البيض، وقد أنشئت موارد مياه عديدة خاصة بالقرب من المساكن ومن المنطقى الاعتقاد بأن الضفادع استفادت من نظام إيكولوجى موات لتكاثرها، بقدر ما كانت إناثها ولودة-تبيض الواحدة منها ما يصل إلى ألف بيضة[٢٣].

البعوض يغزو مصر

وبالمثل فإن هذه النكبة التى لم يستطع سحرة مصر صدها ينبغى ربطها بتكاثر موارد المياه مع تسمم النيل. ومن الجدير بالاهتمام ملاحظة أن فرعون لم يبال بهذه النكبة التى تحدث عادة فى الأماكن الحارة الرطبة التى تكثر فيها المستنقعات.

الهوام

ربما كان هذا التكاثر السريع للذباب الذى اجتاح منازل المصريين متفاديا منازل العبرانيين ظاهرة طبيعية مترتبة على الفيضان الدورى للنيل فاقمها تحلل الضفادع الميتة.

ونلاحظ أن الذباب والبعوض المذكورين فى الضربة الثالثة والرابعة قادر على نقل عدد معين من أمراض الإنسان والحيوان، وبعوضة الأنوفيلس (بعوضة الملاريا) الأنثى هى ناقل الملاريا، وبعوضة culex pipiens هى التى تنقل داء فلاريا بانكروفت وبعوضة الزاعجة المصرية تنقل حمى الدنج والحمى الصفراء، والبعوضة ذات الجناحين آكلة الدم هى التى تنقل العوامل الممرضة للإنسان. كذلك فإن ذبابة المنازل التقليدية مسئولة عن نقل العديد من الجراثيم مثل جراثيم الجمرة، المسئولة عن مرض الجمرة الخبيثة ومتدثرة (كلاميديا) التراكوما المسئولة عن التراكوما أو مشكلات الدوسنتاريا التى تسبب الدوسنتاريا الباسيلية.

الطاعون يضرب الماشية

كانت الضربة الخامسة مرضًا قضى على كل قطعان الضرعيات الداجنة (البقر، الضأن، ذوات الأظلاف من الخيل والحمير) المملوكة للمصريين فى حين تجنبت العبرانيين. ومن الصعب وضع تشخيص قاطع فى ظل عدم وجود وصف محدد للأعراض. ومع ذلك، يمكن تصور أربعة أمراض: الطاعون البقرى، الحمى القلاعية، حمى الوادى المتصدع، وخاصة حمى الجمرة الخبيثة، والإصابة بهذه الأخيرة خطيرة بسبب طابعها المتوطن، ونوع الحيوانات والتشخيص.

الناس والحيوانات تشملهم الضربات

كانت السماء غارقة فى الظلمة فى حين كانت محاصيل المصريين ومحاصيل ماشيتهم تتغطى بالبثرات والقرح، بعدما قذف موسى فى الهواء بحفنة من الرماد.

وقد وجه ليكا[٢٤] وجمايل[٢٥] الاتهام لعدة أمراض، خاصة الجدرى. والحجة الأكثر أهمية التى تعزز هذا التشخيص هى وجود آثار للجدرى على مومياء رمسيس الثانى، التى تدل على وجود هذا المرض فى مصر فى العصر الذى جرت فيه "الضربات العشر". ومع ذلك، لا يمكن استبعاد داء الليشمانيا الجلدى أو داء النغف الدملى أمام المظاهر الجلدية. ويعزز تكاثر الحشرات ذات الجناحين قبل ذلك ببعض الوقت، والذى نعرف أنه مسئول عن هذين المرضين الطفيليين، هذا الفرض. وقد تكون حقيقة أن العبرانيين لم يقعوا ضحايا لهذا المرض نتيجة لاحترامهم لقواعد الوقاية التى كانت تفرض عليهم عزل أى مصاب بآفة جلدية.

البَرَد ينهمر على مصر

بعد أن وجه موسى عصاه للسماء، أحدث رعداً وأسقط برداً، أوقع الرعب فى قلوب المصريين ولكنه حمى العبرانيين وقطعانهم.

وفى هذا، أثير افتراضان. يقوم الأول على ظاهرة جوية نادرة جدا فى مصر لكن عالم المصريات بيير مونتيه لاحظ وقوعها بضع مرات وبصفة خاصة فى ١٩٤٥، وقد شهدت هذه المرة الأخيرة وابلا من حبات البرد فى حجم ثمرة الجوز، أهلك -كما يعتقد- المحاصيل فى خمس دقائق، وتسبب فى جرح الناس والحيوانات[٢٦]. ويمكن أن نتساءل عما إذا كانت هذه الظاهرة قد وقعت فى اللحظة التى واجه فيها موسى فرعون.

والافتراض الثانى - الذى طرحه جان فرانسوا روبيه - وهو مهندس فى أبحاث المناخ فى هيئة الأرصاد الفرنسية، يشير إلى الدور المحتمل للجسيمات التى قذف بها بركان سانتورين فى تكوين "نويات ذات تركيز مولد للمطر والجليد[٢٧]". والواقع أن حبات البرد ربما تكونت من الجليد وأيضا من الرماد المتعاظم، كسر قذائف البركان.

الجراد

ربما أدى المطر العنيف والضربة السابقة إلى إفراخ وتكاثر الجراد المهاجر فى أسراب. وخلال هذه الظاهرة، كان الجراد قادرا على الترحال لمسافات طويلة تصل إلى ٤٠٠٠ كيلو متر فى شهرين. ويمكن أن يشكل أنواعا من "السحب" تضم مليارات الحشرات تغطى حتى ١٠٠٠ كم٢[٢٨]. وقد جلبت غزو الجراد هذا ريح من الشرق ربما جاءت من الشرق الأوسط، وكانت ظاهرة الأسراب هذه محل خشية بصفة خاصة من قبل الفلاحين المصريين الذين واجهوها بتمائم لها شكل هذه الحشرة للوقاية منها.

الظلمات

هذه الضربة التاسعة مليئة بالدلالات لأن فرعون كان يعتبر ابن رع، إله الشمس. وتثير الأيام الثلاثة التى غرقت فيها مصر فى هذه الظلمات افتراضين:

يشير الأول إلى احتمال هبوب رياح الخماسين، وهى رياح من الصحراء تهب عدة مرات سنوية وتثير سحابة من الغبار والرمال كثيفة لدرجة تجعل نور النهار ظلمة.

ويشير الفرض الثانى إلى تكوين سحابة كبيرة من الجسيمات التى قذف بها بركان سانتورين والتى أغرقت مصر فى الظلمة[٢٩]. وقد سجلت ظاهرة مماثلة فى ١٩٩١ فى الفلبين بعد ثوران بركان بيناتوبو، وانبعاث نحو ٢٠ ميجا طن من ثانى أكسيد الكبريت فى الجو والذى ألقى على مانيلا ما يكافئ ٧١ مليونا من متسلسلات الرماد، مما شكل راسبا سمكه ٥ سم على امتداد ٤٠٠٠ كم٢، فى حين نقص متوسط درجة الحرارة العالمى عدة أجزاء من عشرة من الدرجات خلال فصلين للشتاء[٣٠].

موت المواليد البكر (الصبيان)

كان هذا هو أكثر النكبات ترويعا "ضرب الرب كل بكر فى أرض مصر" ردا على مذبحة أولاد العبرانيين على أيدى فرعون. وأخذا فى الاعتبار كبر وفيات الأطفال فى مصر، تم طرح عدد معين من الافتراضات أمام هذا الوباء الذى يعد خطيراً والذى أصاب الأطفال على وجه التفضيل لكنه أصاب الحيوانات أيضاً.

وفى هذا كالمعتاد حكاية عن وباء الطاعون. ومع ذلك، فإن هذا التشخيص لا يمكن تقريره رسميًا، ذلك أن مصطلح الطاعون يغطى بطريقة مفرطة عديداً من الأمراض الخطيرة التى تفشت فى العالم القديم: مثلا طاعون أثينا الشهير فى ٣٣١ ق.م. والذى ربما كان وباء التيفوس. وحسبما يقول دول، فإن الطاعون الدبلى لم يجتح مصر إلا بعد فتح المسلمين لهذا البلد[٣١].

وربما وجه الاتهام إلى شلل الأطفال السابق الحاد أو الحصبة، لكن هذين المرضين الفيروسيين لا يصيبان الحيوانات. وقد وجه الاشتباه منطقيا إلى دائين طفيليين يصيبان الحيوانات والبشر: ليشمانيا الأحشاء، التى تنقلها الذبابة الفاصدة، وبصفة خاصة الملاريا[٣٢]، وهنا أيضًا، يثار الدور الافتراضى لثوران بركان سانتورين، ليس لأنه سبب الأوبئة بصورة مباشرة، وإنما لتأثيره غير المباشر، مثلما يفسره الدكتور بو-هاكاه من منظمة الصحة العالمية "إن الآثار الضارة لكارثة طبيعية من هذا النوع، تدفع الناس إلى الانتقال من أماكنهم وإعادة التجميع. فإذا لم يتم التخلص من المياه المستهلكة، وإذا كانت النظافة العامة متدهورة، بسبب نقص المياه السليمة، تظهر أمراض مثل الكوليرا بسرعة مفرطة، أحيانا بعد يومين بعد التفجر"[٣٣].

وإجمالاً، فإنه فى ظل الوضع الحالى لمعارفنا وعلى أساس الوصف الذى ورد فى العهد القديم، لا يمكن بدقة تعيين الطبيعة المحددة للضربة العاشرة لمصر التى أدت لموت ابن فرعون البكر[٣٤]. وفى أعقاب تلك النكبة، صرح هذا الأخير وقد تملكه الحزن، برحيل العبرانيين، مدركا أن قوة رب إسرائيل فاقت قوته. ومع ذلك، فسرعان ما أسف لضعفه وفقد عبيده، وشرع فى مطاردتهم بجيشه.

وخلال العبور الشهير للبحر الأحمر، الذى خلده فى السينما سيسيل دى ميل، استفاد العبرانيون من انفتاح المدّ ليهربوا، فى حين ابتلعت المياه جيش فرعون: وهذا المشهد، مثله مثل "ضربات مصر العشر" موضع تفسيرات عديدة، ذات طابع يتعلق بالتغيرات الجوية هذه المرة. وقد طرح دورون نوف وناثان بالدور نموذجًا أكثر إثارة للاهتمام، فقد بينا على نموذج تجريبى لحوض البحر الأحمر أن "الريح المعتدلة كانت تستطيع أن تجعل هذه المساحة من الماء ذات العمق القليل قابلة للعبور. فهذه الرياح التى تهب عدة ساعات فى خليج السويس، تؤدى إلى دفع المياه فى شكل جدار ارتفاعه ٢,٥٤ متر، وأن تغييراً بسيطًا فى اتجاه الرياح كان يكفى لجعله ينهار[٣٥]".

الهوامش

(1) D. Spaeth, Pneumologie... op. cit., p. 43.

(2) T. Bardinet, «Les papyrus de l'Egypte Ancienne>», Pour La Science, n°226, aout 1996.

(3) J. Thorwald, Histoire... op. cit., p. 49.

(4) J. E Nunn, Ancient... op. cit., p. 25.

(5) J.F.Nunn,Ibid,p.26.

(6) G. A. Reisner, The Hearst... op. at.

(7) A.P. Leca, La medecine... op. cit, p. 31.

(8) Ibid.

(9) A. Von den Driesch, «Is there a veterinary papyrus of Kahoun?», Histona Mod Vet, 2001, 26(3-4), pp. 105-106.

(10) S. Sauneron, Un Traite egyptien d'ophiologie: papyrus du Brooklyn museum n°47.218.48, 1989, Le Cairo, Institut francais d'archeologie orientale.

(11) I.J.-J. Ray, «Papyrus Carlsberg 67: A healing-prayer from the Fayum»,/. Egypt Archaeol. 1975, 61, pp. 181-188.

(12) A. Gardiner, The Ramesseum papyri, Oxford, Oxford University Press, 1955.

(13) D. Spaeth, Pneumologie... op. at., pp. 55-56.

(14) S. Tremillon, Essai d"interpretation des plates d'Egypte, These de docteur en medecine Paris XI, Kremlin Bicetre, 1989, p. 79.

(15) S. Tremillon, Essai... op. cit., p. 24.

(16) L. Millo, La mart... op. cit., p.143.

(17) S. Tremillon, Essai... op. cit., p. 31.

(18) L. Fage, Commentaires sur la premiere Plate d'Egypte, (Conferences du Palais de la Decouverte), Paris, 1953.

(19) S. Tremillon, Essai... op. cit., p. 32.

(20) I. Bourdial.J. Coquart, «L'eruption d*un volcan expliquerait les 10 plates d'Egypte», Science et Vie, n°1016, mat 2002, pp. 46-55.

(21) Ibid.

(22) S. Tremillon, Essai... op. at., p. 35.

(23) A Lucas, J.-R. Harris, Ancient Egyptian Materials and Industries, Londres, Edward Arnold, 1962.

(24) A. Gemayel, L'hygiene et la medecine a trovers la Bible, Librairie orienta-liste P. Geuther, 1932.

(25) L. Balout, La momie... op. at.

(26) L. Millo, La mart... op. Cit.

(27) q1. Bourdial,J. Coquart, L'eruption... art. cit., pp. 46-55.

(28) S. Tremillon, Essai... op. at, p. 49.

(29) S. Tremillon, Essai... op. at., p. 35.

(30) Bourdial,J. Coquart, L'eruption... art. at., pp. 56-61.

(31) M. W. Dols, «Plague in early Islamic history», Journal of the Oriental Society, 1974, 3, pp. 371-384.

(32) S. Levin,«The death of the first-born: the tenth plague». South African Medical Journal, Mai 1974, 18; 48(24), pp. 1038-1042.

(33) Born-dial .J. Coquart, L'eruption... art. cit., pp. 46-55.

(34) S. Wein, «The plagues of Egypt: what killed the animals and the firstborn», Medical Journal Australia, Aout 1993, 16, 159(4), pp. 285-286.

(35) Bourdial.J. Coquart, L'eruption... art. cit., pp. 46-55.

تقويم زمنى لمصر القديمة

يعتمد التقويم الزمنى التالى على ذلك التقويم المقبول رسميًا لدى إدارة مصر القديمة فى اللوفر. وهو يضع فى اعتباره فقط الملوك الأكثر أهمية، ومع ذلك فإن التواريخ الواردة تقريبية وقد تختلف قليلاً عن تلك التى نجدها فى أعمال أخرى.

نهاية عصر ما قبل التاريخ

عصر نجادة الأول (٣٨٠٠ - ٣٥٠٠)

عصر نجادة الثانى (٣٥٠٠ - ٣٣٠٠)

عصر نجادة الثالث (٣٣٠٠ - ٣١٠٠)

توحيد مصر على أيدى الملك الأسطورى نارمر (مينا)

العصر الثينى

الأسرة الأولى (٣١٠٠ - ٢٩٠٠ ق.م.)

الأسرة الثانية (٢٩٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م.)

الإمبراطورية القديمة

الأسرة الثالثة (٢٧٠٠ - ٢٦٢٠) ق.

جسر (٢٦٨٠ - ٢٦٥٠)

الأسرة الرابعة (٢٦٢٠ - ٢٥٠٠ ق.م.)

سنفرو (٢٦٢٠ - ٢٥٩٠)

خوفو (٢٥٩٠ - ٢٥٦٥)

جدفرع (٢٥٦٥ - ٢٥٥٨)

حفرع (٢٥٦٥ - ٢٥٥٨)

منكاورع (٢٥٥٨ - ٢٥٣٣)

الأسرة الخامسة (٢٥٠٠ - ٢٣٥٠ ق.م.)

ساحورع (٢٤٩٢ - ٢٤٨٠)

نيفر إير كارع كاكاى (٢٤٨٠ - ٢٤٧٠)

نى أوسر رع (٢٤٥٣ - ٢٤٢٠)

أوناس (٢٣٨٠ - ٢٣٥٠)

الأسرة السادسة (٢٣٥٠ - ٢٢٠٠ ق.م.)

بيبى الأول (نحو ٢٣٠٠ ؟)

تيتى الأول (نحو ٢٢٥٠ ؟)

تفتت السلطة وانقسام البلاد

الفترة الوسيطة الأولى

الأسرة السابعة، ذكرها المؤرخ الإغريقى مانيثون "٧٠ ملكًا فى ٧٠ يومًا"

الأسرة الثامنة (٢٢٠٠ - ٢١٥٠ ق.م.)

الأسرة التاسعة (٢١٥٠ - ٢١٠٠ ق.م.)

الأسرة العاشرة (٢١٠٠ - ٢٠٥٠ ق.م.)

الأسرة الحادية عشرة (٢١٦٠ - ١٩٦٣ ق.م.)

إعادة توحيد البلاد نحو عام ٢٠٣٣

الإمبراطورية الوسطى

الأسرة الثانية عشرة (نحو ١٩٦٣ - ١٧٨٦ ق.م.)

أمنمحات الأول (١٩٦٣ - ١٩٣٤)

سيزوستريس الأول (١٩٣٤ - ١٨٩٨)

أمنمحات الثانى (١٨٩٨ - ١٨٦٦)

سيزوستريس الثانى (١٨٦٦ - ١٨٦٢)

سيزوستريس الثالث (١٨٦٢ – ١٨٤٣)
أمنمحات الثالث (١٨٤٣ – ١٧٩٨)
الأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٦ – ١٦٥٠ ق.م.)
تفتت السلطة، ثم صعود قوة الهكسوس

الفترة الوسيطة الثانية

الأسرة الرابعة عشرة (١٧١٠ – ١٦٥٠ ق.م.)
الأسرة الخامسة عشرة (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م.)
احتلال الهكسوس
الأسرة السادسة عشرة (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م.)
أسرتان معاصرتان من الهكسوس
الأسرة السابعة عشرة (١٦٥٠ – ١٥٥٠ ق.م.)
أسرة من طيبة معاصرة لأسرتى الهكسوس السادسة عشرة والسابعة عشرة

الإمبراطورية الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ – ١٢٩٥ ق.م.)
أحمس (١٥٥٠ – ١٥٢٥)
أمينوفيس الأول (١٥٢٥ – ١٥٠٤)
تحوتمس الأول (١٥٠٤ – ١٤٩٢)
تحوتمس الثانى (١٤٩٢ – ١٤٧٩)
حتشبسوت (١٤٧٩ – ١٤٥٧)
تحوتمس الثالث (١٤٧٩ – ١٤٢٥)
أمينوفيس الثانى (١٤٢٥ – ١٤٠١)
تحوتمس الرابع (١٤٠١ – ١٣٩١)
ٔمينوفيس الثالث (١٣٩١ – ١٣٥٣)
ٔمينوفيس الرابع – إخناتون (١٣٥٣– ١٣٣٧)
سمنخارع (١٣٣٨ – ١٣٣٦)
ُوت عنخ آمون (١٣٣٦ – ١٣٢٧)
ى (١٣٢٧ – ١٣٢٣)
ٔورمحب (١٣٢٣ – ١٢٩٥)
لأسرة التاسعة عشرة (١٢٩٥ – ١١٨٦ ق.م.)
مسيس الأول (١٢٩٥ – ١٢٩٤)
سيتى الأول (١٢٩٤ – ١٢٧٩)
رمسيس الثانى (١٢٧٩ – ١٢١٣)
مرنبتاح (١٢١٣ – ١٢٠٣)
سيتى الثانى (١٢٠٠ – ١١٩٤)
الأسرة العشرون (١١٨٦ – ١٠٦٩ ق.م.)
رمسيس الثالث

الفترة الوسيطة الثالثة

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٦٩ – ٩٤٥ ق.م.)
الأسرة الثانية والعشرون (٩٤٥ – ٧١٥ ق.م.)
الأسرة الثالثة والعشرون (٨١٨ – ٧١٥ ق.م.)
الأسرة الليبية
الأسرة الخامسة والعشرون (٧٨٠ – ٦٥٦ ق.م.)
الهيمنة الأثيوبية، أو "الكوشية"
بيانكى (٧٤٧ – ٧١٦)

عصر نهاية الإمبراطورية

الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٤ – ٥٢٥ ق.م.)
الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ – ٤٠٤ ق.م.)
الهيمنة الفارسية الأولى
الأسرة الثامنة والعشرون (٤٠٤ – ٣٩٩ ق.م.)
الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ – ٣٧٩ ق.م.)
الأسرة الثلاثون (٣٧٨ – ٣٤١ ق.م.)
الهيمنة الفارسية الثانية (٣٤٠ – ٣٣٢ ق.م.)

العصر البطلمى

(٣٣٣ – ٣٠ ق.م.)
الإسكندر الأكبر (٣٣٣ – ٣٢٣)
بطليموس الأول – بطليموس الثانى عشر
كليوباترا السابعة (١٥ – ٣٠)

الهيمنة الرومانية

٣٠ ق.م. ضم أغسطس مصر، وأصبحت محافظة رومانية
٦١٤ ، وصول الفاتحين العرب

فهرس ومسرد الآلهة

أمينحوتب : مهندس معماري أثير لدى أمينوفيس الثالث، ويرجع له الفضل في إقامة آثار فخيمة، خاصة معبد الأقصر، وهو من روائع العمارة الدينية في الإمبراطورية الجديدة. وقد تم تأليهه باعتباره إلهًا شافيًا.

آمون : له ألوهية سماوية، سيد الهواء تمثل في رع، رفع إلى مرتبة إله الإمبراطورية، ملك الآلهة، ضامن تجدد الكون للأبد.

أنوبيس : إله الموت والتحنيط، صور على هيئة إنسان له رأس ابن آوى.

عشتارت : الإلهة سيدة الحيوانات، صورت عارية بين الحيوانات الواقفة على حيوان متوحش، لها ألوهية شافية وحامية لفرعون.

بيس : قزم شائه ملتح له وجه تكسوه تكشيرة، تعبر قدراته عن نفسها بالفرح والموسيقى والرقص مما يبعد الأمراض.

المجموعة التساعية : مجموعة جمع كهنة هليوبوليس فيها تسعة آلهة بدائيين. وتشمل هذه المجموعة آتون، إلهًا خالقًا تمثل في رع وأولاده سحو وتفنوت، أول زوجين

إلهيين، وأحفاده جيب ونوت، وأبناءهم، ويكونان أيضا مجموعتين من زوجين، أوزوريس وإيزيس، ست ونفتيس. وكانت هناك مجموعتان تساعيتان أخريان تكملان معبد الآلهة هذا، بهدف إدماج كل الآلهة الآخرين ضمن هذا.

٥٨ ، ١٠٥

جيب : إله الأرض. ٥٧

هاتور : إلهة بقرة، تجسيد لإيزيس، ترمز للخصوبة طليقة العنان فى العالم تتبدى فى شكل الميل الغريزى الشهوانى الذى يستمد منه الخلق كله.

٤٢ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ١٥٨ ، ١٩٢

حورس : إنسان له رأس صقر، ابن إيزيس وأوزوريس، إله الأفق، أكبر آلهة مصر فى العصر الإغريقى الرومانى.

٤٠ ، ٥٨ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٥

أمحوتب : وزير ومهندس معمارى للملك جسر، تم تأليهه باعتباره إلهًا شافيًا.

٨ ، ١٢ ، ٤٢ ، ٢٠٦

إيزيس : أخت أوزوريس وزوجته، ملكة إلهة، وقمر، ساحرة لها قدرات هائلة يبدو أنها كانت أصل دلتا النيل.

٣٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٧٥

خنوم : إله كبش، ألوهيته قديمة جدًا. ويظهر فى الأساطير المتعلقة بنشأة الكون، باعتباره الخالق، خزاف إلهى صنع على عجلته البيضة التى خرج منها الإنسان والعالم.

٢٧ ، ٨٥ ، ٨٩

خونسو: إله قمر، صور كإنسان ملفوف فى الكفن، يحمل على رأسه قرص القمر، إله شاف يبعد الروح الشريرة.

١٤٣ ، ٢٠٢

نيفتيس : إلهة ولدت لجيب ونوت، أخت ست وزوجته.

٥٨ ، ٨٩ ، ٩٤

نوت : إلهة السماء.

٥٧

أوزوريس : إله خالق للحضارة، يرتبط بالخصوبة والعالم الجنائزى، القاضى الأعلى للأموات.

٣٣ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٩٨ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٧٧

رع : الإله الشمس الذى يحكم الكون من أعلى السماوات، هو مصدر البا، نفس العالم وكل الكائنات، ابن الإلهة نوت (السماء) الذى تستقبله كل الليالى لتعيده للعالم فى اليوم التالى.

٣٩ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٥٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٧

سبيك : إله تمساح، زوج هاتور، تجسيد لإله الشمس رع.

١٣٤

سخمت : إلهة – لبؤة أرسلها إله الشمس لعقاب البشر الذى يشتبه فى تآمرهم ضده.

١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٠٢

سلكس، (أو سلكت) : إلهة–عقرب، حامية الأحشاء. وتملك قدرات على تحقيق الشفاء تمارسها عن طريق السحرة "سحرة سلكس".

١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ١٥٤ ، ١٥٨

سيرابيس : إله هجين، يجمع بين خصائص أوزوريس وأبيس ٢٠٦

ست : رجل له رأس كلب، إله العنف، والظلمات، ابن جيب ونوت، شقيق أوزوريس الخالد وعدوه.

٨٥ ، ٧٩

سحو : إله الهواء. يفصل فى هليوبوليس الأرض (جيب) والسماء (نوت) لكى يهتز نور رع.

٨٩ ، ٩٧

تيفنوت : زوجة سحو، تمثل الرطوبة، امرأة لها رأس لبؤة تتمثل فى الغالب الأعم فى تلك "الإلهة البعيدة" ابنة الشمس التى أرعبت صحراء النوبة. وإذ هدأها رسول من رع فقد أخذت شكل هرة وجرى الاحتفال بها فى مصر كلها.

٩٧

توت : إله القمر له رأس طائر أبى منجل، رب الكتبة، مخترع الكتابة.

٣٩ ، ٤٣ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٧٧

تويريس : إلهة حامية المرأة الماخض، وتتبدى فى شكل فرس النهر.

٨٧ ، ٩٦

فهرس ومسرد الملوك

المؤلف فى سطور :

برونو أليوا

أستاذ فى كلية الطب فى باريس ، وحاصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ ، وعضو فى مكتب الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب والجمعية الأمريكية لتاريخ الطب والجمعية الدولية لتاريخ الطب .

المترجم فى سطور :

كمال السيد

صحفى ومترجم ، له ١٨ كتابًا ترجمت عن الفرنسية والإنجليزية ، وعضو بلجنة الكتاب والنشر بالمجلس الأعلى للثقافة ، وبلجنتى الكتب والموسوعات العلمية وتوثيق المنجزات بأكاديمية البحث العلمى .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتّاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	الفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس جيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٢٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٢٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٢٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٢٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٢٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٢٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٢٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٢٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٢٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٢٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٢٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٢٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٢٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٢٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٢٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٢٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٢٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٢٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٢٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٢٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٢٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	ألان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٢٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٢٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٢٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٢٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد
٢٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البراق عبد الهادى رضا

٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة

٤١٠– خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ – الرمانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة	أروندانى روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ – اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ – أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علمانى
٤٤٥ – حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ – التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود

٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكارايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليوم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسني	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكَان	داريان ليدر – جودى جروقز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النتة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ –الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى دونج	ت : عبد العزيز حمدى
٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨١ – عباءة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى
٤٨٤ – جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت : رشيد بنحدو

٤٨٥ – التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ – الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ – الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ – هُسرل : الفلسفة علماً دقيقاً	هُسرل	ت : محمود رجب
٤٩٠ – أسمار الببغاء	محمد قدرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ – نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ – محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد
٤٩٣ – خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت : محمد صالح الضالع
٤٩٤ – كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت : شريف الصيفى
٤٩٥ – اللوبى	إدوارد تيفان	ت : حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ – الحكم والسياسة فى أفريقيا جـ١	إكوادو بانولى	ت : مجموعة من المترجمين
٤٩٧ – العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت : مصطفى رياض
٤٩٨ – النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت : أحمد على بدوى
٤٩٩ – تقاطعات : والأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت : فيصل بن خضراء
٥٠٠ – فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت : طلعت الشايب
٥٠١ – تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت : سحر فراج
٥٠٢ – أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت : هالة كمال
٥٠٣ – مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت : محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ – كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٥ – كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ – ربما كان قديساً	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ – سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت : شوقى فهيم
٥٠٨ – المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقى جلبنارلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ – الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت : قاسم عبده قاسم
٥١٠ – الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت : عبد الرازق عيد
٥١١ – كوكب مرقّع	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ – كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت : جمال عبد الناصر
٥١٣ – العلم الجسور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ – مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت : مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ – من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت : فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ – إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون – ودونا باوندى	ت : صبرى محمد حسن
٥١٧ – نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ – استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت : هاشم أحمد محمد
٥١٩ – محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٥٢٠ – الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت : أمل الصبان
٥٢١ – قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	ت : عبد الوهاب بكر

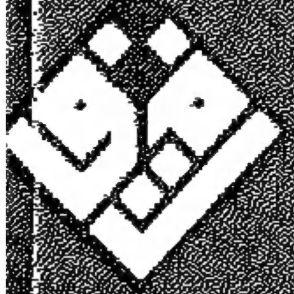
٥٢٢ – إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت : على إبراهيم منوفى
٥٢٣ – الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت : على إبراهيم منوفى
٥٢٤ – الملك لير	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ – موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت : نادية رفعت
٥٢٦ – علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت : محيى الدين مزيد
٥٢٧ – كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت : جمال الجزيرى
٥٢٨ – تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	ت : جمال الجزيرى
٥٢٩ – بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت : حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ – مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت : عمر الفاروق عمر
٥٣١ – ما الذى حَدَثَ فى «حَدَثِ» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت : صفاء فتحى
٥٣٢ – المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	ت : بشير السباعى
٥٣٣ – تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت : محمد الشرقاوى
٥٣٤ – الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	ت : حمادة إبراهيم
٥٣٥ – مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
٥٣٦ – الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت : شوقى جلال
٥٣٧ – للحب والحرية	نخبة	ت : عبد الغفار مكاوى
٥٣٨ – النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	ت : محمد الحديدى
٥٣٩ – خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت : محسن مصيلحى
٥٤٠ – توجهات بريطانية – شرقية	السير رونالد ستورس	ت : رؤوف عباس
٥٤١ – هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت : مروة رزق
٥٤٢ – قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	ت : نعيم عطية
٥٤٣ – السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت : وفاء عبد القادر
٥٤٤ – ميلانى كلاين	نخبة	ت : حمدى الجابرى
٥٤٥ – ياله من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت : عزت عامر
٥٤٦ – ريموس	ت.ب. وايزمان	ت : توفيق على منصور
٥٤٧ – بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت : جمال الجزيرى
٥٤٨ – علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت : حمدى الجابرى
٥٤٩ – علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت : جمال الجزيرى
٥٥٠ – شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت : حمدى الجابرى
٥٥١ – الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت : سمحه الخولى
٥٥٢ – قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت : على عبد الروف البمبى
٥٥٣ – مدخل الشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت : رجاء ياقوت
٥٥٤ – مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت : عبد السميع عمر زين الدين
٥٥٥ – الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت : أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالى
٥٥٦ – چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت : حمدى الجابرى
٥٥٧ – الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٥٥٨ – الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	ت : وفاء عبد القادر
٥٥٩ – الماس الزائف	تشا تشاجى	ت : عبد الحى أحمد سالم

٥٦٠ – صلصلة الجرس	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٥٦١ – جناح جبريل	محمد إقبال	ت : جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢ – بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت : عزت عامر
٥٦٣ – ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	ت : صبرى محمدى التهامى
٥٦٤ – عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	ت : صبرى محمدى التهامى
٥٦٥ – الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	ت : أحمد عبد الحميد أحمد
٥٦٦ – تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت : على السيد على
٥٦٧ – الوطن المغتصب	مايكل رايس	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨ – الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	ت : عبد السلام حيدر
٥٦٨ – موقع الثقافة	هومى . ك . بابا	ت : ثائر ديب
٥٧٠ – دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	ت : يوسف الشارونى
٥٧١ – تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	ت : السيد عبد الظاهر
٥٧٢ – الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	ت : كمال السيد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٨٩٧ / ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة



يشهد العالم فى عصرنا الحاضر ولعًا حقيقيًا بالتاريخ يترجم الحاجة إلى تكريس وقت للتفكير والتدبر، وهذا الاهتمام مهم بصفة خاصة فى ميادين معينة مثل الطب، الذى نشهد حدوث انقلابات كبيرة فيه. وكثيرون هم الممارسون والمرضى الذين يريدون التمكن من عناصر المقارنة والتفسير. وتاريخ الطب، الذى طال إهمال الممارسين أنفسهم له. وسيلة رائعة لفهم المشاكل التى يواجهها الأطباء فى ممارستهم اليومية، مثلما أوضح ليشتشتايلر بدقة : "إن المعارف المهنية وحدها تجعل منك مجرد فنى وموظف فى مجال الصحة، وبفضل الوعى التاريخى وحده تنضج لتصبح شخصية طبية معتبرة عن حق».

يقارب مفهوم الممارسة الطبية فى مصر القديمة ما كان موجوداً فى فرنسا فى القرن التاسع عشر؛ إذ كان يتم التمييز حينذاك بين الطبيب وموظف الصحة والمجبر (أو المداوى)، وهى شخصيات تجد مكافآت تقريبية لها فى الممثلين الثلاثة للهيئة الطبية فى مصر الفرعونية: "كل طبيب، كل كاهن (أواب) لسخمت، وكل سا (سركت) يضع يديه، أو أصابعه على الرأس وعلى الرقبة، وعلى الأيدى، أو على موطن البطن (إب)..." وكان لفظ سونو يشير حسب البعض إلى "طبيب علمانى على أرفع مستوى"، على النقيض من كاهن سخمت الذى يعد كاهنًا مداويًا، ومن ساحر التعازيم سلكت أوسلكيس،الذى يعد ساحراً كاملا .

الغلاف / نسرين كمال